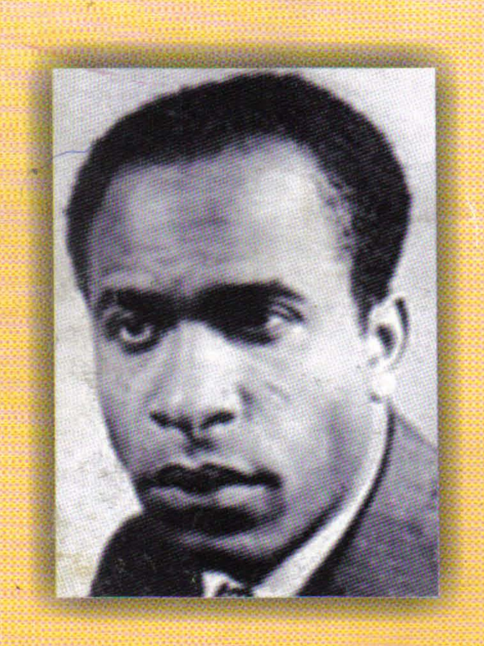
طبعة جديدة

فرانز فانون

معذبوا الأرض






منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

07 / 01 10 13
الايداع القانوني 2007 ـ 1288
ردمك 6 - 528 - 62 - 9961 - 978

معذبو الأرض

الأنيس
سلسلة العلوم الإنسانية
تحت إشراف علي الكنز

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

فرانز فانون

معذبو الأرض

بحث

تقديم ك . شولي



من مؤلفات فانون

سود الوجوه بيض الأقنعة

العام الخامس للثورة الجزائرية

تقديم

ذات يوم من أيام ديسمبر 1953 ، التحق طبيب مختص جديد بمنصبه في مستشفى الأمراض العقلية في البليدة (جوان فيل) ، عمره 28 سنة وهو من أصل مارتينيكي ، أسود ، اسمه فرانزفانون .

في الثاني عشر من ديسمبر 1961 ادت مفرزة من جيش التحرير الوطني فوق التراب الجزائري المحرر (قرب الحدود التونسية) المراسم الشرفية لدفن مناضل من مناضلي الكفاح التحريري الجزائري ، وهو فرانزفانون .

ومنذ ذلك الحين كان فرانزفانون واحدا من أهم المؤلفين الذين قرىء لهم ودرسوا واعترف بهم المناضلون من أجل تحرير الشعوب ، وقد ترجمت مؤلفاته الى العديد من اللغات .

جذور افريقية ، عائلة انتيلية ، إلتزام جزائري وتأثير عالمي :

ان فهم «معذبو الأرض» اليوم يعني فهم الكيفية التي استطاع بواسطتها فانون من خلال التفكير والعمل ، وانطلاقا من ظروف تاريخية عايشها ، الاتيان برسالة مشحونة بالمعاني لأماكن وأزمنة أخرى لم يعهدها ، ولرجال آخرين غير أولئك الذين عرفهم .

الرجل

ولد فرانزفانون في 20 يوليو 1925 في بلدة «فور دو فرانس» في جزر (المارتينيك) من عائلة من الموظفين .

تميزت فترة شبابه بالاضطراب ، مثل ما كانت حالة الشباب من جيله ، الذين تأثروا بعواقب الحرب العالمية الثانية في جزر «المارتينيك» .

وفي العام 1943 سافر سرا الى «الدومينيك» الجزيرة المجاورة ، ليلتحق هناك بالقوى الفرنسية الحرة التي شاركت في الحرب تحت قيادة الجنرال ديغول الى جانب الأنكليز والأمريكيين ضد المانيا النازية وايطاليا الفاشية . وقد ارسل بعد تطوعه الى شمال افريقيا (وقد مكث فترة في مدينة بجاية) حيث كان يتم التحضير لهجوم عن طريق ايطاليا وجنوب فرنسا : وقد شارك مثل العديد من الجزائريين في عمليات انزال القوات في مقاطعة «بروفنس» وفي المعارك التي تلتها .

وفي العام 1945 اصيب فرانزفانون بجروح في احدى المعارك ومنح وساما لشجاعته . ثم سرح من الجيش فقفل عائدا إلى المارتينيك حيث استأنف دراسته وحصل على شهادة البكالوريا ، كما شارك في الحملة الانتخابية للكاتب المارتينيكي الكبير « ايميه سيزار » الذي كان استاذه ، والذي كان لأفكاره اكبر الأثر على ذلك الجيل من المناهضين للاستعمار .

في العام 1947 سافر الى فرنسا بعد حصوله على منحة دراسية وفي مدينة ليون عاش حياة طالب نشيط ، ودون ان يهمل دراسته في الطب ، شارك في المناقشات الفلسفية والسياسية لتلك الفترة . وكان يقرأ كثيرا ويتابع دروسا في الفلسفة . وقد رزق بابنة (ميراي)

وفي العام 1951 انهى اطروحته وحضر لامتحان الداخلية

لمستشفيات الطب النفساني . وتزوج عام 1952 من فتاة ليونية اسمها جوزي ورزق منها ولدا اسمه (أوليفيه) ، وقد أتم تخصصه في الطب النفساني مع الدكتور «توسكيل» وهو طبيب مجدد من الجمهوريين الاسبان المقيمين في فرنسا والذي ترك اسلوبه في العلاج اعمق الأثر في فانون .

وفي نفس تلك السنة أي 1952 صدر له عن دار (سوي Seuil) في باريس أول كتاب من تقديم (فرانسيس جانسون) بعنوان «سود الوجوه، بيض الأقنعة » الذي ما لبث أن لفت الأنظار إليه .

وفي العام 1953 نجح في مسابقة الإلتحاق (ميديكا Médicat) لمستشفيات الأمراض العقلية والتمس منصبا في مدينة البليدة (جوان فيل) الذي كان في ذلك الوقت من أهم مستشفيات منظومة الطب النفساني الفرنسي .

لم يكن الطب النفساني بالنسبة لهذا الطبيب اللامع اختصاصا مثل أي اختصاص آخر ، بل أنه يسمح ويفرض منهم أسباب الآلام النفسية . وباعتباره منتميا لمجموعة كبرى من ضحايا الاستعمار فهو يدرك انه اذا وقع كل البشر ضحايا اعتداءات تمس قدراتهم على فهم حياتهم والتحكم في سلوكاتهم ، فإن المستعمرين (بفتح الميم) معرضون ، زيادة على ما سبق ، الى اعتداءات المعمرين والى العنصرية والاجتثاث الثقافي .

لقد أراد إظهار ما يعرفه عن هذا الاستعمار للعيان ومكافحته عن طريق مساعدة الضحايا على تمالك انفسهم من خلال وعيهم بسبب مرضهم (وهو عمله كطبيب نفساني) . ثم مشاركتهم في الكفاح ضد مسببات هذا المرض (وهو الجانب السياسي من عمله) .

وهكذا اندمج فانون ، كرجل علم ، في حركة تجديد الطب

النفساني التي كانت في بدايتها الأولى في أوروبا انذاك ، وكرس أولى أعماله للتخصص في الأعراض التي تظهر على المغاربة المعاجين في مستشفيات فرنسا .

ولم يكن يتجاوز السابعة والعشرين من عمره عندما أثبت في كتابه «سود الوجوه ، بيض الأقنعة» تأثيرات العنصرية المضعضعة لشخصية المغلوبين على امرهم . وكانت قوة الكتاب تكمن في تطرقه للمسألة كاختصاصي وكمثقف «ملتزم» أيضا (بالمعنى الفلسفي الذي يعطيه الوجوديون لهذه الكلمة) بالتفكير في قضايا المجتمع وبالنقد الفعال للمظالم ، وقد شارك على الخصوص في نشاطات مجموعة المثقفين السود (سنغور ، سيزير ، رايت ، دوس سانتوس ، رابمانانجارا ، الشيخ انتاديوب ، وكثير غيرهم) الذين تجمعهم مجلة «الحضور الافريقي Présence Africaine» وقد كانت له أيضا علاقات وصداقات في أوساط اليسار الفرنسي المثقف في مجلة «الأزمنة المعاصرة Les temps Modernes» وفي مجلة «الفكر Espris» ودار النشر «سوي Seuil» .

اذن لم يكن قدومه الى مدينة البليدة عام 1953 بمحض الصدفة ، بل إنه اختار المجيء لكي يفهم في الميدان تأثيرات الاستعمار على الأشخاص ، وقدرات المقاومة الشعبية في واحدة من الأراضي الأكثر تضررا في ذلك التاريخ .

وقد بدأ منذ تقلده لمنصبه ، يتمرد على الأساليب المستعملة حتى ذلك التاريخ تجاه المرضى ، حيث بقي أكثر الأطباء على وفائهم للممارسات القمعية التي ندد بها التيار المجدد الذي كان فانون من بين رواده في فرنسا ، ويضاف الى تلك الممارسات افعال عنصرية مبطنة أو سافرة تجاه المرضى الأهليين « Indigènes » .

على هذه الجبهة المزدوجة تركز عمل فانون . فهو يحرر المرضى من

عقدهم ، وينظم الورشات ، ويهيىء ملعبا ومقهى ، وينشط فريق كرة القدم وجريدة . ويدرس في نفس الوقت الصدمات التي تسببها العلاقة بين المستعمر والشعب في السياق الخاص للجزائر في ذلك الوقت . ويحلل بصفة معمقة حالات ذات دلالة ويقيم علاقات تتسم بالثقة مع المرضين الجزائريين ، ويجول في منطقة المتيجة لكي يتفهم الاشكال التقليدية السائدة للتكفل بالاضطرابات العقلية .

وقد وقع في صراع مع السلطات الاستعمارية من جراء هذه النشاطات ، الا أن ذلك قد سمح له بالاتصال بأهالي البليدة حيث كان يشارك بحماس كبير في مناقشات نادي السينما ، وقد تعرف على الفنان عبد الرحمن عزيز الذي اكتشف معه موسيقى «الشعبي» وقام بتجارب للعلاج بالموسيقى ، واقام علاقات صداقة . وما لبث أن أثار اهتمام المناضلين الوطنيين المحليين وتعاطفهم .

وعلاوة على ذلك فقد كان فانون ، منذ اندلاع الكفاح المسلح ، على اتصال بجبهة التحرير الوطني . وكانت له نشاطات علنية محليا (في الفرع المحلي لجمعية «الصداقات الجزائرية» لمساندة المحتجزين) كما كانت له نشاطات أخرى سرية ، حيث عهدت اليه المنظمة برعاية الجرحى والمناضلين الذين اصيبوا بصدمات نفسية من جراء القمع . كما شارك في جمع الأدوية للثوار . وقام المسؤولون المحليون لجبهة التحرير الوطني باطلاع مسؤوليهم على اعمال وشخصية فانون ، وبذلك أصبح في نهاية عام 1956 على اتصال مع لجنة التنسيق والتنفيذ (C.C.E.) التي كانت تنسق النضال بصفة سرية من العاصمة ، وقابل عددا من مسيريها .

كانت نهاية هذا النشاط المزدوج في شهر يناير 1957 قبيل اضراب الثمانية أيام بقليل . وبعد أن اكتشف امره ، بعث برسالة

استقالة صاخبة إلى الحاكم العام وأبعد على اثرها من التراب الجزائري .

في فرنسا ، تعهدته فيدرالية جبهة التحرير الوطني التي ارسلته لتوها الى تونس لينضم الى المنظمة الجزائرية في الخارج .

وبمجرد وصوله الى «القاعدة» في تونس ، اوكلت اليه مهام الاعلام ، وفي نفس الوقت طلب منه التوجه ، مثل باقي الأطباء الآخرين ، الى مسؤول الصحة العمومية التونسية ، كي يعين في منصب يمكنه من العناية بالمرضى الجزائريين والتونسيين على حد سواء . وبذلك اصبح طبيبا في مستشفى الأمراض العقلية في (منوبه) ثم مؤسسا للمصلحة النهارية «Service de jour» في مستشفى شارل نيكول ، حيث تابع في هذه الاطار منهجه المجدد في مجال الطب النفساني .

كان مجيء فانون الى تونس هو مجيء مناضل اثبت التزامه من خلال نشاطاته في البليدة وكمناضل أيضا ، مارس فيها مهنته . إلا أن النشاط السياسي اخذ حيزا مهما من وقته استجابة لطلب المسؤولين الجزائريين . وبصفته مثقفا فقد اسندت اليه مهمة الاعلام ، واخذ يشارك في تحرير جريدة المجاهد(الطبعة الفرنسية) بانتظام(1) . ومن جهة أخرى لعب دورا هاما في الاتصالات بين جبهة التحرير الوطني والحراكات السياسية للبلدان الافريقية في مرحلة حاسمة من تاريخ القارة (2)

في ديسمبر 1958 اختير فانون عضوا في الوفد الجزائري الى مؤتمر اتحاد الشعوب الافريقية الذي عقد في أكرا عاصمة غانا الحديثة الاستقلال حيث قابل المكافح القديم نكروما الذي أصبح أول رئيس لجمهورية حديثة الاستقلال .

وفي مارس 1959 شارك فانون في المؤتمر الثاني للكتاب والفنانين السود في روما . وفي يناير 1960 كان ضمن الوفد الجزائري في المؤتمر

الثاني لشعوب افريقيا الذي انعقد في تونس ، وهذا بعد فترة نقاهة قصيرة قضاها إثر حادث سيارة وقع له أثناء قيامه بمهمة كلفته بها المنظمة الجزائرية في الحدود المغربية . وفي تلك الأثناء صدر له في باريس كتاب ثان بعنوان «العام الخامس للثورة الجزائرية» (3) .

وفي مارس 1960 عين ممثلا دائما للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في أكرا ، وشارك في مؤتمرات افريقية عديدة وقابل الكثير من المسؤولين السياسيين واجتمع ثانية باصدقاء قدامى بعضهم اضحى قريبا من السلطة والبعض الآخر انضوى تحت لواء المعارضة الناشئة ، وشاهد عن كثب ظروف الانطلاق المأساوية لبعض الاستقلالات الحديثة ، الأمر الذي آلمه وتأثر منه عميق التأثر ، وبذلك أصبح بامكانه ان يطلع المسؤولين الجزائريين على القضايا الافريقية وان يساهم في اعداد استراتيجية جديدة الا وهي فتح «جبهة جنوبية» تسمح لمجموعات جبهة التحرير الوطني من الدخول الى التراب الوطني انطلاقا من مالي .

وخلال هذا الصيف المليء بالنشاط (قام بزيارة خاصة لباتريس لومومبا في الكونغو ــ الزائير حاليا ــ في الوقت الذي جعلته القلاقل التي اثارها المستعمر القديم يبدو مهددا بالخطر) بدأ يشعر بالمرض يدب في اوصاله .

وأثناء مروره بتونس في ديسمبر 1960 أجرى فحوصات طبية ، وكانت نتيجة التشخيص واضحة : سرطان في الدم ، وهو مرض من الأمراض المستعصية في ذلك الوقت . وقد ارسلته المنظمة الى الاتحاد السوفياتي لاستشارة الاخصائيين ، لكنه عاد الى تونس دون بارقة أمل .

كان يعرف وهو في الخامسة والثلاثين من عمره بأنه سيموت . الا أن هذا المكافح كان لا يريد لافكاره واقواله ولتجربته ان تموت معه ،

فأخذ يقدم عروضا وشروحا على ضباط جيش التحرير الوطني على الحدود التونسية ، ويملي على زوجته نصوصا تم طبعها على الآلة الراقنة شيئا فشيئا وقرئت أجزاء وشذرات على اصدقاء كان يستدعيهم الى جواره .

هذه النصوص كانت تشكل كتاب « معذبو الأرض » الذي فرغ منه في شهر يوليو 1961 .

وفي اكتوبر ارسلته المنظمة الى مستشفى في الولايات المتحدة الأمريكية حيث كان يؤمل ان يستفيد من أحدث الأبحاث العلمية للتغلب على مرضه ، ثم تبعته زوجته وابنه . وكان سروره عظيما حين رأى في نهاية شهر نوفمبر النسخة الأولى من كتابه .

ومات يوم 6 ديسمبر 1961 .

الكتاب :

تم توزيع الكتاب في ربيع عام 1962 إبان « وقف اطلاق النار » بين الجزائر وفرنسا ، ضمن مجموعة « الدفاتر الحرة » للناشر الباريسي ف . ماسبيرو مع مقدمة لجان بول سارتر[4] .

نال هذا الكتاب نجاحا كبيرا مع ان فانون املاه وهو يتوجس خيفة من عدم قدرته على اتمامه ، وأرسل إلى الناشر دون أن يكون لديه الوقت الكافي لمراجعته .

العنوان :

« انهضوا يا معذبي الأرض ،
انهضوا يا مستعبدي الجوع ... »

منذ نهاية القرن التاسع عشر والثوريون في البلدان المصنعة يرددون

هذا النداء لمكافحة جحيم الأرض ، وهو الاستغلال الذي تتعرض له الطبقة العاملة من قبل رأس المال .

استعار فانون التشبيه عند اختياره لهذا العنوان ، لكنه استعاره لكي يعطي للجحيم الأرضي تعريفا آخر ، فلم يعد يقتصر على المصنع ، بل انه موجود أيضا في البلدان المستعمرة . و «الأرض» في هذا التمثيل ليست مجرد مجال لحياة العمل فحسب ، بل انها تصبح أيضا ، وبشكل ملموس ، تلك الأرض التي لم تعد تسد رمق الفلاحين الذين يستغلهم المستعمرون (في الوطن الأم) واتباعهم .

يستمد العنوان قوته من هذا الرنين المزدوج ، حيث ترنو الى مسامع القارىء لاشعوريا تتمة النشيد صداه ، وليس العمال وحدهم ينشدون ، بل انضم إليهم المستعمرون لتعلوا أصواتهم مع كافة « الجنس البشري » .

وإنه إذ اتخذ من التحوير الأول للأزمة النشيد الثوري القديم فاتحة لكتابه ، مع احداث تحوير ثان في المعنى ، فذلك لكي يوقظ الخيالات حتى يشعر الآخرون بأن الشعوب المكافحة في سبيل تحررها قد استلمت مشعل الكفاح من الطبقة العاملة لتواصل نضالها في النصف الثاني من القرن العشرين . وذلك يعني اتخاذ موقف متميز في خضم النقاش الكبير الذي كان دائرا في الأوساط المثقفة اليسارية بين الذين يؤكدون بأن تحرير الجنوب لن يتم الا عن طريق انتصار الثورات في الشمال ، وأولئك الذين يحللون ميكانيزمات الأمبريالية محددين التناقض الرئيسي بين البلدان المصنعة والبلدان المستغلة ، أي الذين لا يرون هزيمة الرأسمالية الا من خلال كفاح الجماهير ضد الاستعمار .

كما يعني ذلك أيضا التأكيد على أن الأمر لا يتعلق بجدال مجرد ، بل انه كانسان أسود البشرة منحدر من العبيد المهجرين من افريقيا لانتاج

السكر للمستعمرين ، وكمناضل جزائري ، يعتبر نفسه في خضم المعركة مع تلك الجماهير ، وان كل شيء في هذه المعركة يعتبر سلاحا ، سواء كان التمثيل أو الوعي أو الثقافة ، ولا يقتصر الأمر على الامكانيات المادية فقط ، لأن « تصفية الاستعمار تعتمد على الكائن البشري » .

المحتوى :

يتألف الكتاب من خمسة فصول .

الفصل الأول «عن العنف» يجيب على سؤال دقيق طرح بالعبارات التالية : «متى يمكننا القول بأن الظروف أصبحت ملائمة للقيام بحركة تحرير وطنية ؟ وكيف يجب ان تكون طليعتها ؟»

سؤال جوهري . لأنه «بالنسبة للأنسان الملتزم يجب قبل كل شيء تحديد الوسائل والتاكتيك ، أي تقرير المسلك والتنظيم ، وما خلا ذلك ليس سوى تهور أعمى مع كل ما يتضمنه ذلك من احتمالات مؤسفة مغرقة في الرجعية» .

والجواب يكمن في التجربة القائمة حاليا لعملية تصفية الاستعمار ، فهو يؤكد على الدور الرئيسي لطبقة الفلاحين ، فهي ليست قانعة بذاتها بصفة أبدية ، بل ينظر إليها على أنها « الثورة الوحيدة» في المنظومة الاستعمارية ، فليس لديها ماتخسره ، بل ستربح كل شيء من تصفية الاستعمار ، في حين ان التاريخ يثبت بان البرجوازية كانت دوما على استعداد لتقبل الحلول الوسط ، وان «المثقفين» يقبلون انصاف الحلول .

اننا اذا وضعنا هذا النص في سياقة التاريخي — في وقت الاستقلالات المتحصل عليها من جهة ، والثورة الجزئية التي أخذ

كفاحها المسلح المنطلق من قاعدة ريفية يتجاوز عوائق الحركة الوطنية من جهة أخرى ــ نجد انه بالدرجة الأولى نص يصف الوضعية ويشرح الأحداث القريبة العهد ، وينادي باستراتيجية للمستقبل القريب . فهو ليس نظرية للثورة بصفة عامة ، بل تحليل للخصائص الأساسية للمنظومة الاستعمارية ، مع التعريف بان الفلاح مستعمر تماما ، وهو أيضا تفكير مبنى على الممارسة الفعلية لشروط تنظيم الكفاح .

ان حساسية فانون في الواقع تظهر في ملاحظاته حول خطر التقليد الاعمى في المنظمة ، ووجوب اكتشاف الحياة الاجتماعية في القاعدة ، والفخ الذي يتمثل في تبني تعريف للتنمية يتطلب « تجنيد شعب مجهد ومنهك منذ أمد أمام أوروبا المتخمة والمستهترة » ، واضطرار المستعمرين لأن « يبرزوا قيما تنبع من صميمهم وأن يكون لديهم أسلوب ومناهج خاصة بهم » .

الفصل الثاني هو عبارة عن تحليل ينطلق من الملاحظات التي تمكن من استخلاصها ، ومن الأخطاء التي ارتكبتها حركات التحرير التي اندفعت ، نتيجة عدم فهمها لتناقضات المنظومة الاستعمارية ، وراء تقليد اشكال التنظيم الخاصة بالبلدان المصنعة متجاهلة ضرورة الاندماج مع الجماهير الفلاحية والتعبير عن مطامحها .

وفي المقابل فان نموذج المناضلين الحضريين الذين التحقوا بالريف تمثله سيرة المناضلين الجزائريين الذين تعرّف عليهم . « ان المناضل الوطني الذي يقرر ان يضع مصيره بين ايدى جماهير الفلاحين بدل ان يلعب لعبة الاستخباء مع رجال الشرطة في المدن الحضرية لا يخسر أبدا. اذ يكتنفه الرداء الفلاحي ويلفه بعطف وحزم لا مثيل لهما ... » .

كل هذا الفصل عبارة عن تفكير حول شروط تنظيم وتسييس

الجماهير بصفة معمقة من أجل الوصول الى استراتيجية مدروسة على المدى الطويل ، تهتم باوضاع الحياة المادية للبشر ، وواعية بضخامة الجهد العضلي والعقلي الذي يجب آن يبذل ، وبضرورة الوصول إلى نضج تدريجي ومتبادل للضمائر . بذلك يضع فانون الركيزة الأولى لنظرية المعرفة كممارسة جماعية وكجدلية طبقة المثقفين ، وكان من الممكن أن تكون اسهامه النظري المحض لو كان لديه الوقت الكافي لاتمام مهمته .

يشتمل الفصل الثالث : «مزالق الوعي الوطني» على نقد للبورجوازيات الوطنية في البلدان المتخلفة ، وبشكل خاص ، عجزها عن ترشيد النضال الشعبي أي على استخلاص معانيه ودوافعه» . لقد أسفرت هذه البرجوازيات عن وجهها وظهرت كوسيط للبلدان التي كانت تستعمرها ، وتعرضت لسخرية هذه البلدان بسبب غبائها وخمولها .

ان تحذيره من الانحرافات التي تتعرض لها الاستقلالات الجديدة كان تحذيرا مفحما ودافعا ، كما ان تعريفه لطرق عمل الحزب في مثل هذه الظروف كان تعريفا دقيقا وحيا .

الفصل الرابع «في الثقافة الوطنية» يتضمن استعادة للمواقف التي سبق لفانون ان طرحها خلال اللقاءات المختلفة التي جمعته بمثقفين من البلدان المستعمرة . وهو يتضمن تعريفا جديدا لمعركة الثقافية داخل معركة التحرير الكلية . «ان الانسان المستعمر الذي يكتب لشعبه بصيغة الماضي انما يجب عليه ان يفعل ذلك بغية أن يفتح أبواب المستقبل ، وان يحث على العمل ، وان يغرس بذور الأمل ...»

ونظرا لأن هذا الفصل قد كتب بتعابير (عامة) . فإنه لا يشرح جوانب هذه المعركة الثقافية أو تلك التي تناسب هذا الشعب أو ذاك. لكنه

يؤكد على دور الوعي الجماعي المتأصل في تاريخ كل شعب.

ويقدم الفصل الخامس «حالات» من الاضطرابات العقلية التي تأتي لتدعم معطيات الفصول السابقة ولتذكر بأن فانون ما فتىء يربط بين مهنته والتزامه السياسي.

وتأتي الخاتمة كنداء رائع للتحرر من الأنماط الغربية.

« هيا ، أيها الرفاق ، انه ليجدر بنا أن نقرر منذ الآن ان ننتقل الى الضفة الأخرى . يجب ان نهز الليل الطويل الذي كنا غارقين فيه وان نخرج منه . والنهار الجديد الذي اخذ يطلع ، يجب ان يجدنا حازمين واعين قد عزمنا أمرنا » .

قراء وقراءات :

كان نجاح الكتاب في فرنسا مواكبا لظهوره ، ولكن النقاش الذي اثاره أبرز آراء متضاربة . فقد رأى اليمين الاستعماري في فانون عدوا بطبيعة الحال ، اما اليسار فقد اخذ عليه عدة مآخذ ، منها : «انسانيته» و « عفويته » و « فلاحيته » ، وافتقاره للشروح والبراهين الاقتصادية ، واصراره على ابراز الجوانب الثقافية للكفاح . في هذه الأوساط ، حيث كان الشعور بالخطأ تجاه الثورة الجزائرية يتسع بقدر ما أدركت الثورة الانتصار ، فان هذا الكتاب قد سبب الازعاج لتلك الأوساط .

اما مثقفو الشعوب المستعمرة وما ندر من المثقفين الغربيين المهتمين باقوال المستعمرين فقد اصغوا الى النداء ، وسرعان ما اصدرت مجلة « حضور افريقي Présence Africaine » عددا خاصا تكريما لفانون ، تضمن تعريفا بالرجل وبكتابه في البلدان التي تصلها المجلة ، وخاصة التي تستعمل اللغة الفرنسية .

في الجزائر المستقلة ، تلقت الأوساط المناضلة هذه الرسالة مباشرة حيث كانت تعبر عن قيمهم وانشغالاتهم المقلقة . غير ان مشاكل تنظيم الدولة والاقتصاد ومشاريع التصنيع فيما بعد ، جعلته يبتعد بالتدريج عن ساحة الأحداث . وتحول فانون شيئا فشيئا الى رمز اعطى اسمه لشارع ولثانوية ولمستشفاه القديم . ولا يقرأ له فعلا الا القليل من الناس .

اتهم البعض مؤلفات فانون بـ « العفوية » وبـ « الفلاحية » فاشاعوا نفس الاتهامات التي راجت في الخارج ، بينما راح البعض الآخر ، من الذين اثارت حساسيتهم بعض العروض المبسطة لحياته ، يسعى الى ان يثبت ان فانون لم يخلق ايديولوجية الثورة الجزائرية ، وهو أمر لم ينسبه لنفسه بتاتا .

أما النجاح الجديد الذي عرفه مؤلف فانون فقد كان في الخارج . وفي الخارج أيضا برزت الى الوجود أسطورة فانون مع ظهور الترجمات المتعددة له : الترجمة العربية (القاهرة 1962) ، الترجمة الانكليزية (نيويورك 1966) ، والترجمات الألمانية والايطالية والاسبانية واليابانية ...

لقد أثار كتاب « معذبو الأرض » في سائر أنحاء العالم اهتمام كل الذين يفكرون في تحولات المجتمعات في النصف الثاني من القرن العشرين ، وخاصة في علاقات الهيمنة الجديدة التي فرضتها الدول الاستعمارية القديمة والمراكز الاقتصادية على البلدان التي لم تمنعها تصفية الاستعمار من أن تبقى حاملة صفة « البلدان النامية » « الأمم البروليتارية » ، « العالم الثالث » .

وكثيرا ما طرح الكتاب على بساط البحث في النقاش حول التناقضات الرئيسية لتلك الفترة أو حول اختيار استراتيجية للتحرير .

وتبنت افكار فانون جل الحركات الطلابية التي ميزت نهاية الستينات في الولايات المتحدة وألمانيا وإيطاليا وفرنسا وحتى اليابان . كما أن العديد من مناضلي الشعوب المكافحة من أجل استقلالها في افريقيا وخارجها يعتبرون إرث فانون ملكا لهم . أما في الولايات المتحدة ، فان السود ، في نضالهم ضد الميز العنصري ومن أجل الاعتراف بحقوقهم ، وجدوا في فانون أخاً لهم ، اذا كان مرجعا لجماعة « القوة السوداء » التي كان بعض زعمائها يعتبر كتاب « معذبو الأرض » مماثلا « للأنجيل » .

ان فرانزفانون ، الذي يبعث من خلال هذا الفيض من القراءات المستوحات من أوضاع تاريخية مختلفة ، ليس هو ذلك الانسان ذو الأصل الانتيلي المارتينيكي الذي أختار ان يكون جزائريا فحسب ، بل هو ذلك الذي يندد بالتواصل القائم بين استعمار الأمس واشكال أخرى من الاضطهاد .

ومنذ وقت قريب ، اعترف الانتيليون به واعتبروه ابنهم البكر ، اذ نظموا حفل تأبين في « فور دو فرانس » بمناسبة الذكرى العشرين لوفاته ، حيث تواردت الشهادات من كل اصقاع العالم . كما حضر وفد انتيلي مارتينيكي للوقوف وقفة إجلال أمام قبره في عين الكرمة (ولاية الطارف) في عام 1985 . وتوجد في المارتينيك « حلقة للدراسات والفكر السياسي » تحمل اسم فرانزفانون .

ان كل من يقرأ هذا الكتاب الذي الف قبل ربع قرن ، يجد فيه الدفع اللازم لكي يتطرق الى مشاكله على النحو الذي يراه .

وفي الوقت الذي تبرهن فيه الأزمة الاقتصادية العالمية ومآسي العالم الثالث ، على بعض حدسيات فانون ، وفي الوقت الذي يقترح فيه اقتصاديو « الجنوب » مثل « سمير أمين » البحث عن الخلاص عن طريق « الانفصال » ، نجد انه قد حان الوقت لكي نعيد قراءة فانون .

«هيا يا رفاق : ان الأعمال التي يقع على عاتقنا ان نقوم بها أكثر من أن نستطيع تضييع وقتنا في الهيآت تتسلى بها المؤخرة» .

«لا ، نحن لا نريد اللحاق بأحد ، ولكننا نريد ان نمشي طوال الوقت ليلا ونهارا ، في صحبة الانسان ، في صحبة جميع البشر» .

: شولي .

ترجمة السيدة : منور .

هوامش

(1) نشرت بعض المقالات التي نسبت اليه فيما بعد في كتاب «من أجل الثورة الافريقية» الصادر في باريس ، دار ماسبيرو ، 1964 . (لم تكن المقالات المنشورة في جريدة المجاهد تحمل أي توقيع ، بل غالبا ما كانت عملا جماعيا) .

(2) كانت بوادر الأمل في الوحدة الافريقية تنعقد انذاك حول غانا المستقلة منذ عام 1957 وغينيا التي اختارت الاستقلال عام 1958 . وشهدت سنة 1960 موجة الاستقلالات الجديدة للسنيغال والكونغو مرورا بنيجيريا . وفي أنغولا والموزامبيق فان المناضلين الوطنيين الذين يكافحون القمع كانوا يستعدون للكفاح المسلح ضد الاستعمار البرتغالي .

(3) اعيد طبع هذا الكتاب فيما بعد تحت عنوان «سوسيولوجية ثورة» وهو العنوان الذي لم يختره فانون .

(4) نص هذه المقدمة منشور في ملحق هذا الكتاب .

في العنف

سواء أقلنا تحريرا وطنيا ، أم نهضة قومية ، أم انبعاثا شعبيا ، أم اتحادا بين الشعوب ، وكيفما كانت العناوين المستعملة والمصطلحات الجديدة ، فان محو الاستعمار انما هو حدث عنيف دائما . ان محو الاستعمار ، على أي مستوى درسناه : سواء أكان مستوى لقاء الأفراد بعضهم ببعض ، أم مستوى تسميه النوادي الرياضية بأسماء جديدة ، أم مستوى التشكيل الانساني الحفلات الكوكتيل وأجهزة الشرطة ومجالس ادارة المصارف القومية او الخاصة ، انما هو احلال «نوع» أنساني محل «نوع» انساني آخر ، احلالا كليا ، كاملا ، مطلقا ، بلا مراحل انتقال . وفي وسعنا طبعا ان نبين أيضا انبثاق أمة جديدة ، وقيام دولة جديدة مع علاقاتها الدبلوماسية واتجاهها السياسي والاقتصادي . ولكنني انما اخترت ان اتحدث عن هذا النوع من المحو الذي يحدد في البداية كل ازالة للاستعمار . والحق ان دليل النجاح انما هو تبديل صورة المجتمع تبديلا تاما . وهذا التبديل يستمد خطورته الخارقة من أنه قد أريد ارادة ملحة شديدة . فان ضرورة هذا التبديل قائمة في وجدان وحياة الرجال والنساء المستعمرين على حالة فجة جارفة قاهرة . ولكن احتمال هذا التبديل يعيشه ايضا وجدان «نوع» آخر من الرجال والنساء ، هو نوع «المستعمرين» ، على صورة مستقبل مروع رهيب .

ان محو الاستعمار ، وهو يستهدف تغيير نظام العالم ، أنما هو ، كما ترون ، برنامج لقلب النظم قلبا مطلقا . ولكنه لا يمكن ان يكون ثمرة عملية سحرية أو زلزال طبيعي أو تفاهم ودي ، أي انه لا يمكن ان يفهم ولا يمكن ان يعقل ، ولا يمكن ان يصبح واضحا لنفسه ، الا بمقدار ادراك الحركة الصانعة للتاريخ التي تهب له شكله ومضمونه ، ان محو الاستعمار انما هو نزال بين قوتين متعارضتين أساسا ، قوتين تستمد كل منهما صفتها الخاصة من ذلك التكوين الذي يفرزه الطرف الاستعماري ويغذيه . ان التجابه الأول الذي تم بين هاتين القوتين انما تم تحت شعار العنف ، كما ان تساكنهما — او قل استغلال المستعمر للمستعمر — انما تلاحق بدعم قوى من الحراب والمدافع . ان المستعمر والمستعمر يعرف احداهما الآخر من زمان طويل . والمستعمر حين يقول انه «يعرفهم» هو على حق فيما يقول . فالمستعمر هو الذي صنع المستعمر وما يزال يصنعه . ان المستعمر يستمد حقيقته ، أي خيراته ، من النظام الاستعماري .

ومحو الاستعمار لا يمكن ان يعبر عبورا دون ان يلاحظه أحد ، لأنه يتناول الوجود ، لأنه يغير الوجود تغييرا أساسيا ، لأن أناسا مشاهدين يسحقهم أنهم ليس لهم ماهية ، يأتي محو الاستعمار هذا فيحيلهم أناسا فعالين ممتازين يدخلون تيار التاريخ دخولا رائعا . ان محو الاستعمار يبث في الوجود ايقاعا خاصا يجيء به الرجال الجدد ، ويحمل الى الوجود لغة خاصة وانسانية جديدة . ان محو الاستعمار لهو خالق رجال جدد حقا . ولكن هذا الخلق لا يستمد مشروعيته من أية قوة فوق الطبيعة ، ان «الشيء» المستعمر . يصبح انسانا بمقدار ما يحقق من عمل لتحرير ذاته .

ففي محو الاستعمار يجب اذن تغيير الوضع الاستعماري تغييرا

كاملا . ويمكن أن يقوم تعريفه ، اذا أردنا ان نصفه وصفا دقيقا ، في هذه العبارة المعروفة : «الأواخر سيصبحون الأوائل» . ان محو لاستعمار تحقيق لهذه الجملة . ولذلك فان كل محو للاستعمار هو من ـحية الوصف نجاح .

ان محو الاستعمار حين يعرض عاريا ، يكشف من خلال مساماته كلها ، عن رصاصات حمر وخناجر دامية . ذلك أنه اذا كان على لأواخر ان يصبحوا هم الأوائل . فان هذا لا يمكن ان يتم الا بعد قتال حاسم مميت يخوضه الطرفان المتنازعان . ان هذه الارادة الثابتة التي تريد ان تنقل الاواخر الى طليعة الصف ، وأن تجعلهم يتسلقون «بسرعة مفرطة كما يقول بعضهم ، الدرجات المعروفة التي يتألف منها مجتمع منظم ، هذه الارادة لا يمكن أن تنتصر الا اذا ألقيت في الميزان جميع الوسائل ، ومنها وسيلة العنف طبعا .

انك لا تستطيع ان تفكك نظام مجتمع من المجتمعات ، مهما يكن بدائيا ، ببرنامج كهذا البرنامج ، ما لم تعزم أمرك منذ البداية ، أي منذ وضع هذا البرنامج نفسه ، على أن تحطم جميع الحواجز التي ستلقاها في طريقك . والمستعمر الذي يقرر ان يحقق هذا البرنامج ، يكون له المحرك ، مهيأ للعنف منذ زمن طويل . لقد أدرك منذ ولادته ادراكا واضحا ان هذا العالم المضيق ، المزروع بأنواع المنع ، لا يمكن تبديله الا بالعنف المطلق .

ان العالم الذي يسوده النظام الاستعماري هو عالم مقسم . ومن ناقل القول طبعا ، على صعيد الوصف ، ان نذكر ان هناك مدنا للسكان الأصليين ومدنا للأوروبيين . ان هناك مدارس للسكان الأصليين ومدارس للأوروبيين ، كما ان من ناقل القول أن نذكر التمييز العنصري في جنوب افريقيا . ومع ذلك فاننا حين ندخل الى صميم هذا

التقسيم ، نجني فائدة واحدة على الأقل ، هي اننا نستطيع عندئذ ان نبرز بعض خطوط القوى التي يضمها . ان دارستنا للعالم الاستعماري وتنظيمه وترتيبه الجغرافي ستتيح لنا أن نعين خطوط التداخل التي ستبدأ بها اعادة تنظيم المجتمع الذي تخلص من الاستعمار .

ان العالم المستعمر منقسم الى عالمين . والخط القاسم ، او الحدود الفاصلة ، انما هي لثكنات ومراكز الشرطة . فالدركي والشرطي في المستعمرات هما المرجع القيم الشرعي الذي يستطيع المستعمر أن يرجع اليه وأن يخاطبه وهما الجهة التي تنطق بلسان المستعمر ونظام الاضطهاد . اننا نرى في المجتمعات التي تنتمي الى الطراز الرأسمالي ، ان التعليم ، سواء أكان دينيا أم علمانيا ، وتكوين المنعكسات الاخلاقية التي يأخذها الأبناء عن الآباء ، والشرف المثالي الذي يسند الى عمال يمنحون الأوسمة بعد خمسين عاما أنفقوها في القيام بخدمات طيبة مستقيمة ، وتشجيع حب الاتزان والتعقل ، هذه الأشكال الجمالية لاحترام النظام القائم تخلق حول المستغل جوا من الخضوع والامتناع يخففان عبء قوى الأمن تخفيفا كبيرا . اننا نرى في البلاد الرأسمالية طائفة كبيرة من أساتذة الأخلاق ، والموجهين ، «والمصلحين» تقف حائلا بين المستغل والسلطة الحاكمة . أما في المناطق المستعمرة فان الدركي والشرطي بحضورهما المباشر وتدخلاتهما السريعة الكثيرة ، يظلان على اتصال بالمستعمر وينصحانه بالعصا أو بالمواد المحرقة ، ان لا يتحرك . وهكذا ترون ان وسيط السلطة الحاكمة يستعمل هنا لغة هي عنف صرف . ان الوسيط لا يخفف هنا الاضطهاد ، ولا يسدل على السيطرة حجابا . انه يعرضهما ، انه يظهرهما . ان الوسيط يحمل العنف هنا الى بيوت المستعمر والى أدمغته .

والمنطقة التي يسكنها المستعمرون لا تكمل المنطقة التي يسكنها

المستعمرون . ان هاتين المنطقتين تتعارضان ، ولكن لا في سبيل وحدة أعلى . انهما تخضعان لمبدأ التنافي المتبادل ، فلا سبيل الى مصالحة : أن احد الطرفين زائد يجب ان يزول . ان مدينة المستعمر «المستوطن» مدينة صلبة مبنية بالحجر والحديد ، مدينة أنوارها ساطعة ، وشوارعها معبدة بالأسفلت ، وصناديق القمامة فيها ما تنفك تبلغ نفايات ما عرفها الآخرون ، ولا رأوها يوما ، ولا حلموا بها يوما . والمستعمر لا ترى قدماه عاريتين قط ، اللهم الا على شواطىء البحر ، ولكن الآخرين لا يمكن ان يقتربوا منهما اقترابا كافيا . قدمان تحميهما أحذية متينة ، مع ان شوارع مدينتهما نظيفة ، ملساء ، لا ثقوب فيها ولا حصى .

أما مدينة المستعمر ، أو مدينة السكان الأصليين ، أما القرية الزنجية ، أما بلدة الأهالي ، أما الحي الذي يحظر على الأوروبيين ان يتجولوا فيه ، فهو مكان سيء السمعة يسكنه أناس سيؤو السمعة . فيه يولد المرء أين كان ، وكيف كان . وفيه يموت المرء أين كان ، وبأي شيء كان . هو عالم بلا فواصل ، الناس يتكدسون فيه بعضهم فوق بعض ، والأكواخ تتكدس فيه بعضها فوق بعض . ان مدينة المستعمر مدينة جائعة ، جائعة الى الخبز ، والى اللحم ، والى الأحذية ، والى الفحم ، والى النور . مدينة المستعمر مدينة جاثية ، مدينة راكعة ، مدينة متدحرجة في الوحل . انها مدينةزنوج . مدينة عرب . والنظرة التي يلقيها المستعمر على مدينة المستعمر هي نظرة شهوة ، هي نظرة حسد . ان المستعمر يحلم بالتملك ، بجميع أنواع التملك : ان يأكل على المائدة التي يأكل عليها المستعمر ، ان ينام في الفراش الذي ينام فيه المستعمر ، وربما مع امرأة المستعمر ايضا . ان المستعمر حسود . والمستعمر لا يجهل هذا ، فهو حين يلحظ نظرة

المستعمر خلسة ، يقول في مرارة : «انهم يريدون ان يحتلوا مكاننا» . هذا صحيح : ما من مستعمر الا ويحلم مرة في اليوم على الأقل ، ان يأخذ مكان المستعمر .

هذا العالم المقسم . هذا العالم المقسم قسمين ، يسكنه نوعان مختلفان . والطابع الخاص الذي يطبع النظام الاستعماري ، هو ان الوقائع الاقتصادية ، هو ان الفروق الاقتصادية والتفاوت الكبير في طرز المعيشة ، لا تستطيع أبدا ان تحجب الوقائع الانسانية . حين ندرك النظام الاستعماري في واقعه المباشر ، نلاحظ ان ما يقسم العالم انما هو اولا انتساب المرء او عدم انتسابه الى نوع معين ، الى عرق معين . ان البنيان التحتي الاقتصادي هو في المستعمرات بنيان فوقي ايضا . السبب هنا نتيجة : المرء غني لأنه أبيض ، وأبيض لأنه غني . لذلك كان على التحليلات الماركسية ان تخفف من حدتها قليلا حين تعالج مشكلة المستعمرات . وحتى مفهوم المجتمع السابق على الرأسمالية ، الذي أجاد ماركس دراسته ، يتطلب هنا اعادة التفكير فيه . ان ماهية العبد غير ماهية الفارس ، ولكن لابد من الاستناد الى الحق الالهي لاضفاء صفة الشرعية على هذا الفرق القائم . ان الأجنبي في المستعمرات ، قد جاء من مكان آخر ، وفرض نفسه بمدافعه وآلاته . فالمستعمر يظل أجنبيا رغم نجاحه في التطويع ورغم التملك الذي حققه لنفسه . ان ما يميز «الطبقة الحاكمة» أولا وقبل كل شيء ليس هو المصانع ولا الأملاك ولا الرصيد في البنك ، فأنما النوع الحاكم هو أولا وقبل كل شيء ، النوع الذي جاء من مكان آخر ، النوع الذي لا يشبه السكان الاصليين ، هو نوع «الآخرين» .

والعنف الذي سيطر على ترتيب العالم الاستعماري ، والذي عمل بلا كلل على تحطيم صور الحياة الاجتماعية لدى السكان الاصليين ،

وخرب بلا قيود طراز الاقتصاد ، وأشكال المظهر ، والملبس ، سيطالب به المستعمر وسيتولاه ، في اللحظة التي يقرر فيها ان يكون هو التاريخ اعمالا ، فاذا الجمهور المستعمر يهوي على هذه المدن الممنوعة عنه . ان تحطيم العالم الاستعماري هو بعد الآن صورة واضحة المعالم بينه السمات للعمل الذي يجب على المستعمر ان يقوم به ، صورة واضحة المعالم بينة السمات للعمل الذي يجب على المستعمر ان يقوم به ، صورة يفهمها كل الفهم كل فرد من الافراد الذين يتألف منهم الشعب المستعمر ، ويستطيع أن يستعيدها ثم يستعيدها مرة بعد مرة . وتحطيم العالم الاستعماري لا يعني انه يحافظ على ممرات بين المنطقتين ، بعد ازالة الحدود التي تفصل احداهما عن الأخرى . ان تحطيم العالم الاستعماري لا يعني الا شيئا واحدا هو ازالة احدى هاتين المنطقتين ، فاما دفنها في أعماق الأراضي ، واما طردها من البلاد .

وتغيير المستعمر للعالم الاستعماري ليس معركة عقلية بين وجهتي نظر . ليس خطابا في المساواة بين البشر ، وانما هو تأكيد عنيف لأصالة تفرض مطلقة . ان العالم الاستعماري عالم ثنائي . والمستعمر لا يكتفي بأن يحد مجال المستعمر ، باستعمال القوة المادية ، أي بواسطة شرطته ودركه ، وانما هو يجعل من المستعمر روح الشر وخلاصته ، كأنه يدل بذلك على أن الاستغلال الاستعماري كلي شامل (1) . انهم لا يكتفون بأن يصفوا المجتمع المستعمر بأنه خال من القيم . ان المستعمر لا يكتفي بالقول ان القيم قد نزحت عن المجتمع المستعمر ، أو أنها لم توجد فيه يوما . وإنما هو يعلن ان السكان الأصليين لا سبيل لنفاذ الأخلاق الى أنفسهم ، وان القيم لا وجود لها عندهم ، بل انهم انكار للقيم ، أو قل انهم أعداء للقيم . فالمستعمر بهذا المعنى هو الشر المطلق . انه عنصر متلف يحطم كل ما يقاربه ، عنصر مخرب يشوه كل

ماله صلة بالجمال او الأخلاق ، انه مستودع قوى شيطانية ، أنه أداة لقوى عمياء ، اداة لا وعي لها ولا سبيل الى اصلاحها . وهذا مسيو ماير يقول جادا في «الجمعية الوطنية الفرنسية» : ان علينا ان لا نلوث الجمهورية بادخال الشعب الجزائري اليها . ذلك ان القيم تتسمم وتفسد على نحو لا يمكن اصلاحه متى جعلناها تحتك بالشعب المستعمر . ان عادات المستعمر وتقاليده . وخرافاته ، خاصة خرافاته ، هي بعينها علامة هذا الانحطاط وهذا الفساد القائم في تكوينه ذاته . ولذلك يجب ان نضع على مستوى واحد مبيدات الحشرات التي تنقل الأمراض ، والديانة المسيحية التي تحارب الهرطقات والغرائز والشر في مهدها . ان التقدم في القضاء على الحمى الصفراء والتقدم في نشر دين الانجيل أمران متشابهان . ولكن البلاغات المظفرة التي تنشرها الارساليات التبشيرية تدلنا على أن خمائر الضياع المنبثقة في جسم الشعب المستعمر هي على جانب كبير من القوة . وحديثي هنا عن الديانة المسيحية ، ولاحق لأحد أن يدهش من ذلك . ان الكنيسة في المستعمرات كنيسة بيض . كنيسة أجانب . أنها تدعو الإنسان المستعمر الى طريق الله ، وانما تدعوه الى طريق الانسان الأبيض ، الى طريق السيد المتسلط ، الى طريق المضطهد الغاشم . وأنتم تعلمون ان في تاريخ البعثات التبشرية هذا كثيرا من المكلفين وقليلا من المختارين .

وتمضي هذه الثنائية أحيانا الى أقصى منطقها ، فتجرد المستعمر من انسانيته ، حتى لتعده حيوانا . أنظر الى اللغة التي يتكلمها المستعمر حين يتكلم عن المستعمر ، تجد انها اللغة المستعملة في وصف الحيوانات : انهم يستعملون هذه التعابير : زحف العرق الأصفر ، أرواث المدينة الأصلية . قطعان الأهالي ، تفريخ السكان ، تنمل الجماهير ، الخ . ان المستعمر حين يريد أن يحسن الوصف وان يجد

الكلمة المناسبة ، يرجع دائما الى الألفاظ المستعملة في وصف الحيوان . والأوروبي قلما يلبث على هذه الألفاظ المشتملة على استعارات . ولكن المستعمر الذي يدرك غرض المستعمر ، يعرف فورا ما انصرف اليه ذهن صاحبه . وهذا بعض ما يجري على لسان المستعمر من مصطلحات : هؤلاء السكان الذين يدبون على الأرض ، هذه الجماهير المستهترة ، هذه الوجوه التي فر منها كل معنى انساني ، هذه الأجسام المترهلة التي لا تشبه شيئا من الاشياء ، هذا القطيع الذي لا رأس له ولا ذنب : هؤلاء الأطفال الذين لا يبدو ان لهم أهلا ، هذا الكسل المستلقي تحت الشمس ، هذه الحياة التي تشبه حياة النباتات الخ .. ولقد تكلم دو جول عن «الجموع الصفراء» ، وتكلم مسيو مورياك عن الكتل السوداء والسمراء والصفراء التي تهم أن تندفع أمواجها . ان المستعمر يعرف هذا كله ، ويضحك كلما اكتشف نفسه حيوانا في أقوال الآخر . ذلك أنه يعرف أنه ليس بحيوان . وهو في الوقت الذي يدرك فيه أنه انسان ، يأخذ بشحد أسلحته ليحقق انتصار انسانيته .

ومتى أخذ المستعمر يرسخ أقدامه على قواعدها ، ويقلق المستعمر ، أوفدوا اليه رجالا أخيارا يحدثونه في «مؤتمرات الثقافة» عن خصائص القيم الغربية وعن غناها . ولكن كلما دار الحديث على القيم الغربية حدث لدى المستعمر نوع من التصلب والتشنج العضلي . انهم في فترة التحرر من الاستعمار يناشدون عقل المستعمرين ، ويعرضون عليهم قيما أكيدة ، ويشرحون لهم في كثير من الافاضة ان التحرر من الاستعمار يجب ان لا يعني التقهقر الى وراء ، وان عليهم ان يعتمدوا على قيم مجربة وطيدة راسخة . غير ان ما يحدث هو ان المستعمر حين يسمع خطابا عن الثقافة الغربية ، يخرج خنجره أو يتلمسه في مكانه

ليتأكد من وجوده . ذلك أن العنف الذي كفل تفوق على قيم البيض ، وان العدوان الذي لابس المعركة الظافرة التي خاضتها هذه القيم من الحياة والفكر الخاصة بالمستعمرين ، يجعلان المستعمَّر يسخر حين يتحدث أحد أمامه عن هذه القيم . ان المستعمَر لا يتوقف أثناء فترة الاستعمار عن عمله في انهاك المستعمر وتحطيمه ، الا اذا اعترف له هذا بتفوق قيم البيض اعترافا صريحا واضحا . وفي فترة التخلص من الاستعمار تسخر الجماهير المستعمرة من هذه القيم ذاتها ، بل تهينها وتبصقها بصقا .

وهذه الظاهرة تكون في العادة مقننة ، ذلك ان بعض المثقفين قد قاموا ، أثناء فترة الاستعمار ، بحوار مع بورجوازية البلاد الاستعمارية . لقد كان الاستعماريون لا يرون أهل البلاد المستعمرة الا كتلة غير متميزة . والشخصيات القليلة التي أتيح للبورجوازيين الاستعماريين أن يعرفوها من أهل البلاد لم تؤثر تأثيرا كافيا في تلك النظرة المباشرة لتحملهم على تعديلها . أما في فترة التحرر من الاستعمار فان البورجوازية الاستعمارية تسعى في كثير من الحماسة المحمومة الى عقد صلات بالنخبة المثقفة . ومع تلك النخبة المثقفة انما شرعوا في ذلك الحوار حول القيم . ان البورجوازية الاستعمارية ، حين تدرك عجزها عن الاستمرار في السيطرة على البلاد المستعمرة ، تقرر ان تخوض معركة خلفية ، في ميدان الثقافة ، والقيم ، والتكنيك ، وما الى ذلك . ولكن الأمر الذي يجب ان لا يغيب عن البال هو ان السواد الأعظم من الشعوب المستعمرة لا يمكن ان تنفذ اليه هذه المشكلات . فالقيمة الأساسية عند الشعب المستعمر ، أنما هي الأرض ، لأنها هي القيمة المحسوسة الملموسة ، الأرض التي تكفل الخبز ، والتي تكفل الكرامة طبعا ، ولكن الكرامة التي تكفلها لا شأن لها بكرامة «الشخصية

الانسانية» التي يتحدث عنها الاستعماريون . أن الشعب المستعمر لم يسمع يوما بهذه الشخصية الانسانية الخيالية . وما رآه على أرضه ، بأم عينه هو أنه يعتقل لغير ذنب جناه ، وانه يضرب وأنه يجوع . انه لم ير في يوم من الأيام أستاذا من أساتذة الأخلاق ، ولا رجلا من رجال الدين المسيحي ، يأتي ليتلقى عنه اللطمات ، أو ليعطيه قسما من خبزه . الأخلاقية عند المستعمر هي ان يتلخص من غطرسة المستعمر ، هي أن يحطم عنفه الشامخ ، أي ان يطرده من الميدان طردا كاملا . ان المبدأ القائل بأن البشر جميعا متساوون سيتحقق في المستعمرات متى اعتبر المستعمر أنه ند المستعمر ، ومتى خطا خطوة أخرى فقرر أن يقاتل في سبيل أن يكون أكثر من المستعمر . وها هو ذا قرر أن يحل محل المستعمر ، أن يأخذ مكانه . وبذلك ترون عالما برمته ينهار ، عالما ماديا ومعنويا . ان المثقف الذي تبع الاستعماري على مستوى العموميات المجردة يريد أن يعيش المستعمر والمستعمر في سلام في عالم جديد ، ولكن الامر الذي يعمى عنه ، لأن الروح الاستعمارية قد تغلغلت فيه مع طرائقها في التفكير ، هو أن المستعمر لن يهمه البقاء ولا التعايش السلمي متى زال الوضع الاستعماري . ليس صدفة ان الأقلية الأوروبية التي تسمى «ليبرالية» ، قد أعلنت رأيها حتى قبل أن تبدأ المفاوضات بين الحكومة الجزائرية والحكومة الفرنسية ، فقالت أنها تطالب بأن تكون لها جنسيتان . انك حين تنظر الى الأمور على المستوى المجرد تفرض على المستعمر المستوطن ان يثب في المجهول وثبة محسوسة ، ويجب ان نعترف بأن المستعمر المستوطن يعلم حق العلم بأنه ما من أقوال طنانة رنانة يمكن ان تقوم مقام الواقع .

يكتشف المستعمر اذن ان حياته وتنفسه وخفقات قلبه لا يختلف

عن حياة المستعمر وعن تنفسه وعن ضربات قلبه . ويكتشف أن جلد المستعمر ليس خيرا من جلد رجل من السكان الأصليين . ويحدث هذا الاكتشاف هزة أساسية في العالم . ان كل ما يحس به المستعمر من ثقة جديدة ثورية انما ينبع من هذا : اذا كان لحياتي من القيمة مثل ما لحياة المستعمر ، فلن تخيفني بعد الآن نظرته ، لن تسمرني في مكاني . لن يجمدني صوته . لن أضطرب أمامه . لن أعبأ به ، لن يربكني وجوده ، بل انني منذ الآن أعد له من المكائن ما يجعله في القريب لا يجد لنفسه مخرجا غير الهرب .

قلنا أن الوضع الاستعماري يتميز بأنه يفرض على العالم انقساما ثنائيا . والتحرر من الاستعمار يوحد هذا العالم ، اذ يخلصه من فقدان التجانس بقرار جذري ، يوحد على أساس الأمة ، وعلى أساس العرق أحيانا . انكم تعرفون تلك الكلمة القوية التي قالها الوطنيون السنغاليون مشيرين الى مناورات رئيسهم سنغور : «لقد طلبنا أن تصبح الوظائف للافريقيين ، وها هو سنغور يجعل الأوروبيين افريقيين» . معنى هذا ان المستعمَّر قادر على أن يدرك ادراكا مباشرا مطلقا هل تحقق التخلص من الاستعمار أم لا : فالحد الأدنى المطلوب هو أن يصبح الأواخر هم الأوائل .

ولكن المثقف المستعمَّر يدخل على هذا المطلب بعض التعديلات ، ولا يعوزه أن يخترع لهذه التعديلات ما يسوغها ويبررها ، فيتكلم عن الاستعانة بموظفين اداريين ، وبموظفين فنيين ، وباخصائيين . غير ان المستعمَّر يدرك أن هذه التذرعات ان هي الا مناورات تخريبية ، وليس نادرا ان تسمع من يقول هنا وهناك : «ما فائدة الاستقلال اذن ؟» .

في المناطق المستعمَّرة التي شب فيها نضال حقيقي من أجل التحرر

من الاستعمار ، في المناطق التي سال فيها دم الشعب ، في المناطق التي أتاح فيها طول المرحلة المسلحة للمثقفين ان يعودوا الى القواعد الشعبية ، نشاهد استئصالا حقيقيا للأفكار التي استمدها هؤلاء المثقفون من الاوساط البورجوازية الاستعمارية . ان البورجوازية الاستعمارية قد استطاعت في حوارها النرجسي مع نفسها ، وبواسطة رجالها الجامعيين ، ان تغرس في اعماق فكر المستعمَّر أن الماهيات تبقى خالدة رغم جميع الأخطاء التي تنسب الى البشر ، وهم يعنون الماهيات الغربية طبعا . وكان المستعمَّر يسلم بهذه الافكار ، فكان حارسا يقظا مكلفا بالدفاع عن الثقافة الاغريقية اللاتينية ، أصبح يقف في تنيه من ثنايا عقله . أما أثناء الكفاح من أجل التحرر ، في اللحظة التي يسترد فيها المستعمر اتصاله بشعبه ، فان هذا الحارس المصطنع يتهشم . فاذا جميع القيم التي تسمى قيم البحر الابيض المتوسط التي تنادي بانتصار الشخصية الانسانية ، وتدعو الى الوضوح والجمال ، تصبح دمى لا حياة فيها ولا لون ، واذا جميع تلك الخصب تبدو تركيبات ألفاظ ميتة . ان هذه القيم التي كان يلوح أنها تسمو بالنفس يتضح الآن أنها لا فائدة منها أو لا جدوى فيها لأنها لا تتصل اتصالا مباشرا بالمعركة المحسوسة التي يخوضها الشعب .

والفردية تأتي في طليعة هذه القيم . لقد أخذ المثقف المستعمَّر عن أساتذته أن على الفرد أن يؤكد ذاته . لقد غرست البورجوازية الاستعمارية في ذهن المستعمَّر أن المجتمع مؤلف من أفراد لكل منهم ذاتيته الخاصة ، وأن الغنى هو غنى الفكر . غير أن المستعمَّر الذي يتاح له أن يغوص في شعبه أثناء فترة الكفاح من أجل التحرير يدرك فساد هذه النظرية ، بل أن أشكال تنظيم الكفاح ستزوده بلغة جديدة . أن كلمات الأخ والأخت والرفيق كلمات نبذتها البورززجوازية

الاستعمارية ، فالأخ عندها هو محفظة النقود ، والرفيقعندها هو الصفقة الرابحة . وهكذا يشهد المثقف المستعمر فناء جميع أصنافه احتراقا بالنار : الأنانية والانتقاد المتكبر ، والغباء الغر الذي يحمل صاحبه على ان يريد أن يكون له القول الفصل وسيكتشف هذا المثقف المستعمر الذي خربته الثقافة الاستعمارية ، سيكتشف أيضا أن للمجالس التي تشكل في القوى قوة كبيرة . وأن اللجان التي تتألف من أفراد الشعب متانة هائلة ، وأن للاجتماعات التي تعقد للحي أو للخلية خصوبة ما بعدها خصوبة . فقضية كل فرد من الأفراد لن تكون عندئذ الا قضية جميع الأفراد ، لأنهم اما أن يكتشفهم جنود الاستعمار جميعا ، فيقتلوهم جميعا ، واما ان ينجوا جميعا . ان «نجاة الفرد بنفسه» ، وهو شكل كافر من أشكال السلامة ، هي في الميدان أمر مرفوض .

ويكثر الناس منذ زمن من الحديث عن النقد الذاتي ، فهل عرفوا أولا أن هذا نظام أفريقي ؟ ان التقاليد ، سواء في اجتماعات «الجماعة» بافريقيا الشمالية أو في الأجتماعات التي تعقد بأفريقيا الغربية ، توجب ان تفض النزعات التي تقوم في قرية من القرى ، على رؤوس الاشهاد . وهذا نقد ذاتي جماعي طبعا ، ولكن على شيء من المرح ، لأن جميع الناس يكونون بعيدين عن التوتر ، ولأنهم يريدون في آخر الامر أشياء واحدة . ان المثقف ليهجر الحساب والسكوت والصلف ، والافكار المخبأة ، والآراء المتخفية ، والسر ، ان المثقف ليهجر هذا كله كلما غاص في الشعب . ومن الحق أن نقول ان الجماعة تنفر من ذلك نفسه ، فتخلق ضوءها الخاص وتفكيرها الخاص .

ولكن يحدث ان تتم تصفية الاستعمار في مناطق لم يهزها الكفاح التحرري هزا كافيا ، فاذا نحن نصادف هؤلاء المثقفين أنفسهم الذين يتصفون بالبراعة والمكر والحذق في تحقيق أغراضهم الشخصية ، واذا

نحن نجد فيهم عين أنماط السلوك وأشكال التفكير التي التقطوها من معاشرتهم للبورجوازية الاستعمارية ، لقد كانوا للاستعمار أبناءه المدللين ، وهم الآن للسلطة أبناؤها المدللون ايضا ، ينهبون الموارد الوطنية نهبا ، ويندفعون الى الاثراء بالصفقات والسرقات المشروعة اندفاعا لا يعرف الرحمة ، عن طريق الاستيراد والتصدير ، والشركات المغفلة ، ومضاربات البورصة ، والرشوة ، على أكتاف البؤس الذي أصبح الآن وطنيا . انهم يطالبون في الحاح أن تكون الأعمال التجارية في أيدي أبناء الأمة وحدهم ، أي أن تحصر الاسواق والفرص المؤاتية في ابناء الأمة وحدهم . ومعنى ذلك عندهم أن تحصر سرقة الأمة في أبناء الأمة . ولاشك أن نجاح أساليبهم الماكرة سرعان ما يثير غضب الشعب وعنفه ، أثناء فترة القحط الوطني هذه ، أثناء ما يسمى بفترة التقشف . ذلك ان هذا الشعب البائس الذي نال استقلاله في الظروف الافريقية والدولية الراهنة ، يسير نحو الوعي الاجتماعي بخطى حثيثة . ولن تلبث النفوس الصغيرة ان تدرك هذه الحقيقة في وقت قريب .

لقد كان على المستعمَّر ، من أجل أن يستطيع هضم ثقافة مضطهديه ، وان يغامر في رحابها ، كان عليه أن يقدم ضمانات . ومن بين هذه الضمانات تبني أشكال التفكير الخاصة بالبورجوازية الاستعمارية . نلاحظ هذا في عجز المثقف المستعمَّر عن المحاورة ، لأنه لا يستطيع أن يتجرد عن ماهيته ازاء الموضوع أو الفكرة . أما حين يناضل في صفوف الشعب فانه لا ينفك ينتقل من دهشة الى دهشة . ان ما يراه من صدق الشعب وشرفه يسقط من يده . والخطر الذي يتربص به عندئذ انما هو الانسياق الكامل ، فاذا هو لا يزيد على ان يثني على كل جملة يقولها الشعب ، واذا كل جملة يقولها الشعب

تصير في نفسه الى حكمة لا يأتيها الباطل . على ان الفلاح المتعطل والجائع لا يدعون الحقيقة . انهم يزعمون أنهم الحقيقة ، لأنهم الحقيقة في وجودهم ذاته .

ان المثقف يتصرف في هذه الفترة تصرف رجل انتهازي رخيص . والحق أن مناوراته لم تنقطع لحظة . والشعب لا يريد أن يبعده أو يخرجه . فما يريده الشعب هو أن يكون كل شيء مشتركا . ووجود ذلك الميل الغريب الى التفصيل لدى المثقف هو الذي سيؤجل انغماس المثقف في الموجة الشعبية العارمة . لا لأن الشعب عاجز عن التحليل . فهو يحب أن تشرح له الأمور هو يجب أن يفهم مفاصل استدلال من الاستدلالات ، يجب أن يرى الى أين هو ذاهب ، ولكن المثقف المستعمَّر ، في أول اتصاله بالشعب ، يركز اهتمامه على التفاصيل الدقيقة ، ويصل من ذلك الى نسيان هذف الكفاح نفسه ، ألا وهو الحاق الهزيمة بالاستعمار . انه وقد جرفته حركة الكفاح المتعددة الأشكال ، يميل الى التركيز على مهمات محلية يتابعها في حماسه ، ولكنه يسرف في تقدير عظمتها . انه لا يرى في كل وقت . انه يجيء بفكرة الفروع والاختصاصات والميادين ، فيريد أن يطبقها على هذه الآلة الجبارة التي تخلط وتدمج ، أعني الثورة الشعبية . انه وقد انخرط في القيام بأعمال معينة في الجبهة ، يتفق له أن ينسى وحدة الحركة ، حتى اذا وقع اخفاق محلي ما ، رأيته يستسلم للشك ، بل ولليأس أيضا . ولا كذلك الشعب ، فانه يتخذ منذ البداية مواقف اجمالية . الأرض والخبز : ماذا علينا ان نعمل حتى نحصل على الأرض والخبز ؟ وهذه النظرة العنيدة التي ينظرها الشعب ، هذه النظرة التي تبدو في الظاهر محدودة ضيقة ، هي في حقيقة الأمر ، مثال النظرة التي تغني العمل وترفده بالقوة وتكفل له النجع .

وهناك مسألة أخرى يجب أن نقف عندها أيضا ، هي مسألة الحقيقة . ان الشعب يرى ، في جميع الأزمان ، ان عليه ان لا يقول الحقيقة الا لأهل وطنه ، وما من حقيقة مطلقة ولا من خطاب عن النفس الصادقة الشفافة يمكن أن يضعضع موقفه هذا . ان المستعمَّر يرد على كذب الاستعمار بكذب مماثل . ان سلوكه صريح مع أهل وطنه ، منكمش غامض مع المستعمِّرين . الحق عنده هو ما يعجل انهيار النظام الاستعماري ، هو ما يسهل بزوغ الأمة . في الوضع الاستعماري ليس هناك سلوك يلتزم قول الحقيقة . وليس الخير أيضا الا ما يلحق ضررا بالمستعمِّرين .

وهكذا نرى الانقسام الثنائي الأول الذي كان يسود مجتمع المستعمَّرات يظل قائما في فترة التحرر من الاستعمار . ذلك ان المستعمِّر لا يكف ابدا عن ان يكون هو العدو ، هو الخصم ، هو الانسان الذي يجب القضاء عليه ، أن المضطهد يخلق في منطقته حركة ، هي حركة السيطرة والاستغلال والنهب . وفي المنطقة الأخرى ، يغذي المستعمَّر المنهوب هذه الحركة على قدر ما يستطيع ، يغذي هذه الحركة التي تمضي بغير توقف من شواطيء البلاد الى قصور «الوطن» ومستودعاته . ان الأرض في هذه المنطقة المجمدة ساكنة لا تتحرك ، وأشجار النخيل تتمايل أمام السحب ، وأمواج البحر تتواثب على حصى الشاطيء ، والمواد الأولية تذهب وتجيء مسوغة وجود المستعمِّر ، بينما يحنوه المستعمَّر وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة ، مسترسلا في حلم واحد خالد لا يتغير . ان حياة المستوطن ملحمة أشبه بأوديسه . انه البداية المطلقة : «هذه الأرض ، نحن صنعناها» . هو السبب الفعال المستمر : «اذا نحن ذهبنا ، زال كل شيء ، وارتدت هذه الأرض الى القرون الوسطى .» وليس أمامه الا أشخاص خاملون تهدمهم الأمراض

و «العادات الموروثة عن الأجداد» ، انهم اطار جامد يشبه أن يكون من معدن ، يحف بهذا النشاط المتحرك المتجدد الخلاق الذي يقوم به الاستثمار الاستعماري .

نعم ان المستوطن يصنع التاريخ ويعرف انه يصنعه . وهو يستشهد دائما بتاريخ وطنه الأم ، فيشير اشارة واضحة الى انه هنا امتداد لذلك الوطن الأم . ومعنى هذا ان التاريخ الذي يكتبه ليس تاريخ البلد الذي ينهب خيراته بل تاريخ أمته فيما تقوم به من طغيان واغتصاب وتجويع . ولا يمكن ان يبدل المستعمَّر هذا الجمود الذي حكم عليه به الا اذا قرر ان ينهي تاريخ الاستعمار ، تاريخ النهب والسلب ، وأن يوجد تاريخ الأمة ، تاريخ تصفية الاستعمار .

عالم حواجز ، عالم انقسام ، عالم جمود ، تماثيل : تمثال الجنرال الذي احتل البلاد ، تمثال المهندس الذي بنى الجسر ، عالم واثق من نفسه، عالم يسحق بصخوره الظهور التي قشرت جلودها السياط ، هذا هو عالم المستعمرات . ان السكان الأُصليين في هذا العالم أناس محجوزون . وليس التمييز العنصري الا شكلا من أشكال هذا الحجز في العالم الاستعماري . ان أول شيء يتعلمه السكان الأُصليون هو ان يلزموا أماكنهم ، وأن لا يتجاوزوا الحدود . لذلك كانت الأحلام التي يحلمها السكان الأُصليون أحلاما عضلية ، أحلام فعل ، أحلام هجوم وعدوان . أنا أحلم بأنني أثب ، بأنني أركض ، بأنني أتسلق . أحلم بأنني أضحك ، بأنني أجتاز نهرا بقفزة ، بأن طائفة من السيارات تطاردني ولا تدركني . ان المستعمر ، أثناء الاستعمار ، لا يفتأ يحرر نفسه من الساعة التاسعة مساء الى الساعة السادسة صباحا .

والمسنعمر الذي ترسبت في عضلاته روح الهجوم والعدوان هذه ، انما يصبها أولا على ذويه . فهذه هي الفترة التي نرى فيها الزنوج يقضي

بعضهم على بعض ، ونرى فيها رجال الشرطة والقضاء يذهلون من فرط انتشار الجرائم في شمال افريقيا . وسنرى فيما بعد تعليل هذه الظاهرة (2) . ويكفينا الآن ان نقول ان المستعمر يكون ازاء الوضع الاستعماري في حالة توتر دائم . ان عالم المستوطن عالم عدو ينبذه نبذا ، ولكنه في الوقت نفسه عالم يستهوى المستعمر ويثير فيه الحسد . لقد كان المستعمر يحلم دائما ان يأخذ مكان المستعمر . انه لا يحلم ان يصبح مستعمرا ، ولكنه يحلم ان يحل محل المستوطن المستعمر . ان هذا العالم المعادي ، الثقيل الوطأة ، الذي لا يكف عن العدوان ، لا يمثل في نظر المستعمر جحيما ينبغي الابتعاد عنه بأقصى سرعة ممكنة ، وانما يمثل جنة قريبة التناول تحميها زبانية رهيبة ، فتدفع عنها الجمهور المستعمر بكل ما أوتيت من قوة غاشمة .

ان المستعمر يعيش في خشية دائمة ، لأنه لعجزه عن فهم تلك العلامات الكثيرة التي تفصل العالم الاستعماري عن عالمه ، لا يعرف في لحظة من اللحظات أهو تجاوز الحد المرسوم أم لا . ان المستعمر ، في هذا العالم الذي رتبه الاستعماري ، مذنب دائما . وهذا الذنب ليس ذنبا مقترفا ، وانما هو نوع من اللعنة . ولكن المستعمر لا يعترف في قرارة نفسه بأي حكم يصدرونه في حقه . لقد سيطروا عليه ، ولكنهم لم يطوعوه . لقد عدوه متخلفا عنهم ، ولكنه غير مقتنع بأنه دونهم . انه ينتظر بفارغ صبر ان يغفل المستعمر قليلا حتى ينقض عليه . لا يمكن ان نقول عن المستعمر انه قلق أو خائف . فهو في عضلاته مترقب دائما . انه يتوقع في كل لحظة أن يترك دور الطريدة ليمثل دور الصياد . ان المستعمر شخص مضطهد يحلم دائما ان يصبح مضطهدا . وهذه الرموز الاجتماعية : رجال الدرك والأبواق التي تلعلع أصواتها في الثكنات ، والاستعراضات العسكرية والعلم المرفرف

في الفضاء ، هذه الرموز الاجتماعية التي تكبت وتحرض في آن واحد ، لا تعني عنده : «لا تتحرك» ، بل تعني : «هيىء ضربتك تهيئة جيدة» . فاذا مال المستعمر الى أن ينام وأن ينسى ، فان غطرسة المستعمر وحرصه على تجريب قوة النظام الاستعماري يذكرانه دائما بأن المعركة الكبرى لا يمكن تأجيلها الى غير نهاية وهذا الاندفاع الى احتلال مكان المستعمر يغذي فيه توترا عضليا في كل لحظة . ونحن نعلم أن وجود الحاجز في ظروف انفعالية نفسية يقوي الميل الى الحركة .

ان العلاقات بين المستعمر والمستعمر هي علاقات جماعة بجماعة والمستعمر يقاوم كثرة العدد بكثرة القوة . ان المستعمر انسان مصاب بداء الميل الى العرض . واهتمامه بسلامته يحمله على ان يذكر المستعمر جهارا بأنه هو السيد : «أنا هنا السيد» فيثير في المستعمر غضبا يكبحه هذا حين يهم أن يخرج . ان المستعمر موثق بالأغلال القوية التي أحكم الاستعمار اطباق حلقاتها عليه . ولكننا رأينا أن المستعمر لا يحصل الا على تجميد ظاهري ، أما في الداخل فيظل الرجل في حالة غليان . وهذا التوتر العضي ينطلق من حين الى حين انفجارات دامية : معارك قبلية ونزعات بين أفراد .

فعلى مستوى الأفراد نشهد أمورا تخالف المنطق حقا : فبينما نرى المستعمر أو الشرطي يستطيعان من أول النهار الى آخره أن يضربا المستعمَّر وأن يهيناه وأن يركعاه ، نجد المستعمر يشهر سكينه عند أيسر نظرة عدائية أو هجومية يلقيها على مستعمر آخر ، لأن آخر ما بقي للمستعمر هو أن يدافع عن شخصيته تجاه مواطنه . ولما كانت لصراعات القبلية استمرارا لأحقاد قديمة مغروسة في الذاكرة ، فان المستعمر حين يخوض معارك الثأر بكل ما أوتي من قوة ، انما يحاول أن

يقنع نفسه بأن الاستعمار لا وجود له ، وأن جميع الأمور تجري كما كانت تجري في الماضي ، وأن التاريخ يستمر . ومن الواضح كل الوضوح ان هذا السلوك على مستوى الجماعات ، نوع من ذلك «السلوك الهروبي» المعروف ، كأن هذا الانغماس في دم الأخوة يمكن أن يعمي عن رؤية العدو الحقيقي ، وان يؤجل خوض المعركة التي لابد من خوضها ، ألا وهي المعركة المسلحة ضد الاستعمار . ان المعارك التي تقوم بين القبائل انما هي تدمير للذات ، وهذا التدمير هو احدى الطرق التي بها يتحرر المستعمر من توتر عضلاته . وهذا السلوك كله انما هو انتحار تجاه الخطر ، انتحار يسمح للمستعمر الذي تقوى بذلك حياته وتشتد سيطرته ، أن يقول بهذه المناسبة نفسها ان هؤلاء الناس ليسوا عقلاء . وهناك وسيلة أخرى يعمد اليها المستعمر من أجل ان لا يعبأ بالمستعمر ، وهي الدين . فبواسطة الايمان بالقدر يجرد المضطهد من المسؤولية ، باعتبار ان الله علة كل شيء فهو الذي أراد هذه الآلام وهذا البؤس ، وهو الذي رسم هذا المصير ، فعلى الفرد ان يقبل هذا الفناء الذي أراده الله ، وهكذا يخضع للمستعمر مذعنا للقضاء والقدر ، ويصل من ذلك بنوع من تحقيق التوازن الداخلي ، الى هدوء كهدوء الصخر .

وتجري الحياة في أثناء ذلك . ومن الخرافات المرعبة ، الكثيرة في المجتمعات المتخلفة ، انما يمضي المستعمر يستمد أسبابا تمنع روح الهجوم عنده من الانطلاق ، فهو يتصور وجود جن شريرة تتربص به كلما حاول أن يتحرك ، ويتصور وجود بشر أسود ، وبشر أفاع ، وكلاب لها ست أرجل ، وغيلان ، وعدد لا نهاية له من الكائنات الصغيرة أو العملاقة ، تبني من حوله محرمات وسدودا وموانع أرهب من العالم الاستعماري نفسه . ان هذه الاعتقادات السحرية التي يعج

بها مجتمع السكان الأصليين تحقق في الحياة الجنسية وظائف معينة . فمن خصائص المجتمعات المتخلفة ان الغريزة الجنسية فيها أمر جماعي ، عائلي . لقد وصف علماء الأجناس أوضح وصف تلك الظاهرة التي أصبحت الآن معروفة ، وهي أن الرجل ، في بعض المجتمعات ، حين يرى في المنام انه ضاجع امرأة غير امرأته ، يجب ان يعلن ذلك للناس ، وأن يدفع للزوج المجني عليه او للأسرة المجني عليها غرامة من هذا النوع أن يعمل لهما عدة أيام «وهذا دليل على ان المجتمعات التي توصف بأنها سابقة على التاريخ تقيم للاشعور وزنا كبيرا» .

ان هذا الجو الخرافي السحري الذي يخيف الفرد يتصرف تصرف واقع لا سبيل الى الشك فيه ، وهو اذ يبث الرعب في الفرد ، يدخل هذا الفرد في تقاليد بلده أو قبيلته ، يدخله في تاريخهما ، وهو في الوقت نفسه يطمئنه ، يعطيه حقوقا ويمنحه هوية . ان عالم الأسرار في البلدان المتخلفة هو عالم جماعي لا شأن له بغير السحر . انه اذ يقيدني بتلك الاغلال الوثيقة ، ويجعلني أكرر أعمالا بعينها على ثبات جامد ، انما يؤكد لي استمرار عالم هو عالمي ، هو عالمنا . صدقوني اذا قلت لكم ان أشباح الغليان مرعبة أكثر من المستعمرين . ولا تكون مشكلة المستعمر عندئذ أن يصفي أمره مع العالم الاستعماري المصفح بالحديد ، وانما تكون مشكلته أن يفكر ثلاث مرات قبل أن يبول أو يبصق أو يخرج في الليل .

أن القوة الغيبية السحرية تبدو له قوى جبارة ، وبذلك تصغر قوى المستعمر في نظره كثيرا ، وتخرج من نطاق اهتمامه ، ولا يكون عليه بعد ذلك أن يكافحها ، لان أعداءه الخرافيين هم الذين يرهبونه قبل كل شيء ، وهكذا تنحل الأمور كلها في معارك دائمة على مستوى الوهم والخيال .

ولكن حين يجيء كفاح التحرير ، فان هذا الشعب الذي كان قبل ذلك مقسما الى طوائف وهمية ، هذا الشعب الذي كان فريسة رعب هائل لا يغلب ، وكان مع ذلك سعيدا بضياعه في زوبعة الأوهام ، يتبدل أثناء كفاح التحرير ، وينظم نفسه تنظيما جديدا ، ويخلق في وسط الدم والدموع مهمات واقعية جدا ، مباشرة جدا . فتقديم الطعام للمجاهدين ، والقيام بأعمال الحراسة والمراقبة ، ومساعدة الأسر المحرومة مما يقيم الأولاد ، والنهوض بأعباء زوج قتل او سجن ، تلك مهمات محسوسة ملموسة يدعي اليها الشعب أثناء كفاح التحرير .

والحياة الانفعالية لدى المستعمر في العالم الاستعماري تجري على السطح كجرح نازف ، والنفس تنقبض وتتفصد ، وتفرغ شحناتها مظاهر عضلية جعلت بعض «كبار العلماء» يقولون عن المستعمر انه انسان مصاب بالهستريا . ان هذه الانفعالية المتوفرة التي يراقبها حرس لا يرون ، ولكنها تتصل بنواة الشخصية رأسا ، لابد أن تجد لذتها في تلك الانحلالات الحركية التي تلاحظ أثناء حدوث النوبة .

وعلى جانب آخر نرى انفعالية المستعمر تنطلق في أنواع من الرقص يخرج بصاحبه عن طوره ، ويجعله في حالة من النشوة . ولذلك كان على كل دراسة تتناول العالم المستعمر أن تعني حتما بفهم ظاهرة الرقص والمس . ان المستعمر يفرج عن نفسه في هذه الحفلات الصاخبة التي تجد فيها العدوانية مهما تكن حادة ، ويجد فيها العنف مهما يكن مباشرة ، مجاري وسبلا الى التحول والتلاشي . أن حلقة الرقص حلقة اباحة ، حلقة تحمي وتجيز . ففي ساعات محددة ، من أيام معينة ، يجتمع رجال ونساء في مكان بذاته ، ويأخذون يقومون على مرأى من القبيلة بحركات تمثيلية يوهم ظاهرها بأنها فوضى ، ولكنها في حقيقة الأمر

منظمة جدا ، فبأساليب مختلفة ، كهز الرأس واحناء الظهر واندفاع الجسم كله الى وراء ، تبذل الجماعة جهدا كبيرا في سبيل ان تخرج ذاتها ، أن تعبر عن نفسها . وكل شيء مباح في الحلقة . والأمكنة التي يتم فيها ذلك كله أمكنة مقدسة : الجبل الصغير الذي يصعدون اليه كأنما ليقتربوا من القمر ، والضفة التي ينحدرون اليها كأنما ليظهروا الوحدة بين الرقص والتطهر . واذا كان كل شيء مباحا فلأنهم لم يجتمعوا الا من أجل ان يدعوا للغريزة الجنسية المتجمعة ، وللعدوانية المكبوحة ان تنفجر انفجار البركان . يجب ان تتخفف النفس من أثقالها : فها هم يقومون بأعمال ترمز الى القتل ، وبحركات تمثل الفروسية ، وبأفعال تصور الابادة . ان عليهم أن يتخففوا من هذا كله بالوهم والخيال . فبذلك تنطلق حمم الغضب من أعماق النفس انطلاق قذائف البركان من باطن الأرض .

وما هي الا خطوة أخرى حتى نجد أنفسنا أمام ظاهرة المس ، ظاهرة شعور الفرد بأنه ممسوس ، بأن كائنا غيبيا قد تسلل اليه واستحوذ عليه . أن تلك الجلسات التي نشهدها لدى هؤلاء الناس انما هي ظاهرة مس وتحرر من المس : مس من الجن والشياطين والأشباح والأرباب ، الخ . فهذه الأنواع من التفتت في الشخصية ، والازدواج في الشخصية ، من التحلل في الشخصية ، انما تقوم بوظيفة أساسية في تأمين السكون في العالم المستعمر . أن الرجال والنساء يذهبون الى تلك الجلسات وقد نفذ صبرهم وتوفزت أعصابهم ، حتى اذا عادوا كان الهدوء والسلام والسكون يهيمن على القرية .

ولكننا نشهد في أثناء كفاح التحرير برء المجتمع من أمراض هذه الطقوس ان المستعمر حين يجعل ظهره الى الجدار ، وتوضع السكين على عنقه ، أو يقرب السلك الكهربائي من أعضائه الجنسية ، يضطر

الى هجر تلك الخزعبلات ، انه بعد أن أنفق من عمره سنوات في الأوهام والأخيلة ، بعد أن غرق في تلك التهاويل الغريبة ، يمسك الآن رشاشة بيده ، ويقاتل القوى التي كانت وحدها تنكر وجوده وكيانه ، أغني قوى الاستعمار . والمستعمر الشاب الذي ينمو ويترعرع في هذا الجو من الحديد والنار يستطيع أن يسخر ـــ وهو يسخر حقا ـــ من الأجداد والأشباح ، والخيول ذات الرأسين ، والموتى الذين يستيقظون ، والجن الذين يترقبون ان يتثاءب المرء حتى يتسللوا الى جسمه ، أن المستعمر يكتشف الواقع ويبدله حين يقوم بحركة نضالية ، ويمارس العنف ، ويعمل في سبيل التحرير .

لقد رأينا هذا العنف أثناء فترة الاستعمار يدور على فراغ ، ورأينا شحناته تفرغ في الرقص أو في الحفلات التي تعقد لطرد العفاريت من الممسوسين ، ورأيناه يستنفذ في خصومات يقتل فيها الاخوة أخواتهم . والمسألة الآن هي أن نقبض على هذا العنف الذي ينحرف عن سبيله ويضل عن غايته . لقد كان قبل الآن ينصرف في ترهات خرافية ، وكن يحاول أن يكتشف مناسبات انتحار جماعي ، غير أن ظروفا جديدة ستتيح له الآن أن يغير اتجاهه .

هناك على مستوى التكتيك السياسي وعلى مستوى التاريخ مسألة نظرية هى على جانب عظيم من خطورة الشأن ، يطرحها في العصر الراهن تحرير المستعمرات ، هذه المسألة هي : متى يمكن القول ان الوضع قد نضج الى الحد الذي يجب فيه القيام بحركة تحرير وطني ! ومن هي الطليعة التي يجب أن تقوم بهذه الحركة ؟ فلأن القضاء على الاستعمار قد اتخذ أشكالا مختلفة وصورا متعددة فان العقل يتردد ازاء هذه المسألة ، ويمتنع عن القطع برأي فيما هو قضاء حقيقي على الاستعمار ، وفيما هو تصفية كاذبة للاستعمار . وسنرى ان على

الانسان الذي قرر الانخراط في المعركة أن يحدد الوسائل والتكتيك ، أي ان يعين السلوك والتنظيم ، والا لم يكن الأمر الا اندفاع أعمى ، مع ما يستتبعه هذا الاندفاع الأعمى من مخاطر الرجعة والانتكاس .

ما هي القوى التي تقترح على المستعمر في فترة الاستعمار أن يصب عنفة في طرق جديدة وأن ينفق طاقاته في أعمال جديدة ؟ هذه القوى هي أولا الأحزاب السياسية والنخبة المثقفة أو النخبة التجارية . ونحن نعلم أن ما يميز بعض التشكيلات السياسية هي أنها تنادي بمباديء ، ولكنها تمتنع عن اطلاق شعارات . وكل النشاط الذي تقوم به هذه الأحزاب السياسية الوطنية انما هو في فترة الاستعمار نشاط من النوع الانتخابي ، هو سلسلة من المقالات الفلسفية السياسية حول فكرة حق الشعوب في تقرير مصيرها ، وحق البشر في الكرامة والخبز ، هو ترديد لا ينقطع للمبدأ القائل «ان لكل فرد صوتا» ، ان الاحزاب السياسية الوطنية لا تلح أبدا على ضرورة استعمال القوة ، لأن هدفها ليس قلب النظام القائم واستئصاله من جذوره . ان هذه الأحزاب السياسية أحزاب مسالمة ، تنادي بالمشروعية ، وتناصر في حقيقة الأمر النظام ... الجديد ، ولا تزيد على أن توجه الى البرجوازية الاستعمارية هذا الطلب : «أعطونا مزيدا من السلطة» . أما النخبة المثقفة ، فهي في مسألة العنف ليس لها وجه تعرف به ، هي عنيفة في الأقوال ، اصلاحية في المواقف والأعمال . ان المنظمات السياسية الوطنية البورجوازية تقول شيئا وتعني غيره .

ويجب ان نفسر هذه الخاصة التي تميز الأحزاب السياسية الوطنية ، بأمرين في آن واحد هما نوع قاعدتها . ان قاعدة الأحزاب السياسية الوطنية تتألف من أفراد من سكان المدن . وهؤلاء العمال والفلاحون وأصحاب الحرف والتجار الذين بدأوا يستفيدون من الوضع

الاستعماري ولو استفادة ضئيلة ، هؤلاء لهم مصالح خاصة . وما تطالب به هذه القاعدة الشعبية في الأحزاب السياسية والاستعمار لم ينقطع يوما . فهي تبحث في تحسين الأحوال وفي التمثيل الانتخابي ، وفي حرية الصحافة وحرية الاجتماع . انها تبحث في الاصلاحات . ولذلك يجب أن لا يدهشنا أن نرى عددا كبيرا من السكان الأصليين ينتمون الى فروع المنظمات السياسية الموجودة في البلد المستعمر . ان هؤلاء ينادون بشعار مجرد : «السلطة لطبقة البروليتاريا» ناسين أن شعارات وطنية هي التي يجب أن تكون أساس المعركة في منطقتهمان المثقف المستعمر ينفق طاقته الهجومية في صبوة مكشوفة الى التشبه بالعالم الاستعماري . لقد وضع طاقته الهجومية في خدمة مصالحة الخاصة ، وهي مصالح أفراد . وبذلك تنشأ ، بسهولة ، طبقة من العبيد المحررين فرديا ، أن ما يطالب به المثقف هو تكثير عدد هؤلاء المحررين ، ولا كذلك الجماهير ، فانها لا تهدف الى زيادة فرص نجاح الأفراد . أن ما تريده ليس هو الحصول على الحقوق التي يتمتع بها المستعمر ، بل هو أخذ مكان هذا المستعمر . أن الاكثرية الساحقة من المستعمرين تريد ان تستولي على مزرعة المستعمر . ليس هدفهم أن يكونوا والمستعمر أندادا متنافسين ، وانما هدفهم أن يحلوا محله .

ان الدعاية التي تتقدم بها معظم الأحزاب السياسية ، تغفل طبقة الفلاحين دائما ، مع ان من الواضح أن طبقة الفلاحين في البلاد المستعمرة هي الطبقة الثورية الوحيدة . أن هذه الطبقة لا تخشى أن تخسر بالثورة شيئا ، بل تطمع ان تكسب بالثورة كل شيء . والفلاح ، المنبوذ ، الجائع ، هو الانسان المستغل الذي يكتشف قبل غيره ان العنف وحده هو الوسيلة المجدية . انه امرؤ ليس عنده حل وسط ، ولا مجال عنده لتسوية ، والقوة وحدها هي التي تحدد في رأية بقاء

الاستعمار أو زوالة . ان هذا المستغل يدرك ان تحرره يقتضي استعمال جميع الوسائل ، وأولها القوة . حين أعلنت جبهة التحرير الوطني عام 1956 ، بعد استسلام جي موليه للمستعمرين الفرنسيين ، حين أعلنت في منشور شهير لها ، أن الاستعمار لا يرفع يده الا اذا جعلت السكين في عنقه ، لم يجد أي جزائري صادق أن هذه الألفاظ عنيفة . لقد كان ذلك المنشور ينطق بلسان جميع الجزائريين «ويفصح عما رسخ في أعمق أعماق ضمائرهم من أن الاستعمار ليس آلة مفكرة ، ليس جسما مزودا بعقل ، وانما هو عنف هائج لا يمكن ان يخضع الا لعنف أقوى .

وحين أزفت ساعة الحساب الحاسم ، رأينا البورجوازية الاستعمارية التي ظلت الى ذلك الحين مبتعدة ،رأيناها تتدخل ، منادية بهذه الفكرة الجديدة التي هي في حقيقة الأمر من مبتكرات الدفاع الاستعماري ، ألا وهي فكرة «اللاعنف» . وفهمت النخبة المثقفة والاقتصادية المستعمرة من مناداة البورجوازية الاستعمارية نفس المصالح التي لها ، وان من الضروري المستعجل والحالة هذه ان تبادر الى عقد اتفاق معها يضمن السلامة للطرفين . ان اللاعنف هو محاولة لتسوية المسألة الاستعمارية على مائدة خضراء قبل التورط في أية حركة لا سبيل الى تراجعها ، قبل اهراق الدم ، قبل القيام بأي عمل مؤسف ، حتى اذا رأوا الجماهير ، قبل ان يصفوا الكراسي حول المائدة الخضراء ، تأبى أن تسمع غير صوت ضميرها ، فتبادر الى استعمال الحرائق والقيام بهجماتها ، هرعوا — اي أفراد «النخبة» وقادة الأحزاب البورجوازية الوطنية — هرعوا الى الاستعماريين يقولون لهم : «الأمر خطير جدا . وليس يدري المرء كيف يمكن ان ينتهي هذا كله . فلابد من ايجاد حل ، لابد من ايجاد تسوية» .

وفكرة التسوية هذه هامة جدا في ظاهرة التحرر من الاستعمار ، لأنها ليست بسيطة . فالتسوية تتناول في الواقع النظام الاستعماري والبورجوازية الوطنية الناشئة . أن قادة النظام الاستعماري يكتشفون ان الجماهير تهم ان تحطم كل شيء ، فنسف الجسور ، وتخريب المزارع ، وأنواع القمع ، والحرب ، ذلك كله يطعن الاقتصاد طعنا قاسيا . والتسوية تهم البورجوازية الوطنية أيضا ، فهذه البورجوازية الوطنية تخشى النتائج التي يمكن ان تنجم عن هذا الاعصار الجبار ، وتخاف ان تكنسها هذه الريح العاصفة ، فلا تفتأ تقول للمعمرين : «اننا ما زلنا قادرين على ان نوقف المذبحة ، فالجماهير ما تزال تثق بنا ، فأسرعوا اذا كنتم لا تريدون ان تعرضوا للمخاطر كل شيء» . وما هي الا خطوة واحدة ، حتى نرى موجة الحزب الوطني يعلن معارضته لهذا العنف ، ويقول بصوت عال ان لا شأن له بهؤلاء الماو ماو ، لا شأن له بهؤلاء الارهابيين ، لا شأن له بهؤلاء الذباحين . وهو في أحسن الحالات يقف في «منطقة محرمة» تفصل بين الارهابيين والمعمرين ، ويعرض نفسه «وسيطا» بين الطرفين ، ومعنى هذا انه لما كان المعمرون لا يستطيعون ان يبحثوا الأمر مع هؤلاء الماو ماو ، فهو يتطوع للقيام بالمفاوضات . وهكذا نرى الناس الذين كانوا في مؤخرة الكفاح الوطني ، الناس الذين لم يشتركوا يوما في النضال ، يصبحون بنوع من البهلوانية طليعة المفاوضين في سبيل ايجاد تسوية لا لشيء الا لأنهم حرصوا دائما على ان تبقى الصلة قائمة بينهم وبين الاستعمار .

قبل المفاوضات ، تكتفي أكثر الاحزاب الوطنية ، في أحسن الأحوال ، بأن تلتمس المعاذير لهذه «الوحشية» . انها لا تطالب بالكفاح الشعبي ، وليس نادرا أن نراها تنتقد ، في حلقات مغلقة ، تلك الأعمال التي تصفها صحافة البلد المستعمر ويصفها رأيه العام

بأنها منكرة كريهة . وهذه السياسة التجميدية تعلل بالحرص على رواية الأمور رواية موضوعية ولكن هذا الموقف الذي يقفه المثقف المستعمر ويقفه قادة الأحزاب الوطنية ليس في حقيقة الأمر موقفا موضوعيا ، وانما الواقع أن هؤلاء الناس ليسوا على ثقة بأن هذا العنف الجامح الذي تعمد اليه الجماهير هو السبيل الأجدى الى الدفاع عن مصالحهم الخاصة . ثم انهم غير مقتنعين بجدوى الأساليب العنيفة . وعندهم أنه لا يجوز الشك في ان كل محاولة لتحطيم الاضطهاد الاستعماري بالقوة انما هي سلوك يأس ، سلوك انتحار . ذلك أن دبابات المعمرين والطائرات المقاتلة تحتل في أدمغتهم مكانا كبيرا فمتى قلت لهم : يجب علينا أن نعمل ، رأوا القنابل تتسابق فوق رؤوسهم ، ورأوا الدبابات تزحف على طول الطريق ، ورأوا الرشاشات ، والشرطة ... فظلوا قاعدين لا يتحركون . ان عجزهم عن الانتصار بالعنف أمر لا حاجة الى البرهان عليه ، انهم يبرهنون على هذا العجز في حياتهم اليومية وفي مناوراتهم . انهم يطلون عند ذلك الموقف الصبياني الذي تبناه انجلز في مجادلته الشهيرة مع «هرنج» ذلك الجبل من الصبيانية . «كما استطاع روبنسون أن يحصل على سيف ، ففي وسعنا أيضا ان نتصور ان يظهر فاندرودي ذات صباح وفي يده مسدس مشحون» وعندئذ تنقلب نسبة العنف رأسا على عقب ، فاذا فاندرودي هو الذي يأمر واذا روبنسون هو الذي يكد ويشقى ... فالمسدس يتغلب اذن على السيف ، بل ان أكثر عشاق البديهيات الصبيانية في وسعه أن يتصور ان العنف ليس فعل ارادة فحسب ، وانما هو يقتضي شروطا تحضيرية واقعية جدا ، ويقتضي على وجه الخصوص أدوات يتغلب أكملها على الأقل كمالا ، وان هذه الأدوات ، عدا ذلك ، يجب انتاجها ، ومعنى هذا ان الذي ينتج أدوات للعنف أكمل ... يتغلب على من ينتج

أدوات للعنف أقل كمالا ، وزبدة القول ان انتصار العنف يقوم على انتاج الأسلحة وانتاج الأسلحة يستند الى الانتاج بوجه عام ، أي يقوم اذن على «القوة الاقتصادية» ، على الدولة الاقتصادية ، على الوسائل المادية التي توضع تحت تصرف العنف (3) . الواقع ان القادة الاصلاحيين لا يقولون شيئا آخر : «بأي شيء تريدون ان تحاربوا المعمرين ؟ بسكاكينكم ؟ ببنادق الصيد التي عندكم ؟» .

صحيح ان الادوات هامة في ميدان العنف ، لأن كل شيء يتوقف في آخر الأمر على توزع هذه الادوات . ولكن تحرير الاراضي المستعمرة يأتينا بأضواء جديدة في هذا المجال . لقد رأينا مثلا ان نابوليون ، في حملة اسبانيا التي كانت حربا استعمارية تماما ، أجبر على التقهقر رغم جيوشه التي بلغت أثناء هجمات الربيع من عام 1810 رقما هائلا هو 400 الف مقاتل . وكان الجيش الفرنسي أثناء ذلك يرعب أوروبا كلها بمعداته الحربية ، وبسالة جنوده ، وعبقرية ضباطه العسكرية . لقد اكتشف الاسبان الذين كان يحركهم ايمان لا يتزعزع ، اكتشفوا تلك الطريقة في حرب العصابات التي كان المقاتلون الامريكان قد جربوها قبل خمسة وعشرين عاما في محاربة الجيوش الانجليزية . ولكن حرب العصابات هذه التي يقوم بها المستعمر لا تكون أداة عنف في وجه أدوات أخرى من أدوات العنف ، ما لم تكن عنصرا جديدا في تلك العملية الشاملة ، عملية التنافس بين التروستات والاحتكارات .

في أول الاستعمار كان يكفي فيلق واحد لاحتلال أراض واسعة : الكونجو ، نيجيريا ، ساحل العاج الخ . أما اليوم فان الكفاح الوطني الذي يقوم به المستعمر يدخل في ظرف جديد جدة مطلقة . لقد كانت الرأسمالية ، في فترة انطلاقها ، ترى في المستعمرات ينبوعا لمواد

أولية يمكنها أن تصبها في السوق الاوروبية بعد تصنيعها . ولكنها بعد مرحلة تجمع رأس المال وصلت اليوم الى تبديل مفهومها عن الربح الذي يحققه مشروع من المشاريع . لقد أصبحت المستعمرات سوقا . ان سكان المستعمرات زبائن يشترون . فاذا كان لابد للثكنات من أن تعزز الى غير نهاية ، واذا بطؤت حركة التجارة ، أي اذا لم يعد في الامكان تصدير المنتجات المصنعة ، كان هذا دليلا على أن الحل العسكري يجب الابتعاد عنه . ان السيطرة العمياء التي هي من نوع الاستعباد لا تدر على البلد المستعمر أرباحا . والفئة الاحتكارية من بورجوازية البلد المستعمر لا تدعم حكومة سياستها هي سياسة السيف وحده . ان الصناعيين ورجال المال في البلد المستعمر لا يرجون من حكومتهم أن تهلك السكان ، وانما يرجون منها ان تحمي «مصالحهم المشروعة» باتفاقات اقتصادية .

فهناك اذن تواطؤ موضوعي بين الرأسمالية وبين قوى العنف التي تنطلق في الاراضي المستعمرة ، ثم ان المستعمر لا يجابه المضطهد وحيدا . هناك ، طبعا ، المعونة السياسية والدبلوماسية التي تقدمها البلاد التقدمية والشعوب التقدمية . ولكن هناك التنافس خاصة ، هناك تلك الحرب الضارية التي تقوم بين الطوائف الاقتصادية . ان مؤتمرا كمؤتمر برلين قد استطاع أن يقسم افريقيا الممزقة الى ثلاثة أجنحة أو أربعة . أما الان فليس المهم ان تكون هذه المنطقة أو تلك خاضعة للسيادة الفرنسية أو البلجيكية ، وانما المهم حماية المناطق الاقتصادية . ان القصف بالمدافع وسياسة الأرض المحروقة ، قد حلت محلها الآن سياسة الاخضاع الاقتصادي . أن الاستعماريين لا يخوضون الآن حربا تأديبية ضد السلطان المتمرد . انهم الآن أكثر لباقة ، وأقل دموية ، فهم يقررون أن يصفوا النظام القيصري تصفية

سلمية . انهم يحاولون خنق غينيا ، ويزيلون مصدق . ويخطىء اذن الزعيم الوطني الذي يخاف العنف ، اذ لا يتصور ان الاستعمار «سيقتلنا جميعا» . صحيح ان العسكريين يستمرون على اللعب باللعب التي يرجع عهدها الى أيام الفتح ، ولكن الأوساط المالية ما تلبث أن تردهم الى الواقع .

ولذلك يطلبون الى الأحزاب السياسية الوطنية العاقلة ان تعرض مطاليبها واضحة ، وان تبحث مع الشريك الاستعماري في جو هادىء لا تعكره العواطف عن حل يكفل مصالح الطرفين . وواضح ان هذه النزعة الاصلاحية الوطنية ، التي تبدو في كثير من الاحيان نوعا من الكاريكاتور للعمل النقابي ، تعمد دائما الى وسائل سلمية جدا اذا هي قررت ان تعمل : اضرابات عن العمل في الصناعات القليلة الموجودة في المدن ، مظاهرات جماهيرية لتأييد الزعيم ، حجز سيارات النقل أو الحاصلات المستوردة . ان هذه الاعمال كلها تحقق غرضين في آن واحد ، هي الضغط على الاستعمار واستنفاد قوى الشعب . وهذه الطريقة في تنويم الشعب تنجح في بعض الأحيان . وعندئذ ، من المناقشة حول المائدة الخضراء ، ينبثق هذا التنصيب السياسي الذي يسمح للسيد «مبا» ، رئيس جمهورية الجابون ، ان يقول في كثير من الأبهة والعظمة حين وصوله الى باريس في زيارة رسمية : «لقد استقلت الجابون ، ولكن بين الجابون وفرنسا لم يتبدل شيء ، بل كل شيء يستمر كما كان» . والواقع أن التبدل الوحيد الذي تحقق هو ان السيد «مبا» قد أصبح رئيس الجمهورية الجابونية ، وان رئيس الجمهورية الفرنسية يستقبله .

والدين الذي لا مناص منه يساعد البورجوازية الاستعمارية في محاولة التهدئة التي تقوم بها . ان جميع القديسين الذين مدوا الخد الأيسر لمن

ضربهم على الخد الأيمن ، الذين غفروا لمن أساء اليهم ، الذين تلقوا البصاق والاهانة دون أن يختلجوا ، ان هؤلاء جميعا يستشهد بهم . وأفراد النخبة في البلاد المستعمَرة ، هؤلاء العبيد الذين أعتقوا ، لابد ان ينتجوا بديلا للقتال حين يكونون على رأس الحركة . انهم يستعملون عبودية اخوتهم من أجل أن يخجل منهم المستعبدون ، أو من أجل أن يزودوا الجماعات المالية ، المتنافسة مع المضطهدين ، بمضمون ايديولوجي انساني النزعة هم لهم بمثابة المصباح المرشد . انهم لا يتجهون بندائهم أبدا الى العبيد ، انهم لا يفعلون ذلك حقا في يوم من الأيام ، ولا يحاولون ان يعبئوا قوى هؤلاء العبيد تعبئة حقيقية ، انهم يلوحون تلويحا بأن تعبئة الجماهير هي السلاح الحاسم الذي سيؤدي الى «نهاية النظام الاستعماري» ، كأنما بنوع من السحر ، متظاهرين ان هذا هو ما يعتقدونه حقا وصدقا ، مع انه في قرارة أنفسهم كذب . وبطبيعة الحال لابد أن يوجد في هذه الأحزاب السياسية ، وبين أعضاء قيادتهم ، أناس ثوريون يديرون ظهورهم لمهزلة الاستقلال الوطني عن وعي وفهم . ولكن هؤلاء سرعان ما تنزعج آلة الحزب من تدخلاتهم ومبادهاتهم واستياءاتهم ، فاذا بهؤلاء الثوريين يعزلون شيئا بعد شيء ، ثم يبعدون عن الحزب صراحة . وفي الوقت نفسه ، يتعرف عليهم البوليس الاستعماري . كأن هنالك نوعا من التواقت والتلازم . فاذا صاروا في المدينة غير آمنين على أنفسهم ، وصار أعضاء الحزب يتحاشونهم ، ونبذتهم سلطات الحزب ، رأينا هؤلاء المنبوذين الذين تقذف أعينهم شررا محرقا ، يدهبون الى الأرياف ، وهنالك يدركون وفي رؤوسهم دوار أن جماهير الفلاحين تفهم عنهم بنصف كلمة ، وتطرح عليهم فورا هذا السؤال الذي لم يهيئوا جوابه : «متى نبدأ ؟» .

سنتحدث فيما بعد عن هذا اللقاء بين الثوريين الآتين من المدن

وبين القرويين . وانما يحسن الآن أن نعود الى الأحزاب السياسية ، لنبين ان لعملها مع ذلك طابعا تقدميا . ان الموجهين السياسيين يتحدثون في خطبهم عن الأمة . انهم «يسمون» الأمة . وبذلك تأخذ مطالب المستعمَّر شكلا . صحيح أنه ليس هناك مضمون ، صحيح أنه ليس هنالك برنامج سياسي واجتماعي ، صحيح أنه ليس هنالك الا شكل غامض مبهم ، ولكن هذا الشكل قومي ، انه اطار ، وهو ما نسميه بالحد الأدنى من المطالب . ان رجال السياسة الذين يخطبون ، ويكتبون في الصحف الوطنية ، يجعلون الشعب يحلم ، صحيح أنهم يتحاشون فكرة نسف النظام القائم ، ولكنهم في الواقع يبثون في ضمائر المستمعين والقراء خمائر رهيبة تهيىء للنسف . وهم كثيرا ما يستعملون اللغة الوطنية أو لغة القبائل ومن شأن هذا أيضا ان يغذي الحلم ، وأن يسمح للخيال بالطواف خارج النظام الاستعماري . هذا الى أن هؤلاء السياسيين يقولون أحيانا : «نحن العرب ، نحن الزنوج» وهذه التسمية المثقلة بالاحتقار في عهد الاستعمار تتلقى بذلك نوعا من الاحترام والتقديس . ان السياسيين يلعبون بالنار . ومن أجل ذلك رأينا أحد السياسيين الافريقيين يسر الى جماعة من المثقفين الشباب منذ مدة يسيرة قوله : «فكروا قبل ان تخاطبوا الجماهير ، لأن الجماهير ، تلتهب مشاعرها بسرعة» . هنالك اذن مكر من التاريخ يتم في المستعمرات على نحو رهيب .

حين يدعو أحد السياسيين الشعب الى اجتماع ، فيمكن ان نقول ان في الهواء دما . ومع ذلك فان هذا السياسي لا يعني في أكثر الأحيان الا «باظهار» قواه ... دون استعمالها . غير أن هذا التحرك المتصل ــ من دهاب واياب ، واستماع الى خطب ، ورؤية الشرطة حوله ، وقيام الجنود باستعراضاتواعتقال أفراد من الناس ، وترحيل

الزعماء ، الخ ــ هذا التحرك المتصل يشعر الشعب بانه قد آن له هو ان يفعل شيئا . والاحزاب السياسية ، في مثل هذه اللحظات القلقة تكثر نداءاتها الى ناحية اليسار طالبة الى الشعب أن يلتزم الهدوء ، بين هي تتطلع بأنظارها الى ناحية اليمين تستكشف الأفق ، وتحاول أن تحذر ما يخبئه الاستعمار من نيات .

والشعب يستعمل ايضا بعض الأحداث من حياة الجماعة ، في سبيل أن يحافظ على شكله ، وان يصون طاقته الثورية . من ذلك ان قاطع الطريق الذي يصمد لمطاردات رجال الدرك أياما بكاملها ، أو الذي يقتل في معركة فذة بعد أن يقتل أربعة من رجال الشرطة أو خمسة ، أو الذي ينتحر حتى لا «يسلم» رفاقه ، هؤلاء جميعا بالنسبة الى الشعب منارات ، وقدوات ، و «أبطال» . وليس يجدي طبعا أن نقول عن فلان من هؤلاء الأبطال انه لص ، أو رجل فاسد ، أو منحط . فانه يكفي أن يكون هذا الرجل الذي تطارده السلطات الاستعمارية قد أساء الى أحد المستعمِّرين أو الى أملاك أحد المستعمرين ، حتى يفرق بينه وبين المذنب العادي تفريقا واضحا .

ويجب أن نشير أيضا الى الدور الذي يلعبه في ظاهرة النضج هذه تاريخ المقاومة الوطنية عند الغزو الاستعماري . ان الوجوه الكبرى التي تظل ماثلة في خيال الشعب المستعمر ، انما هي وجوه أولئك الذين قادوا المقاومة الوطنية اثناء الاحتلال . ان وجوه بيهانزين ، وساوندياتا ، وساموري ، وعبد القادر تعود الى الحياة بقوة كبيرة في الفترة التي تسبق بدء الكفاح ، وعودتها هذه بشير بأن الشعب يتهيأ لأن يستأنف السير ، لأن يوقف الزمن الميت الذي حمله اليه الاستعمار ، لأن يصنع التاريخ .

أن انبثاق الأمة الجديدة ، وتدمير النظم الاستعمارية هما اما ثمرة

عنف يقوم به الشعب المستعمَّر ، واما ثمرة العنف الذي تقوم به شعوب أخرى مستعمرة فيضغط على النظام الاستعماري .

ان الشعب المستعمَّر ليس وحيدا في المعركة . وحدوده تظل تتسرب منها الأنباء والأصداء رغم الجهود التي يبذلها الاستعمار . انه يكتشف ان العنف يملأ الجو ، وأنه ينطلق هنا وهناك ، وأنه هنا وهناك ينتصر على النظام الاستعماري . فهذا العنف الذي ينتصر لا يقوم لدى المستعمَّر بدور النبأ الذي يطلعه على الاحداث ، وانما هو يحضه على العمل . ان الانتصار الكبير الذي حققه الشعب الفيتنامي في ديان بيان فو لم يعد انتصارا فيتناميا فحسب ، فمنذ شهر تموز من عام 1954 أصبحت المسألة التي تطرحها الشعوب المستعمَّرة على نفسها هي المسألة التالية : «ماذا يجب ان نعمل حتى نحقق ديان بيان فو ثانية ؟ كيف يجب أن نفعل حتى نحقق ديان بيان فو ثانية ؟» . وما من مستعمَّر كان يستطيع ان يشك في امكان تحقيق انتصار كذلك الانتصار الذي تحقق في ديان بيان فو . وأصبحت عناصر المسألة هي هذه : اعداد القوى ، تنظيمها ، تحديد موعد البدء في المعركة . وهذا العنف الذي يملأ الجو لا يبدل المستعمَّرين فحسب ، بل يبدل أيضا الاستعماريين الذين يدركون ان معارك كثيرة سيكون مصيرها كمصير معركة ديان بيان فو . ولذلك فان ذعرا كبيرا منظما يجتاح الحكومات الاستعمارية ويستولى عليها . فاذا حديثهم يدور حول ضرورة استباق الأمور ، ضرورة تحويل حركة التحرير الى جهة اليمين ، ضرورة تجريد الشعب من الحجج التي يتذرع بها ، واذا هم يقولون : «يجب أن نبادر بسرعة الى تحرير المستعمَّرات .» يجب ان نحرر الكونغو قبل أن تتحول الى «جزائر» يجب أن نقترع على قانون الدستور لافريقيا ، يجب ان نبادر الى خلق «رابطة الشعوب الفرنسية» يجب على كل حال

ان نحرر المستعمَّرات ، يمينا ان علينا ان نحرر المستعمَّرات .. وهم يبادرون الى هذا التحرير بسرعة تبلغ من الشدة أنهم يفرضون الاستقلال على هوفويت بوايني فرضا . وهكذا يرد الاستعمار على استراتيجية ديان بيان فو التي يرسمها المستعمر باستراتيجية أخرى هي استراتيجية منح الاستقلال واحترام سيادة الدول .

ولنعد الآن الى ذلك العنف الذي يملأ الهواء والذي رأيناه ، قبل اكتمال نضجه ، يفرغ شحناته في غير الطرق السلمية . ان هذا العنف ، رغم التحولات التي فرضها عليه الاستعمار ، اذ جعله ينصرف في نزاعات قبلية أو محلية ، يسير الآن في طريقه . اذن فالمستعمَّر يعرف عدوه ، ويسمي أنواع الشقاء التي يقاسيها ، ويضع في هذا الدرب الجديد كل ما في حقده وغضبه من قوة هائلة . ولكن كيف ننتقل من النعف الذي يملأ الهواء الى العنف الذي يتدفق في كفاح ؟ ما هو الشيء الذي يفجر المرجل ؟ هنالك أولا هذه الواقعة ، وهي ان هذا التطور يفسد على المعمر طمأنينته . ان المعمر الذي يعرف «هؤلاء الأهالي» ، يدرك من بادرات كثيرة ان هناك شيئا هو بطريق التبدل والتغير . لقد أصبح يندر أن يقع على أناس «طيبين» مسالمين ، من هؤلاء الاهالي ، وأصبح الأهالي يصمتون حين يقترب منهم أحد المعمرين . والنظرات في بعض الأحيان قاسية ، والأوضاع والأحداث تدل على روح الهجوم دلالة واضحة . والأحزاب السياسية تتحرك وتكثر اجتماعاتها ، وفي الوقت نفسه يزداد عدد رجال الشرطة ، وتتصل امدادات عسكرية . ان المعمرين ، ولا سيما الزارعين المنعزلين في مزارعهم ، هم أول من يحس بالخطر ، فيطالبون باتخاذ اجراءات قوية .

وتعمد السلطات فعلا الى اتخاذ اجراءات لاظهار قوتها ، فتقتل زعيما أو زعيمين ، وتنظم استعراضات عسكرية ، وتقوم بمناورات

وتطلق طائراتها في السماء . ولكن هذه المظاهر وهذه التدريبات الحربية ورائحة البارود هذه التي تملأ الجو في هذه الأيام لاتحمل الشعب على التراجع والتقهقر ، بل ان المدافع والحراب تذكي نار الهجوم فيه . ويسود جو بطولي يريد فيه كل فرد أن يبرهن على أنه مستعد لكل شيء . وفي هذه الظروف تنطلق الطلقة من تلقاء نفسها ، لأن الأعصاب متوفزة ، والخوف يملأ النفوس ، والناس قد تركز احساسها على الزناد . فما هو الا حادث تافه حتى يبدأ اطلاق الرصاص : ذلك ما حدث في سطيف بالجزائر ، وفي الكاريير سنترال بمراكش ، وفي مورامانجا بمدغشقر . ولكن أعمال القمع التي تقوم بها السلطات الاستعمارية لا تحطم انتفاضة الشعب ، بل تعجل نمو الوعي القومي . ان النوازل في المستعمرات انما تعزز الوعي الذي أخذ ينمو ، لأنها تدل على ان القوة وحدها هي التي تفض المشاكل بين المضطهدين والمضطهدين . ويجب ان نذكر هنا أن الأحزاب السياسية لم تطلق شعار الثورة المسلحة ، ولا هي أعدت هذه الثورة . ان جميع هذه الأعمال العنيفة ، ان جميع هذه الأفعال التي ولدها الخوف ، لم يشأ السياسيون ان تقع . وانما باغتتهم الحوادث مباغتة . وفي هذه اللحظة يستطيع الاستعمار ان يقرر اعتقال القادة الوطنيين . ولكن حكومات البلاد الاستعمارية تعرف اليوم حق المعرفة أن حرمان الجماهير من زعيمها أمر خطر كل الخطر ، لأن الشعب عندئذ ، وقد فقد لجامه ، يندفع الى العنف والارهاب و«الأعمال الوحشية» اندفاعا قويا ، ويطلق العنان «لغرائزه الدموية» فيفرض على الاستعمار اطلاق سراح الزعماء الذين تقع على عاتقهم هذه المهمة الصعبة ، وهي أن يعيدوا الهدوء والسكينة . وهكذا فان الشعب المستعمر الذي انطلق من تلقاء ذاته يستعمل العنف في سبيل تحقق تلك المهمة العظيمة ، مهمة تحطيم

النظام الاستعماري ، يجد نفسه بعد برهة قصيرة مقتصرا على المناداة بهذا الشعار الميت العقيم : «اطلاق سراح زيد أو عمر من الناس (4) .» وعندئذ يطلق الاستعمار سراح هؤلاء الناس ، ويبحث الأمور معهم ، وتبدأ ساعة احتفالات الابتهاج الشعبية .

وفي حالة أخرى لا يمس جهاز الأحزاب السياسية بأذى ولكن القمع الاستعماري والحركة التي يقوم بها الشعب في تلك الأحزاب تطغى على قياداتها ، فالجماهير تقابل القوى العسكرية بعنف قوي ، فيتردى الوضع بالنسبة الى الاستعمار ، والسياسيون الذين لم يعتقلوا يصبحون على الهامش أناسا متعطلين لا خير فيهم ولا في بيروقراطيتهم وبرامجهم الحكمية ، فهم بعيدون عن الحوادث ، ولكنهم لا يتورعون عن التبجح الكاذب فتراهم «يتحدثون باسم الشعب المضطهد » . والاستعمار في العادة يتهافت بشراهة على هذه النفاية ، ويحيل هؤلاء العاطلين الى مفاوضين ، فما هي الا ثوان أربع حتى يمنحهم الاستقلال ، ويكون عليهم بعد ذلك ان يعيدوا النظام الى نصابه .

جميع الناس شاعرون اذن بهذا العنف ، وليست المسألة دائما كيف يرد عليه بعنف أشد ، وانما هي : كيف توقف الأزمة ؟

فما هو هذا العنف في واقع الأمر ؟ لقد رأينا أنه ادراك الجماهير المستعمرة ، بحدسها ، ان تحررها يجب أن يتم بالقوة ، ولا يمكن ن يتم الا بالقوة . فكيف يصل هؤلاء الناس الذين ليس لهم خبرة ، هؤلاء الناس الجياع الضعاف ، الذين لا علم لهم بطرائق التنظيم كيف يصلون ازاء القوة الاقتصادية والعسكرية التي يملكها المحتل ، الى الاعتقاد بأن العنف وحده يستطيع أن يحررهم ؟ كيف يستطيعون أن يؤملوا في النصر ؟

ذلك أن العنف ، يمكن ان يكون ، من حيث هو وسيلة ، ستارا

لحزب سياسي ، وفي وسع قيادات حزبية أن تدعو الشعب الى كفاح مسلح . ولا بد من التفكير في هذا العنف الذي تضمن نتائجه . لئن تقرر العسكرية الألمانية حل مشاكل الحدود بالقوة ، فذلك أمر لا يدعو الى الدهشة ، أما أن يقرر الشعب الأنجولي مثلا ان يحمل السلاح ، أو أن ينبذ الشعب الجزائري كل وسيلة أخرى غير العنف ، فذلك يدل على أن شيئا ما قد حدث أو هو بسبيل الحدوث . ان هؤلاء الناس المستعمرين ، ان هؤلاء العبيد ، عبيد العصور الحديثة ، قد نفذ صبرهم . انهم يعلمون أن هذا الجنون وحده يستطيع أن يخلصهم من براثن الاضطهاد الاستعماري ، ان نوعا جديدا من العلاقات قد قام العالم ، أن الشعوب المتخلفة تحطم أصفادها ، والأمر الخارق أنها تنتصر . من الممكن أن يقال ان من السخف ان يموت الانسان جوعا في عصر الأقمار الصناعية ، ولكن الجماهير المستعمرة لا تفسر الأمور تفسيرات قمرية من هذا النوع . والحقيقة هي أنه ما من بلد استعماري يستطيع اليوم أن يتبنى ذلك الشكل الواحد من الصراع الذي قد ينجح ، أعني الاستمرار في ارسال قوات احتلال كبيرة الى غير نهاية .

والبلاد الاستعمارية تعاني في داخلها تناقضات ، وتجابه مطامع عمالية تقتضيها استعمال قواتها البوليسية . ثم ان هذه البلاد الاستعمارية هي على الصعيد الدولي محتاجة الى جيوشها لحماية نظامها السياسي . وهناك أخيرا تلك الخرافة المعروفة القائلة بأن حركات التحرير تقودها موسكو ، وهذه الخرافة تعني في التعليلات المذعورة التي يعمد اليها النظام الاستعماري ما يلي : «اذا استمر الأمر ، فالشيوعيون يمكن ان ينتهزوا فرصة هذه الاضطرابات ليتغلغلوا في هذه المناطق» .

ان نفاد صبر المستعمَّر وتلويحه الصريح باستعمال العنف يدلان على أنه يدرك أن الظرف الحالي ظرف استثنائي ، ويدلان على أنه ينوي الاستفادة من هذا الظرف . ولكن المستعمر الذي يتاح له اليوم أن يرى العالم الحديث ينفذ حتى الى أقصى أركان البوادي ، يشعر شعورا حادا ، على مستوى التجربة المباشرة أيضا ، بحرمان ، فتقتنع الجماهير ، بواسطة نوع من الاستدلال ... الصبياني ، أن هذه الأشياء كلها قد سرقت منها ، لذلك نراها في بعض البلاد المتخلفة ، تسير بسرعة وتفهم بعد سنتين أو ثلاث سنين من الاستقلال ، أنها كانت مغبونة ، وان «الأمر لم يكن ليستحق ذلك العناء كله» اذا لم تتبدل الحال تبدلا حقيقيا . في عام 1789 ، بعد الثورة البورجوازية ، استفاد الفلاحون الصغار من تلك الثورة فوائد أساسية . ولكن من نافل القول ان نذكر ان أكثرية سكان البلاد المتخلفة ، ان 95% من سكان البلاد المتخلفة ، لا يحمل اليهم الاستقلال في معظم الحالات تغييرا مباشرا . لذلك يلاحظ المراقب الخبير أن هناك نوعا من الاستياء الكامن يشبه تلك الجمرات التي تبقى بعد انطفاء الحريق . وتهدد باندلاع النيران من جديد .

ويقولون عندئذ ان المستعمرين يريدون أن يغالوا في السرعة ، بينما كانوا يؤكدون قبل ذلك بقليل أن المستعمرين أناس بطيئون كسالى اتكاليون . اننا نلاحظ منذ الآن ان العنف الذي سار في طرق محددة واضحة ابان كفاح التحرير لا ينطفىء انطفاء سحريا بعد احتفالات رفع الرايات الوطنية ، بل يظل متقدا ، خاصة وأن عهد البناء الوطني يظل يتم في اطار التنافس النهائي بين الرأسمالية والاشتراكية .

ان هذا التنافس يجعل حتى للمطالب المحلية بعدا عاما يكاد يشمل الأرض بأسرها ، فكل اجتماع ، وكل عمل من أعمال القمع ، تترجم

تترجع أصداؤه في العالم كله . ان حوادث القتل التي وقعت في شاريفيل قد هزت الرأي العام العالمي أشهرا طويلة . وأصبحت شاريفيل ، في الصحف وفي محطات الاذاعة وفي الأحاديث الخاصة ، رمزا ، فمن خلال حوادث شاريفيل عالج الرجال والنساء مشكلة التمييز العنصري في جنوب افريقيا . ولا نستطيع ان نزعم أن الديماغوجية وحدها هي السبب في هذا الاهتمام المفاجيء الذي يبديه «الكبار» بالشؤون الصغيرة المتصلة بالمناطق المتخلفة . ان كل ثورة وكل تمرد يقعان في العالم الثالث يدخلان الآن في اطار الحرب الباردة . يكفي أن يضرب رجلان في سالزبوري ، حتى تهتز كتلة بكاملها من الكتلتين ، وتأخذ تتحدث عن هذين الرجلين ، وتنتهز هذه الفرصة لتثير المشكلة الخاصة بروديسيا ، رابطة هذه المشكلة بمشكلة افريقيا كلها ، وبمشكلة البشر المستعمَّرين جميعا . ولكن الكتلة الثانية ، تقيس أيضا بمقياس سعة الحملة التي شنت عليها ما في نظامها من نقاط الضعف . وتدرك الشعوب المستعمَّرة انه ما من فئة من الفئتين الا وتهتم بالحوادث المحلية . فتكف هذه الشعوب المستعمَّرة عن الاقتصار على آفاقها المحلية ، اذ يدركها هذا الجو العام المشحون بالاهتزاز .

حين يعلن ، كل ثلاثة أشهر ، ان الاسطول السادس أو الأسطول السابع تحرك نحو هذا الشاطىء أو ذاك ، وحين يهدد خروتشوف بانقاذ كاسترو بالصواريخ ، وحين يقرر كندي ، بمناسبة لاوس ، أن يعمد الى الحلول القصوى ، فان المستعمر الذي ما يزال مستعمرا ، والمستعمر الذي نال الاستقلال يشعران ، شاءا أم أبيا ، أن نوعا من السير المسعور يجرفهما جرفا . والواقع أنهما يسيران من قبل أن يجرفا . أنظروا مثلا الى حكومات البلاد التي تحررت منذ عهد قريب . ان رجال الحكم في هذه البلاد ينفقون ثلثي وقتهم في مراقبة الاحداث التي تدور

حولهم ، وفي اتقاء الخطر الذي يهددهم ، وينفقون الثلث الأخير من وقتهم في العمل لبلادهم . وهم في الوقت نفسه يبحثون لأنفسهم عن دعائم . وتخضع المعارضة الوطنية لهذا المنطق نفسه ، فتدير ظهرها للطرق البرلمانية في كثير من الاحتقار ، وتمضي تبحث عن حلفاء يقبلون ان يدعموا رغبتها في القيام بثورة عنيفة . إن جو العنف الذي كان يسود المرحلة الاستعمارية ، يظل يسيطر على الحياة الوطنية . ذلك ان العالم الثالث ، كما سبق ان قلنا ذلك ، ليس مستبعدا من هذا الاعصار ، بل انه هو في مركز الاعصار . لذلك نرى رجال الدولة في البلدان المتخلفة يظلون يستعملون في خطبهم لهجة الهجوم والغضب التي كان ينبغي في الأحوال العادية ان تزول . وما اكثر ما يكون هؤلاء القادة الجدد شرسين في أقوالهم ! ذلك أمر يفهم أيضا ، غير أن الشيء الذي يفهم أقل من ذلك أن هؤلاء القادة أنفسهم يظهرون كثيرا من الكياسة واللباقة في معاملة الاخوة أو الرفاق . ان الشراسة هي أولا سلوك مع «الآخرين» ، مع الذين كانوا مستعمرين ثم جاءوا اليوم ينظرون ويتقصون . ان الشخص الذي كان مستعمرا يشعر في كثير من الاحيان بأن النتيجة التي يريد أن ينتهي اليها هؤلاء الناس في تحقيقاتهم الصحفية عن هذه البلاد قد كتبوها قبل أن يجيئوا . وليس مجيء الصحفي الى البلاد الا ستارا وتبريرا . ان الصور الفوتوغرافية التي ينشرها مع المقال تبرهن على الغرض الذي جاء من أجله . ان هدفه من كتابة التحقيق هو ان يتحقق من صدق قناعته السابقة ، وهي أن كل شيء أصبح سيئا هنالك منذ خروجنا . ان الصحفيين يشكون دائما من انهم يستقبلون استقبالا سيئا ، وأنهم يعملون في ظروف صعبة ، وانهم يصطدمون بجدار من عدم الاكتراث أو من العداوة . هذا كله طبيعي . ان القادة الوطنيين يعرفون ان الرأي العام العالمي

تصنعه الصحافة الغربية وحدها . وحين يجيئنا صحفي غربي ويطرح علينا أسئلة ، فقلما يكون هدفه من ذلك ان يخدعنا . انظروا الى حرب الجزائر مثلا . ان اكثر الصحفيين الفرنسيين تحررا لم يكفوا لحظة عن استعمال نعوت ملتبسة المعاني حين يريدون ان يصفوا ثورتنا فاذا عوتبوا في ذلك قالوا انهم أناس موضوعيون . والمستعمر يرى ان الموضوعية موجهة دائما ضده . وطبيعية أيضا تلك اللهجة الجديدة التي أغرقت الدبلوماسية الدولية في اجتماع الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة في أيلول «سبتمبر» عام 1960 . لقد كان ممثلو البلاد المستعمرة يتحدثون بلغة هجوية عنيفة مهينة ، ولكن الشعوب المستعمرة لم تجد أنهم كانوا مبالغين أو مغالين . ان راديكالية هؤلاء الممثلين الافريقيين الذين كانوا ينطقون بلسان الشعوب الافريقية قد أنضجت الدمل ، وجعلت الناس يدركون ان اعتراضات الفيتو هذه أمر غير مقبول ، وكذلك هذا الحوار بين «الكبار» ، وخاصة هذا الاستخفاف بالعالم الثالث ، وجعل دوره محدودا تافها .

ان هذه الدبلوماسية التي دشنتها الشعوب المستقلة حديثا لا تعرف اللف والدوران حول الفروق الطفيفة ، ولا تعرف المكر الذي يعلن غير ما يبطن . ذلك ان هؤلاء الناطقين باسم شعوبهم قد كلفتهم شعوبهم ان يدافعوا في آن واحد عن وحدة الأمة ، وعن تقدم الجماهير نحو الرخاء ، وعن حق الشعوب في الحرية وفي الخبز .

فهي اذن دبلوماسية متحركة ، دبلوماسية حانقة ، تتعارض تعارضا قويا مع ذلك العالم الساكن ، الجامد ، عالم الاستعمار . حين يلوح السيد خروشوف بحذائه في هيئة الأمم المتحدة ، ويضرب به المنضدة فما من ممثل من ممثلي البلاد المتخلفة يضحك . ذلك أن ما يبينه السيد خروشوف للبلاد المستعمرة ، هو انه ، وهو فلاح يملك من جهة

أخرى صواريخ ، يعامل هؤلاء الرأسماليين الأشقياء المعاملة التي يستحقونها . وكذلك فان كاسترو الذي يتحدث في منظمة الأمم المتحدة وهو بلباسه العسكري ، لا يثير استغراب البلاد المتخلفة . ذلك ان ما يبينه كاسترو هو أنه يدرك أن عهد العنف ما يزال قائما . وانما المستغرب انه لا يدخل هيئة الأمم المتحدة وفي يده رشاشة . ولكن ربما كانوا يعارضون في ذلك . أن الثورات ، والأفعال اليائسة ، والجموع المسلحة بالخناجر أو الفؤوس ، تجد وطنيتها في هذا الصراع الفائر الذي يقوم بين الرأسمالية والأشتراكية .

لقد أمكن ، في عام 1945 ، أن لا يلاحظ الناس مقتل 45000 جزائري في سطيف ، وفي عام 1947 أمكن أن يقتل 90,000 شخص في مدغشقر دون أن يكون هذا الحادث الا خبرا صغيرا في زوايا مهملة من زوايا الصحف ، وفي عام 1952 أمكن أن يموت 200000 شخص في كينيا دون أن يكترث أحد بالأمر كبير اكتراث . ذلك ان التناقضات الدولية لم تكن في تلك الأيام الحاسمة قاطعة الى درجة كافية . صحيح ان حرب كوريا وحرب الهند الصينية كانتا قد دشنتا مرحلة جديدة . ولكن بودابست والسويس هما اللحظتان الحاسمتان في هذه المرحلة الجديدة .

ان المستعمرين ، وقد قواهم الدعم غير المشروط الذي ينالونه من البلدان الاشتراكية ، يهجمون بالأسلحة التي معهم على هذه القلعة التي لا تقهر ، قلعة الاستعمار . ولئن كانت هذه القلعة لا تخدشها السكاكين والأيدي العارية ، فانها لا تظل كذلك حين يحزم المقاتلون أمرهم على أن يحسبوا حساب حالة الحرب الباردة .

ان الأمريكيين ، في هذا الظرف الجديد ، يعدون أنفسهم في كثير من الجد ، أوصياء على الرأسمالية الدولية ورعاة لها . لذلك نراهم في

مرحلة أولى ينصحون البلاد الأوروبية بأن تحرر المستعمرات وديا ، ونراهم في مرحلة ثانية لا يترددون في ان ينادوا باحترام مبدأ افريقيا للافريقيين أولا ، وفي ان يدعموا هذا المبدأ بعد ذلك . ان الولايات المتحدة لا تخشى اليوم ان تعلن رسميا انها تدافع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها . ان الرحلة الأخيرة التي قام بها السيد منين وليامز ليس مثالا على شعور الأمريكيين بأن العالم الثالث يجب ان لا يضحى به . وهنا نفهم لماذا لا يعد عنف المستعمر عنفا لا أمل فيه الا اذا قورن مقارنة مجردة بالآلة العسكرية التي يملكها المضطهدون . أما اذا وضعنا هذا العنف في موضعه من الحركية الدولية أدركنا أنه يهدد المضطهد تهديدا رهيبا . ان استمرار الثورات والاضطربات يحدث خللا في الحياة الاقتصادية للمستعمرة ولكنه لا يجعل البلاد المستعمرة في خطر . والأمر الأهم في نظر الاستعمار هو ان تتسرب الدعاية الاشتراكية الى صفوف الجماهير ، هي ان تسري هذه الدعاية الأشتراكية الى الجماهير . وهذا أمر له خطورته في فترة الحرب الباردة من هذا الصراع فما بالك حين تصبح الحرب حارة : ما عسى أن تصير اليه هذه المستعمرة التي تعج بالمحاربين «السفاكين» حين تصبح الحرب حارة ؟

فالرأسمالية تدرك عندئذ أن استراتيجيتها العسكرية ستخسر من نمو الحرب الوطنية كل شيء . لذلك تضطر الرأسمالية ، في اطار التعايش السلمي ، الى أن تسلم بتحرير جميع المستعمرات ، وبحياد جميع المستعمرات عند الاقتضاء . فانما المهم عندها قبل كل شيء هو أن تتحاشى ما يهدد سلامة استراتيجيتها ، هو أن تتحاشى انفتاح الجماهير لعقيدة عدوه ، هو أن تتحاشى أن يكرهها عشرات الملايين من الناس كرها جذريا . والشعوب المستعمَّرة تدرك ادراكا كاملا هذه الضرورات التي تسيطر على الحياة السياسية الدولية فحتى الذين تلعلع أصواتهم في

استنكار العنف يتخذون قراراتهم ويقومون بأعمالهم على أساس هذا العنف الذي يسود الكرة الأرضية كلها . ان التعايش السلمي بين الكتلتين يغذي العنف في المستعمرات ، ويحرض عليه في أيامنا هذه . ربما رأينا هذا العنف ينتقل غدا الى ميدان آخر بعد تحرر المستعمرات تحررا كاملا . لعله يطرح غدا مشكلة الأقليات . ألسنا نرى بعض الأقليات منذ الآن لا تتردد عن المناداة باستعمال أساليب العنف لحل مشكلاتها ؟ ليس من قبيل الصدفة أن نرى المتطرفين من الزنوج في الولايات المتحدة يشكلون فرق ميليشيا ويتسلحون . وليس من قبيل الصدفة أن نرى في العالم الذي يسمى نفسه حرا ، قيام لجان للدفاع عن الاقليات اليهودية في الاتحاد السوفياتي ، وأن نرى الجنرال دي جول يذرف بعض الدموع في احدى خطبه ، حزنا على المسلمين الذين تضطهدهم الدكتاتورية الشيوعية . ان الرأسمالية والاستعمار مقتنعان بأن النضال ضد التفرقة العنصرية ، وحركات التحرر الوطني ليست الا اضطرابات يوعز بها من بعيد ، ليست الا اضطرابات يحرض عليها «من الخارج» ، لذلك يقرران أن يستعملا هذا التكتيك المجدي : «راديو أوروبا الحرة» ، لجنة تأييد الأقليات المغلوبة ، فيقومان بمحاربة الاستعمار ، كما ان القادة الفرنسيون في الجزائر يقومون بتلك الحرب التخريبية مع ال S A S والدوائر السيكولوجية . انهم «يستخدمون الشعب ضد الشعب» . ونحن نعلم ما الذي يؤدي اليه هذا .

ان هذا الجو من العنف والتهديد والتلويح بالصواريخ لا يخيف المستعمَرين ولا يحيرهم . لقد رأينا أن تاريخهم الأخير كله يهيئهم «لفهم» هذا الظرف . ان بين العنف الاستعماري والعنف السلمي الذي يعيش في جوه العالم المعاصر نوعا من التقابل والتجانس . وقد

تلاءم المستعمرون مع هذا الجو . انهم من هذه الناحية ، أبناء عصرهم . قد يستغرب الناس في بعض الأحيان أن المستعمر بدلاً من أن يشترى فستانا لزوجته ، يشتري جهاز راديو ترانزستور . ولكن يجب أن لا يستغرب هذا . ان المستعمرين مقتنعون بأن مصيرهم يتقرر الآن . انهم يعيشون في جو نهاية العالم ، ويرون أنه ما ينبغي أن يفوتهم شيء . وهم لذلك يفهمون كل الفهم فوما وفومي ، ولومومبا وتشومبي ، وأهيجو وموميمر ، وكيناتا ، وأولئك الذين يقذفون من حين الى حين ليحلوا محلهم . انهم يفهمون هؤلاء الأشخاص كل الفهم ، لأنهم يعرون القوى الكامنة وراءهم . ان المستعمَّر ، ان الانسان المتخلف ، هو اليوم انسان يستحق أن يوصف بأنه حيوان سياسي بأكمل معاني هذه الكلمة .

صحيح أن الاستقلال قد رد الى المستعمِّرين شعورهم بذاتهم وعزز كرامتهم ولكن الوقت لم يتسع لهم بعد من أجل انشاء مجتمع ، ومن أجل بناء وتأكيد قيم ، ان البؤرة المشعة التي فيها ينمو المواطن والانسان ويغتنيان في ميادين ما تنفك تتسع غير موجودة بعد . واذ ان هؤلاء الناس يعيشون في نوع من عدم التحديد ، تراهم يقتنعون في سهولة بأن كل شيء سيتقرر في مكان آخر ، بالنسبة اليهم وبالنسبة الى سائر العالم في آن واحد . أما القادة فانهم ازاء هذا الوضع يترددون وينتخبون الحياد .

هناك أمور كثيرة يجب أن نقولها عن الحياة . ان بعض الناس يشبهون هذا الحياد بنوع من النفعية الموبوءة التي تريد أن تأخذ من اليمين واليسار . ولكن الحقيقة هي ان هذا الحياد الذي هو من ثمرات الحرب الباردة ، اذا كان يتيح للبلدان المتخلفة أن تتلقى معونة اقتصادية من الطرفين ، فانه لا يتيح لكل من هذين الطرفين أن يساعد

المناطق المتخلفة المساعدة التي ينبغي أن تقدم لها . ان هذه المبالغ الطائلة «الفلكية» التي تخصص للبحوث الحربية ، مع هؤلاء المهندسين الذين يقلبون الى اختصاصيين في الحرب النووية ، وفي وسعها ، خلال خمسة عشر عاما ، أن ترفع مستوى المعيشة في البلاد المتخلفة بنسبة 60% . وواضح اذن أن مصلحة البلاد المتخلفة ليست لا في اطالة هذه الحرب الباردة ولا في تفاقم حدتها ، لذلك تتحلل من اتخاذ موقف اذا هي استطاعت الى ذلك سبيلا . ولكن هل تستطيع حقا ، لنتذكر مثلا أن فرنسا تجرب قنابلها الذرية في افريقيا . وباستثناء الاقتراحات والاجتماعات والقطيعات الدبلوماسية الصاخبة ، لا نستطيع أن نقول ان الشعوب الافريقية كان لها ، في هذا القطاع الخاص ، تأثير كبير على موقف فرنسا .

ان الحياد يولد لدى المواطن في العالم الثالث اتجاها نفسيا يعبر عن نفسه في الحياة الجارية بعناد وكبرياء يشبهان التحدي شبها كبيرا . ان هذا الرفض القوي للتسوية ، وهذا الاصرار الصلب على عدم الارتباط يشبهان سلوك أولئك المراهقين المزهوين المحرومين المستعدين دائما لأن يضحوا بأنفسهم في سبيل كلمة . وهذا كله يحير المراقبين الغربيين ويرتج عليهم . ذلك أن هناك تناقضا فاضحا بين ما يدعيه هؤلاء الناس وما يوجد وراءهم . ان هذا البلد الذي يعيش بلا تراموي ، ولاجيوش ، ولا مال ، لا يملك ما يبرر هذه الفخفخة التي يظهر بها ، فليس سلوكه هذا الا ادعاء فارغا وتظاهرا كاذبا . ان هذا العالم الثالث يشعر المرء بأنه يتبهج في المأساة ، وأنه في حاجة الى نصيبه الأسبوعي من النوبات . ان زعماء هذه البلاد الخاوية الذين يتكلمون بصوت عال يثيرون الحنق في النفس . ان المرء ليود أن يسكتهم . ولكنهم يغازلون ، وتقدم لهم الأزهار ، ويدعون ، بل قل بصراحة أنهم يتنازع عليهم . ان

هذا كله لهو من الحياد . انهم ، وهم أميون في أكثريتهم الساحقة ، «98%» ، قد كتبت من أجلهم مجلدات ضخمة . وهم يسافرون كثيرا ، ان قادة البلاد المتخلفة ، وطلاب البلاد المتخلفة ، هم من أحسن زبائن شركات الطيران . ان المسؤولين الافريقيين والآسيويين يستطيعون في شهر واحد أن يحضروا مؤتمرا عن التخطيط الاشتراكي في موسكو ، وعن محاسن الاقتصاد الحر في لندن أو في جامعة كولومبيا . والنقابيون الافريقيون ، من جهتهم ، يتقدمون بسرعة متزايدة . وما أن يعهد اليهم بوظائف في أجهزة التوجيه حتى يقرروا أن يكونوا اتحادات مستقلة . انهم لا يملكون خمسين عاما من العمل النقابي في إطار بلد مصنَّع ، ولكنهم يعرفون منذ الآن أن العمل النقابي الذي لا شأن له بالسياسة سخف لا معنى له . انهم لم يجابهوا الآلة البورجوازية ، ولا نموا وعيهم في صراع الطبقات ، ولكن ربما كان هذا غير ضروري . ربما .

ولكن فلنعد الى المعركة الخاصة القائمة بين المستعمر والمعمر . ها هنا كفاح مسلح صريح كما ترون . وأمثلته التاريخية : الهند الصينية ، أندونيسيا . وأفريقيا الشمالية طبعا . ولكن الشيء الذي يجب أن لا يغيب عن البال ، هو ان هذا الكفاح المسلح كان يمكن ان ينطلق في أي مكان ، كان يمكن أن ينطلق في غينيا ، كما كان يمكن ان ينطلق في الصومال ، وما يزال من الممكن ان ينطلق في كل مكان ، في أنجولا مثلا . ووجود الكفاح المسلح يشير الى أن الشعب قد قرر أن لا يثق الا بالوسائل العنيفة . ان الشعب الذي ظلوا يقولون له أنه لا يمكن ان يفهم غير لغة القوة ، يعزم أمره الآن على أن يعبر عن نفسه بلغة القوة . والحق أن المعمِّر قد دله منذ زمان طويل على الطريق التي يجب أن تكون طريقه اذا هو أراد أن يتحرر . والحجة التي يختارها المستعمَّر انما دلة عليها المعمر ، فاذا بالمستعمِّر هو الذي يؤكد اليوم أن الاستعمار لا

يفهم الا لغة القوة . ان النظام الاستعماري يستمد مشروعيته من القوة ، وهو لم يحاول في أية لحظة من اللحظات ان يراوغ في هذا الأمر الذي يتفق وطبيعة الأشياء . ان كل تمثال من هذه التماثيل ، كتمثال فيدرب أو ليوتي أو بوجو أو بلاندان ، ان كل تمثال من هذه المتماثيل المغروسة في الأرض المستعمرة لا يفتأ يعبر عن شيء واحد يعينه : «نحن هنا بقوة الحراب ...» واتمام هذه العبارة أمر سهل . ان كل معمر يفكر ، اثناء فترة التمرد والعصيان ، على أساس حساب واضح دقيق . ومنطقه هذا لا يستغربه المعمرون الآخرون ، ولكن يجب أن نذكر أيضا ان هذا المنطق لا يستغربه ايضا . ونلاحظ أولا أن المبدأ القائل : «اما هم واما نحن» ليس في نظر المستعمَرون أمرا مفارقا مستغربا ، لأن الاستعمار ، كما رأينا ، انما هو تنظيم عالم ينقسم انقساما ثنائيا . وحين يشرع المعمِّر في استعمال أساليب معفنة ، فيطلب الى كل ممثل من ممثلي الأقلية المضطهدة أن يهلك ثلاثين واحدا من السكان الأصليين أو مائة أو مائتين ، فانه يلاحظ أنه ما من أحد يستنكر ذلك ، حتى أن المشكلة كلها يلخصها عندئذ هذا السؤال : هل يمكن اتمام ذلك دفعة واحدة ، أم يجب اتمامه على مراحل (5) ؟

فهذا التفكير الذي يتصور ، على أساس حسابي جدا ،زوال الشعب المستعمر لا يجعل المستعمر يستاء استياء أخلاقيا . فلقد عرف دائما أن منازلاته مع المعمر ستدور في ساحة مغلقة ، وهو لذلك لا يضيع وقته في الشكوى والانتحاب ، ولا يكاد يحاول أبدا أن ينصف في الاطار الاستعماري . والحق أنه اذا كانت حجج المعمر لا تهز المستعمر ، فلأن هذا المستعمر قد طرح مشكلة تحرره طرحا مماثلا : «لننظم أنفسنا في فئات تتألف كل منها من مائتي شخص أو من خمسمائة ، ولتتول كل فئة من هذه الفئات أمر معمر واحد» . ان

كلا من الخصمين المتصارعين انما يبدأ القتال وهو على تلك الحالة النفسية المشتركة بينهما .

وهذا العنف يمثل ، في نظر المستعمر ، العمل المطلق . ولذلك فالمناضل هو الذي يعمل . ان الأسئلة التي تطرحها المنظمة على المناضل تحمل طابع هذه النظرة الى الأمور : «أين عملت ؟ مع من عملت ماذا عملت ؟» . ان الجماعة تطلب من كل فرد أن يحقق عملا لا يتراجع الى وراء . ففي الجزائر مثلا ، حيث نرى أن الرجال الذين دعوا الشعب الى الكفاح الوطني كانوا جميعا على وجه التقريب محكومين بالاعدام أو ملاحقين من قبل الشرطة ، نلاحظ أن الثقة تتناسب مع مقدار ما في كل حالة من يأس . ان المناضل الجديد يكون مضمونا اذا كان لا يستطيع أن يرتد الى النظام الاستعماري . ويظهر أن هذه الطريقة قد وجدت في كينيا لدى الماو ماو الذين كانوا يطلبون من كل عضو من أعضاء الجماعة أن يضرب الضحية ، فكان كل عضو من هؤلاء الأعضاء مسؤولا مسؤولية شخصية عن موت الضحية . ان العمل يعني العمل على اماتة المعمر . وهذا العنف يتيح للضالين والمطرودين من أفراد الجماعة أن يعودوا وأن يرجعوا الى أمكنتهم وأن يرتدوا الى الجماعة . ان العنف هو الطريقة المثلي . ان الانسان المستعمر يتحرر في العنف وبالعنف . ان هذا العمل يضيء طريق العامل ، لأنه يدله على الوسائل ويدله على الهدف . ان شعر سيزار ليكتسب من هذه الطريقة في فهم العنف ، دلالة تجعله كالنبوءة . ويحسن هنا ان ننقل صفحة حاسمة من صفحات مأساته ، صفحة يتحدث فيها «الثائر» عن نفسه :

الثائر : إسمي : مُذِلّ ، اسم عائلتي : مهان ، حالتي : ثائر ، والسن : عصر الحجر .

الأم : جنسي : الجنس الانساني ، ديانتي : الأخوة .
الثائر : جنسي الجنس المعذب . وديانتي ... ولكن ما أنت من يهيئها بخلو يده من السلاح ... وانما أهيئها أنا ، بثورتي بقبضتي المشدودتين ورأسي الأشعث .
«بهدوء كبير» .
ما زلت أذكر يوما من أيام تشرين الثاني . كان عمره أقل من ستة أشهر ، ودخل المولى الغرفة المسودة بالشحار دخول قمر أحمر وجس أعضاءه المعروقة الصغيرة ، انه مولى طيب جدا . وطاف بيديه الضخمتين على وجهه المحفر يداعبه . كانت عيناه الزرقاوان تضحكان ، وكان فمه يتحداه بأشياء مسكرة . قال وهو ينظر الي : ستكون حجرة جيدة ، وقال أيضا أشياء أخرى لطيفة ، هذا السيد ، قال ان عليه أن يتدبر الأمر ، وأن عشرين عاما ليست كثيرة من أجل خلق مسيحي طيب ، عبد طيب ، تابع مخلص ، خادم طيع ، حاد النظرة ، قوي الذراع . وتصور هذا الرجل مهد ابني مهد خادم .
وزحفنا والخناجر في قبضة اليد .
الأم : ستموت ، واحسرتاه !
الثائر : قتلته .. قتلته بيدي .
نعم : قتلا خصبا متدفق الخيرات .
كان الوقت ليلا . زحفنا بين شجرات قصب السكر .
وكانت الخناجر تضحك للنجوم ، ولكننا كنا لا نبالي بالنجوم .
وكانت شجرات قصب السكر تخدد وجوهنا بجداول من دموع خضر .
الأم : لقد حلمت بابن يغمض عيني أمه .
الثائر : آثرت أن افتح عيني على شمس أخرى .

الأم :واحسرتا عليك يا بني ، ستموت شر ميتة .
الثائر : أماه ، بل خير ميتة .
الأم : لأنك كرهت فأسرفت .
الثائر : بل لأنني أحببت فأسرفت .
الأم :ارحمني ، أغلالك تخنقني ، جروحك تدميني .
الثائر : العالم لا يرحمني ... ليس في العالم انسان بائس يعدم ، ولا انسان شقي يعذب ، الا وأقتل فيه وأذل .
الأم : خلصه يا رب .
الثائر : لن تخلصني يا قلب من ذكرياتي .

كان ذلك في ذات مساء من شهر تشرين الثاني .

وفجأة ومضت في الصمت صيحات .

كنا قد وثبنا ، نحن العبد ، نحن الأوغاد ، نحن البهائم الصابرة .

وأخذنا نركض كالمجانين ... ودوت طلقات الرصاص ... وأخذنا نضرب . العرق والدم يرطباننا . ضربنا بين الصرخات ، وازدادت أصوات الصرخات ، وعلت صيحة في جهة الشرق ،انها المنازل الفخمة تحترق ، وتدفق اللهب هنيا عذبا على خدودنا .

وجاء دور الهجوم على منزل المولى .

شددنا النوافذ .

حطمنا الأبواب .

انفتحت غرفة المولى كبيرة واسعة . الضوء في غرفة المولى يسطع متلألئا ... والمولى في الغرفة ... انه هادىء جدا . وتوقف رجالنا ... انه المولى ... ودخلت أنا قال لي بهدوء كبير : أهذا أنت ؟ فأجبته : نعم أنا ، أنا نفسي ، العبد الطيع ، العبد الأمين ، العبد العبد ، وفجأة أصبحت عيناه خنفسيتين مروعتين في أيام المطر .. وضربت ،

فانبجس الدم : هذا هو التعميد الوحيد الذي أتذكره اليوم (6)» .

ان عنف النظام الاستعماري ، وعنف المستعمر ، يتوازنان ويتجاوبان في تجانس مشترك ، وسيطرة العنف هذه لابد أن تصبح أشد هولا كلما زاد عدد المستوطنين . ان اشتداد العنف لدى الشعب المستعمر سيكون متناسبا مع العنف الذي يمارسه النظام الاستعماري المرفوض . ان حكومات البلاد المستعمرة هي في المرحلة الأولى من فترة الثورة ، مستعبدة للمعمرين . فهؤلاء المعمرون يهددون المستعمرين ويهددون في الوقت نفسه حكوماتهم . وسوف يستعملون في محاربة هذه وأولئك طرائق واحدة بعينها . ان اغتيال عمدة ايفيان لا يختلف في دوافعه عن اغتيال علي بومنجل . ان المشكلة في نظر المعمرين ليست الاختيار بين الجزائر جزائرية وجزائر فرنسية ، بل بين جزائر مستقلة وجزائر مستعمرة . وكل ما عدا ذلك كلام أو خيانة . أن منطق المعمر منطق حانق ، ولست تستغرب المنطق المعاكس الذي يعبر عنه سلوك المستعمر الا اذا كنت تدرك بوضوح آليات التفكير لدى المعمر . متى اختار المستعمر ان يواجه العنف بالعنف ، رأيت أعمال الانتقام البوليسية تستدعي على نحو آلي أعمال انتقام تقوم بها القوى الوطنية . ومع ذلك ليس هنالك تعادل في النتائج . ذلك ان القصف بالرشاشات من الطائرات أو القصف بالمدافع من الأسطول ، يفوقان ردود المستعمر هولا ورهبة . ومن شأن تكرر الارهاب هذا أن يبدد الأوهام من رؤوس أكثر المستعمرين ضلالا وضياعا . فانهم يلاحظون ملاحظة مباشرة أن جميع الخطب التي تلقى عن المساواة بين أفراد البشر ، ويتكدس بعضها فوق بعض ، لا تخفى هذه الحقيقة المبذولة وهي أن الرجال السبعة الذين قتلوا أو جرحوا في مضيق ساكامودي قد أثاروا استياء الضمائر المتحضرة ، على حين أن أحدا لم يعبأ بتدمير قرى جرجور وجرة ، ولا بذبح السكان الذين كانوا

سبب الكمين . ارهاب ، وارهاب مقابل ، عنف وعنف مقابل .. ذلك ما يسجله المراقبون في مرارة ، حين يصفون دائرة الحقد . الواضحة العنيدة في الجزائر .

ان في الكفاح المسلح شيئا يصح أن نسميه «النقطة التي لا عودة بعدها» . ونستطيع ان نقول أن الأمر الذي يحقق الوصول الى هذه النقطة انما هو أعمال القمع الضخمة التي تشمل جميع قطاعات الشعب المستمر . وهذه النقطة قد تم الوصول اليها في الجزائر عام 1955 حين وقعت الأحداث التي أودت باثني عشر الف ضحية في فيليبفيل ، وكذلك عام 1956 حين أنشأ لاكوست ميليشيا المدن والأرياف . فعندئذ أدرك جميع الناس ، وأدرك المعمرون أنفسهم «أن الأمر لن يرجع بعد الآن الى ما كان عليه» . على أن الشعب المستعمر لا «يفتح» حسابا بضحاياه . انه يسجل الفراغ الضخم الذي حدث في صفوفه من حيث أنه شر لا بد منه ، لكنه ، وقد قرر أن يرد على العنف بالعنف ، يقبل جميع النتائج التي تترتب على ذلك . وكل ما يطلبه عندئذ هو أن لا يطالب «بفتح حساب» بضحايا الآخرين . أن المستعمر يرد على العبارة القائلة بأن «جميع السكان الأصليين سواء» بعبارة تقول : «انْ جميع المعمرين سواء» . ان المستعمر لا يشكو أمره الى أحد حين يعذبونه ، أو حين يقتلون امرأته أو يغتصبونها . ان للحكومة التي تمارس الاضطهاد أن تعين في كل يوم لجان تحقيق . ولكن لجان التحقيق هذه لا وجود لها في نظرالمستعمر . وهذه سبع سنين تقريبا تنقضي في جرائم ترتكب بالجزائر ، دون أن يمثل فرنسي واحد أمام القضاء لأنه قتل جزائريا ، ان المستعمر ، سواء في الهند الصينية أو في مدغشقر ، أو سائر المستعمرات قد أدرك دائما ان عليه ان لا ينتظر شيئا من الضفة الأخرى ، أن العمل الذي يقوم به المعمر هو أن يجعل حتى أحلام المستعمر في الحرية مستحيلة ، والعمل

الذي يقوم به المستعمر هو ان يتصور جميع الوسائل الممكنة لابادة المعمر . ان الانقسام الثنائي الذي أوجده المعمر قد ولد على مستوى التفكير انقساما ثنائيا في ذهن المستعمرة .

ان ظهور المعمر كان معناه لدئ المستعمر موت المجتمع الأصلي ، وفناءه ان الحياة لا يمكن أن تعود الى الانبثاق الا من جثة المعمر حين يصبح المعمر الثقافة القديمة ، وتجمد الحياة في الأفراد ، في آن معا . فالمستعمر يرى الآن جثة متفسخة . ذلكم هو التقابل الكامل بين تفكير المعمر وتفكير المستعمر .

غير أن هذا العنف ، لأنه العمل الوحيد الذي يقوم به الشعب المستعمر ، يكتسي طابعا ايجابيا انشائيا . فان هذا الكفاح العنيف يجمع الأفراد ، اذ ان كل واحد منهم يصبح حلقة عنيفة في السلسلة الكبرى ، في الجسم الكبير العنيف الذي انبجس ردا على عنف الاستعمار ، فاذا الفئات المتخلفة يعرف بعضها بعضا ، ويلتقي بعضها ببعض ، واذا الأمة المقبلة تكون منذ الآن كتلة غير منقسمة . ان الكفاح المسلح يعبىء الشعب ، أي يقذفه في اتجاه وحيد ليس له ثان .

ان تعبئة الجماهير ، حين تتحقق بمناسبة حرب التحرير ، تبث في ضمير كل فرد فكرة القضية المشتركة ، والمصير الوطني والتاريخ القومي . لذلك نرى المرحلة الثانية ، أي مرحلة بناء الأمة ، يسهلها وجود هذا الاندماج الذي عجن بالدم والحقد . وهنا نفهم أصالة الألفاظ المستعملة في البلاد المختلفة . لقد كان الشعب يدعى في عهد الاستعمار الى الكفاح ضد المستعمر الغاشم . حتى اذا تحقق التحرر الوطني ، أصبح يدعى الى الكفاح ضد الفقر ، ضد الأمية ، ضد التخلف الاقتصادي . فالكفاح يظل مستمرا ، ويتحقق الشعب من أن الحياة معركة دائمة لا تنتهي .

قلنا ان العنف الذي يعمد اليه المستعمر يوحد الشعب . والواقع ان الاستعمار هو بحكم تركيبه يفرق صفوف الشعب ويغذي النزعة الاقليمية . ان الاستعمار لا يكتفي بأن يعلم أن هناك قبائل ، وانما هو يعزز وجود هذه القبائل ، ويفصل بعضها عن بعض ، ويميز بعضها عن بعض . ان النظام الاستعماري يغذي الزعامات المحلية وينشط الانقسامات الدينية . ولكن العنف يوحد بين الأفراد على الصعيد القومي . وهو لذلك يحمل في أرحامه بذور القضاء على الاقليمية والقبلية . ومن أجل هذا نرى الأحزاب الوطنية تقسو قسوة خاصة على الزعماء التقليديين ، ان تصفية هؤلاء الزعماء تمهيد لتوحيد الشعب .

والعنف يطهر الافراد من السموم . أنه يخلص المستعمر من مركب النقص الذي يعيث في نسفه فسادا ، ويحرره من موقف المشاهد أو اليائس . انه يرد اليه شجاعته ، ويرد اليه اعتباره في نظر نفسه . وحتى حين يكون الكفاح المسلح رمزيا ، وحتى حين ينتهي بتصفية الاستعمار تصفية سريعة ، فان الشعب يتسع وقته لأن يدرك أن هذا التحرير قد قام به جميع الأفراد وقام به كل فرد ، وأن القائد لا يمتاز بفضل خاص . ان العنف يرفع الشعب الى مستوى القائد . ومن هنا كان ذلك النوع من الهجوم على الأداة البروتوكولية التي تبادر بعض الحكومات الفتية الى استعمالها . ان الجماهير التي شاركت بالعنف في التحرير الوطني لا تسمح لأحد أن يعد نفسه «محررا» . انها حريصة أشد الحرص على ثمرة نضالها ، وهي تحاذر أن تعهد بمستقبلها وقدرها ومصير شعبها الى اله معبود . لقد كانت بالأمس غير مسؤولة ، ولكنها تريد اليوم أن تفهم كل شيء وأن تقرر كل شيء . ان الضمير الذي أضاءة العنف بنوره ، يستعصي على كل محاولة لتهدئة الخواطر .

ولذلك فان مهمة الدجالين والانتهازيين والسحرة ستكون مهمة شاقة. ان النضال الذي قذف بالجماهير الى معركة حمية يكسبها ميلا قويا الى الأمور المحسوسة الملموسة ، ويصبح من المستحيل على أحد أن يضللها ويفتنها عن أمرها.

في العنف

أشرنا مرارا في الصفحات السابقة الى أن المسؤول السياسي في المناطق المتخلفة لا يفتأ يدعو شعبة الى القتال ، قتال ضد الاستعمار ، قتال ضد الفقر والتخلف الأقتصادي ، قتال ضد التقاليد التي تفرض العقم والشلل . ان الألفاظ التي يستعملها في نداءاته انما هي ألفاظ قائد حربي : «تعبئة الجماهير» ، «جبهة الزراعة» ، «جبهة الانتصار على الامية» ، «الانكسارات التي منينا بها» ، «الانتصارات التي حققناها» . ان الأمة الفتية المستقلة تعيش وتتطور أثناء السنوات الأولى في جو من المعارك . ذلك أن القائد السياسي في البلد المتخلف يروعه طول الطريق التي يجب ان تقطعها بلاده ، فاذا هو ينادي شعبه قائلا : «لنشد على بطوننا ولنعمل» . ويستبد بالبلاد نوع من الحمى الخلاقة ، فاذا هي تندفع في جهد جبار غير مألوف . ولا يكون هدف البرنامج الخروج من المأزق فحسب بل اللحاق بركب الأمم الأخرى بالوسائل المحدودة المتوافرة . فالناس يقولون : لئن وصلت الشعوب الأوروبية الى هذه المرحلة من النمو والتطور ، فانها قد حققت ذلك بجهودها ، فلنبرهن اذن للعالم ولأنفسنا على أننا نستطيع ان نحقق ما حققت تلك الشعوب . وعندي ان هذه الطريق في طرح مشكلة تطور البلاد المتخلفة ليست منصفة ولا معقولة .

لقد حققت البلاد الأوربية وحدتها القوية في حقبة كانت فيها بورجوازياتها الوطنية قد ركزت في أيديها أكثر الثروات. كان التجار وأصحاب الحرف، والكهنوت ورجال المصارف، يحتكرون في النطاق الوطني الأموال والتجارة والعلوم. كانت البورجوازية تمثل الطبقة التي تمتاز بأكبر نشاط وتنعم بأكبر رخاء. وكان صعودها إلى السلطة يتيح لها أن تندفع في عمليات حاسمة: كالتصنيع وتطوير وسائل المواصلات، ثم ما لبثت أن أخذت تبحث عن أسواق «فيما وراء البحار».

وكانت شتى الدول تعيش وضعا اقتصاديا واحدا بعد تحقيق وحدتها الوطنية، باستثناء بعض الحالات التي تختلف اختلافا طفيفا «فبريطانيا كانت متفوقة بعض التفوق» فلم تكن أية أمة من الأمم تهين الأمم الأخرى بصفات نموها ومزايا تطورها.

أما الآن، فان الاستقلال الوطني ونشوء الشعور القومي في المناطق المتخلفة يكتسبان وجوها جديدة كل الجدة. فهذه البلاد المتخلفة لا تتمتع بتطور اقتصادي كبير، باستثناء بعض المشاريع الباهرة. والجماهير في هذه البلاد تكافح فقرا واحدا، وتنهض بحركات واحدة، وترسم ببطونها الضامرة ما أسماه بعضهم جغرافية الجوع. هو عالم متخلف، عالم بائس، عالم ظالم للانسان. ولكنه ايضا عالم لا أطباء فيه ولا مهندسين ولا اداريين. وازاء هذا العالم ترتع الأمم الأوروبية في النعيم والرخاء والترف. والحق أن هذه البحبوحة التي تتمتع بها أوروبا فضيحة، لأنها انما قامت على اكتاف العبيد «واغتذت من دماء العبيد» وجاءت رأسا من أرض هذا العالم المتخلف، سطحها وجوفها. ان رخاء أوروبا وتقدمها قد جبلا من عرق وجثث الزنوج والعرب والهنود الصفر. هذا أمر قررنا ألا ننساه. حين يزعج بلدا

استعماريا طموح مستعمرة من المستعمرات الى الاستقلال ، يقول للقادة الوطنيين : «اذا شئتم الاستقلال ، خذوه وعودوا الى القرون الوسطى» فان الشعب الذي نال استقلالا حديثا يوافق على هذا ، ويقابل التحدي بتحد مثله . ويعمد الاستعمار فعلا الى سحب رؤوس أمواله وفنييه ، ويضع حول الدولة الناشئة سياجا من الضغط الاقتصادي (7) . وبذلك تنقلب نعمة الاستقلال الى لعنة الاستقلال . ان القوة الاستعمارية تحكم على الشعب الناشيء بالتقهقر ، بما تملك من وسائل ضخمة لا تزال العقوبة فيه . ان القوة الاستعمارية تعلن جهارا نهارا : «ما دمتم تريدون الاستقلال ، فخذوه وموتوا» . والقادة الوطنيون ليس لهم عندئذ الا ان يلتفتوا نحو شعبهم ، طالبين منه أن يبذل جهدا ضخما . فمن هؤلاء الرجال الجائعين يطلب عمل جبار . ويقوم نظام أساسه الاكتفاء الذاتي ، وتحاول كل دولة بالوسائل الضئيلة التي تملكها ، أن تتدارك الجوع القومي الكبير ، أن تتدارك البؤس القومي الكبير . ونشهد تعبئة شعب ينهك ويرهق منذئذ ، أمام أورروبا المتخمة المزدرية .

ان بلادا أخرى من العالم الثالث ترفض مقاساة هذا الامتحان ، وتقبل شروط الدولة التي كانت وصية عليها ، فتستفيد من وضعها الاستراتيجي الذي يجعلها موقعا ممتازا في الصراع بين الكتلتين ، فتعقد اتفاقات وتنحاز وبذلك يتحول البلد الذي كان محتلا الى بلد تابع من الناحية الاقتصادية . فالدولة التي كانت تستعمر هذا البلد ، تبقي على بعض العلاقات التجارية ذات الطابع الاستعماري ، بل تعزز هذه العلاقات في بعض الأحيان . وتقبل أن تغذي ميزانية الأمة المستقلة بحقن صغيرة . وهكذا نرى ان وصول البلاد المستعمرة الى الاستقلال يضع العالم أمام مشكلة رئيسية : أن تحرر البلاد المستعمرة يكشف

القناع عن حالتها الواقعية ويجعل احتمال هذه الحالة أمرا لا يطاق . ان الصراع الأساسي الذي كان يبدو صراعا بين الاستعمار ومعاداة الاستعمار ، وحتى بين الرأسمالية والاشتراكية ، يفقد منذ الآن كثيرا من أهميته ، والمشكلة الهامة الآن ، المشكلة التي تملأ الأفق ، انما هي ضرورة اعادة توزيع الثروات ، وعلى الانسانية أن تلبي هذه المشكلة والا تزعزعت وتزلزلت .

وقد اعتقد الناس عامة أنه آن للعالم ، وللعالم الثالث خاصة ، ان يختار بين النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي . ان البلدان المتخلفة التي استفادت من التنافس الضاري القائم بين النظامين من أجل أن تكفل انتصار كفاحها في سبيل التحرر الوطني ، يجب عليها مع ذلك أن ترفض الاقامة في نطاق هذا التنافس . ان على العالم الثالث أن لا يكتفي بتحديد ذاته على أساس قيم مسبقة . ان على البلدان المتخلفة أن تلتمس قيما خاصة بها ، وأن تضع المناهج التي تناسبها ، وان تتبع الأسلوب الذي يلائمها . ان المشكلة المحسوسة التي نجد أنفسنا أمامها ليست ان نختار ، مهما كلف الأمر ، بين الأشتراكية والرأسمالية كما حددهما أناس يختلفون عنا مكانا وزمانا . اننا نعرف طبعا ان النظام الرأسمالي ، من حيث هو طراز حياة ، لا يمكن ان يتيح لنا تحقيق مهمتنا القومية والعالمية ، فالاستغلال الرأسمالي والاحتكارات أعداء البلدان المتخلفة ، كما أننا نعلم أن اختيار نظام أشتراكي يلتفت برمته الى مجموع الشعب ، ويقوم على مبدأ اعتبار الانسان أثمن قيمة ، سيتيح لنا أن نسير أعظم سرعة وأكثر انسجاما ، وسيحول بذلك دون قيام مجتمع مشوه تملك فيه حفنة من الناس جملة القوى الاقتصادية والسياسية على حطام سائر الأمة .

ولكن لكي يستطيع هذا لنظام أن يعمل عملا سليما ، ولكي

نستطيع في كل لحظة أن نحترم المبادىء التي نستوحيها ، فاننا نحتاج الى شيء آخر غير تشغيل الأفراد . ان بعض البلدان المتخلفة تقوم في هذا الاتجاه بجهد جبار ، فالرجال والنساء ، والشباب والشيوخ ، تدفعهم الحماسة الى القيام بأعمال شاقة حقا ، ويعلنون أنهم خدم الأمة . فبذل النفس وازدراء كل شاغل غير جماعي ، يوجدان أخلاقا قوية تشد أزر الانسان وترد الى نفسه الثقة بمصير العالم ، وتحير المراقبين المتشككين . ولكننا نعتقد مع ذلك ان جهدا كهذا الجهد لا يمكن أن يتواصل مدة طويلة على هذه السرعة المحمومة . لقد ردت هذه البلاد على التحدي بتحد مثله بعد انسحاب الدولة المستعمرة انسحابا غير مشروط ، وآل حكم البلاد الى جماعة جديدة ، ولكن لابد في الواقع من تغيير كل شيء ، ومن اعادة النظر في جميع الأمور . لقد كان النظام الاستعماري يهتم بثروات معينة ، بموارد معينة هي تلك التي تغذى صناعاته ، وما من دراسة جدية حتى الآن تناولت الأرض ، سطحها وجوفها . لذلك ترى الأمة الناشئة المستقلة نفسها مضطرة الى الاستمرار في الطرق الاقتصادية التي أنشأها النظام الاستعماري . صحيح أنها تستطيع الآن ان تصدر الى بلاد أخرى ، الى مناطق نقدية أخرى ، ولكن الأساس الذي يقوم عليه التصدير لم يتبدل تبدلا أساسيا .

لقد أنشأ النظام الاستعماري دورات اقتصادية جامدة ، والأمة الناشئة مضطرة الى الابقاء على هذه الدورات الاقتصادية ، والا كانت تعرض نفسها لكارثة . فربما كان من الضروري اذن ان يستأنف كل شيء استئنافا جديدا ، وأن تبدل طبيعة عمليات التصدير لا الجهات التي يتم التصدير اليها فحسب ، ويجب ان تسأل الأرض من جديد عن مواردها ، ويجب ان يسأل عن ذلك باطن الأرض ، وأن تسأل عنه

الأنهار ، وربما الشمس أيضا ! ومن أجل هذا لا يكفي تجنيد الانسان في العمل ، بل لابد من رؤوس أموال ، ومن خبراء ، ومهندسين ، وميكانيكيين ، وهلم جرا .. وفي اعتقادي ــ أقول هذا بصراحة ــ ان الجهد الجبار الذي يهيب قادة الشعوب المتخلفة بشعوبهم أن يقوموا به لن يعطي الثمرات المرجوة ، فاذا لم تبدل شروط العمل فستنقضي قرون طويلة قبل أن نستطيع رد الانسانية الى هذا العالم الذي أنزلته القوى الاستعمارية الى الحيوانية .

والحقيقة هي أن علينا ان نقبل هذه الشروط ، علينا أن نرفض رفضا قاطعا الوضع الذي تريد البلاد الغربية أن تفرضه علينا . ان الاستعمار لم يشف غليله حين سحب من أراضينا أعلامه وشرطته . لقد ظل الرأسماليون قرونا يسلكون في العالم المتخلف سلوك مجرمي الحروب . لقد كان الترحيل والقتل والأعمال الشاقة والاستعباد ، كان ذلك هو الوسائل التي تستعملها الرأسمالية لزيادة مخزوناتها من الذهب والألماس ، ومضاعفة ثرواتها ، وتحقيق قوتها وسلطتها . منذ زمن ليس ببعيد أحالت النازية أوروبا كلها الى مستعمرة ، فلما انتهت الحرب رأينا مختلف الشعوب الأوروبية تطالب بتعويضات ، وتطلب أن ترد اليها ثرواتها التي سرقت منها مالا وبضاعة ، ورأينا الآثار الثقافية ، كاللوحات والتماثيل والزخارف ، تعاد الى أصحابها . لقد كانت أفواه الأوروبيين غداة عام 1945 تردد عبارة واحدة : «يجب أن تدفع المانيا» . وهذا ادينارو يعتذر من اليهود بلسان الشعب الألماني ، عند افتتاح محاكمة ايخمان ، ويجدد لهم العهد بأن تستمر بلاده في أن تدفع لدولة اسرائيل المبالغ الضخمة التي هي تعويض عن جرائم النازيين !

وعلى هذا المنوال نقول ان الدول الاستعمارية ترتكب خطأ فادحا ، وتقترف ظلما لا يوصف اذا هي اكتفت بأن تسحب من أرضنا قواها

العسكرية وأجهزتها الادارية والاقتصادية التي كانت وظيفتها اكتشاف ثرواتنا واستخراجها وتصديرها الى عواصم البلاد المستعمرة . ان التعويض المعنوي الذي يحققه لنا الاستقلال لا يعمينا عن الحقيقة ، انه لا يطعمنا من جوع . ان ثروات البلاد الاستعمارية هي ثروتنا أيضا . لقد أتخمت أوروبا ذهبا ومواد أولية من البلاد المستعمرة : من أمريكا اللاتينية والصين وافريقيا . فمن جميع هذه القارات التي تتيه عليها اوروبا اليوم بثرائها الضخم ، كانت تمضي منذ قرون الى اوروبا هذه ، الأحجار الكريمة والبترول ، والحرير والقطن ، والأخشاب والمنتجات المحلية . ان اوروبا انما خلقها العالم الثالث . والثروات التي تتخم أوروبا اليوم انما سرقتها أوروبا من الشعوب المتخلفة ، ان موانيء هولانده وليفربول ، ومخازن بوردو وليفربول ، المتخصصة في تجارة الرقيق انما اشتهرت بفضل ملايين العبيد المنقولين . فاذا سمعنا رئيس دولة أوروبية يقول ، وقد وضع يده على قلبه ، ان من الواجب تقديم المعونة للشعوب المتخلفة المسكينة فان هذا لا يجعلنا نرتعش اعترافا بالجميل ، بل نقول : «هذا تعويض عادل سيقدم الينا» . لذلك لا نقبل أن تكون المساعدات التي تقدم للبلاد المتخلفة برنامج «صدقات» . فانما ينبغي أن تكون هذه المساعدات منبثقة عن وعيين ، وعي يعيه المستعمرون فيفهمون ان هذا حقهم ، ووعي تعيه الدول الرأسمالية فتفهم ان عليها حقا ان تدفع . فاذا أبت البلاد الرأسمالية — عن غباء ولا أقول عن نكران الجميل — اذا أبت ان تدفع ، فان منطق نظامها نفسه سيتولى خنقها اذ من الأمور الواقعة ان الأمم الفتية لا تجتذب رؤوس الأموال الخاصة كثيرا . هناك أسباب كثيرة تبرر وتعلل هذا التحفظ من قبل الاحتكارات . ومتى عرف الرأسماليون ، وهم يعرفون ذلك أول من يعرف ، ان حكومتهم تتهيأ للجلاء عن المستعمرة ، فانهم

يسارعون الى سحب جميع رساميلهم من هذه المستعمرة . ان هروب الرساميل على هذه الصورة السريعة ظاهرة من أثبت ظاهرات زوال الاستعمار .

ان الشركات الخاصة لا ترضى أن توظف رساميلها في البلاد المستقلة الا اذا كفلت لها شروط معينة ، وقد تضح بالتجربة ان الشروط التي تطلبها هذه الشركات الخاصة لا يمكن قبولها اذ لا يمكن تحقيقها . ان الرأسماليين وهم يلتزمون مبدأ الربح المباشر متى خرجوا الى «ما وراء البحار» ، يترددون كثيرا ازاء كل توظيف لرساميلهم طويل الأمد . انهم يرفضون بل يعادون في كثير من الأحيان برامج التخطيط التي تضعها الحكومات الفتية . وكل ما يمكن ان يقبلوه ، عند الاقتضاء ، هو أن يقدموا للدول الفتية قروضا مالية . على شرط ان يحتفظ بهذا المال لشراء المنتجات المصنوعة والآلات ، أي لتشغيل مصانع البلاد المستعمرة .

والواقع أن هذا الحذر الذي تبديه الأوساط المالية الغربية انما مرده الى حرصها على ألا تقوم بأية مجازفة ، لذلك نراها تشترط استقرارا سياسيا وجوا اجتماعيا هادئا ، وهما أمران لا يمكن توافرهما ، لما يعانيه الأهلون غداة الاستقلال من وضع محزن . وترى تلك الأوساط المالية التي تبحث عن ضمانة لا يمكن أن توفرها لها هذه البلاد التي كانت مستعمرة ، نراها تطالب بابقاء بعض القوات العسكرية ، أو تطالب بدخول الدولة الناشئة في معاهدات اقتصادية أو أحلاف حربية . وتضغط الشركات الخاصة على حكوماتها مطالبة على الأقل باقامة قواعد عسكرية مهمتها حماية مصالح هذه الشركات ، ثم تطلب الشركات من حكوماتها آخر الأمر أن تضمن الرساميل التي تقرر هذه الشركات استثمارها في هذه المنطقة أو تلك من المناطق المتخلفة .

ولما كان لا يقبل هذه الشروط التي تطلبها الشركات الكبرى والاحتكارات الا عدد قليل من البلدان ، فان الرساميل تحرم عندئذ من وجود أسواق ثابتة لها ، وتبقى محصورة في أوروبا ، وتتجمد خاصة لأن الرأسماليين يرفضون استثمارها في بلادهم نفسها ، لأن الأرباح هنالك ضئيلة ، ولأن رقابة الضرائب تبعث اليأس في نفوس أجرأ الرأسماليين .

وهذا الوضع اذا طال أدى الى الكارثة . ان الرساميل لا تتحرك ، أو أن حركتها تقل كثيرا . ان البنوك السويسرية ترفض ايداع الرساميل ، وأوروبا تختنق و الرأسمالية العالمية تحتضر ، رغم المبالغ الضخمة التي تبتلعها النفقات الحربية .

على أن هناك خطرا آخر يهدد الرأسمالية العالمية . ان شعوب العالم الثالث الذي تتركه الدول الغربية وتحكم عليه بالتقهقر الى وراء ، او بالجمود في مكانه على الأقل ، بسبب أنانيتها وخلوها من الأخلاق ، ان شعوب العالم الثالث هذه ستقرر ان تتطور على أساس الاكتفاء الذاتي الجماعي . فسرعان ما ستحرم الصناعات الغربية اذن من أسواقها فيما وراء البحار ، فترقد الآلات في مستودعاتها ، ويقوم عندئذ في السوق الأوروبية صراع عنيف بين الأوساط المالية والشركات الكبرى ، ومن شأن اغلاق المصانع وتسريح العمال وانتشار البطالة أن يدفع الطبقة العاملة الأوروبية الى خوض كفاح صريح ضد النظام الرأسمالي . وستدرك الاحتكارات عندئذ ان مصالحها نفسها تملي عليها أن تساعد البلاد المتخلفة ، ان تساعد مساعدات ضخمة دون ان تفرض عليها شروطا كثيرة . وهكذا نرى أن شعوب العالم الثالث الناشئة تخطىء اذا هي استجدت البلاد الرأسمالية . اننا أقوياء بحقنا وبعدالة مواقفنا . وعلينا أن نشرح للبلاد الرأسمالية أن المشكلة الأساسية في العصر الراهن ليست هي الحرب بين النظام الاشتراكي

وبينها ، فيجب انهاء هذه الحرب الباردة التي لا تؤدي الى شيء ، ويجب وقف هذه الاستعدادات لنسف العالم بالقنابل النووية . ويجب توظيف الأموال في المناطق المتخلفة بسخاء ، ويجب تقديم مساعدات الفنية لهذه المناطق المتخلفة . ان مستقبل العالم رهن بحل هذه المشكلة .

ولتكف البلاد الرأسمالية عن محاولة جذب البلاد الاشتراكية الى الاهتمام ب «مصير أوروبا» في وجه الجموع الملونة الساغبة . ان الانتصار الذي حققه الكومندان غاغارين ليس نجاحا «تفخر به أوروبا» ، على حد زعم الجنرال دوجول . ان رؤساء دول البلاد الرأسمالية ورجال الثقافة في هذه البلاد الرأسمالية ، قد أخذوا منذ حين يقفون من الاتحاد السوفياتي موقفا ملتبسا ، فبعد ان كتلوا جميع قواهم للقضاء على النظام الاشتراكمي أصبحوا يفهمون الآن أن عليهم أن يتعاونوا معه ، لذلك أخذوا يتوددون اليه ، ويكثرون من مناورات الاغراء ، ويذكرون الشعب السوفياتي دائما بأنه «جزء من أوروبا» .

أنهم اذ يصورون العالم الثالث في صورة موجة تهدد بابتلاع أوروبا كلها ، لن يستطيعوا أن يفرقوا شمل القوى التقدمية التي تريد أن تقود الانسانية الى السعادة . ان العالم الثالث لا يريد أن ينظم حملة صليبية واسعة على أوروبا . وكل ما يطلبه من هؤلاء الذين أبقوه عبدا خلال قرون ، هو أن يساعدوه على رد الاعتبار للانسان ، وعلى تحقيق النصر للانسان في كل مكان الى الأبد .

ولكن من الواضح أننا لا نبلغ من السذاجة حد الاعتقاد بأن هذا الامر سيتحقق بمعاونة الحكومات الأوروبية وحسن نيتها . ان هذا العمل العظيم الذي يبتغي اعادة ادخال الانسان الى العالم ، الانسان كله ، انما يتم بمعونة الجماهير الأوروبية التي يؤسفنا أنها كثيرا ما تحالفت في مشكلات المستعمرات مع مستعبدينا الذين هم مستعبدوها أيضا .

ومن أجل تحقيق ذلك لابد أن تقرر الجماهير الأوروبية أولا أن تستيقظ من سباتها ، وأن تنفض أدمغتها ، وان تكف عن تمثيل ذلك الدور الذي كانت تمثله الى الآن بغير شعور بالمسؤولية ، دور الحسناء النائمة في الغابة .

الانطلاق العفوي

عظمته ومواطن ضعفه

قادتنا تأملاتنا في العنف الى ادراك أن هناك في اكثر الأحوال مسافة وفرقا في السرعة بين أجهزة الحزب الوطني وبين الجماهير . ان في كل منظمة سياسية أونقابية هوة تقليدية بين الجماهير التي تطالب باصلاح أحوالها إصلاحا مباشرا شاملا ، وبين القيادات التي لمعرفتها بما يمكن ان يخلقه الرأسماليون من عقبات ، تجعل مطالبها محدودة مقصورة . لذلك نلاحظ في كثير من الأحيان ان الجماهير تظل في حالة استياء عنيد من القيادات . ان الجماهير تشعر ، بعد كل حركة نضالية قامت بها للمطالبة بحقوقها ، أن القيادات قد خانتها ، في حين نرى القيادات تحتفل بالنصر . ان تكاثر الحركات التي تنطلق مطالبة بالحقوق ، وتكاثر الصراعات النقابية ، هما اللذان سيحققان الوعي السياسي لدى هذه الجماهير ، والمقصود بالوعي السياسي لدى النقابي هو إدراك النقابي لهذه الحقيقة ، وهي أن النزاع المحلي ليس تصفية نهائية للحساب بينه وبين أرباب العمل . ان المثقفين المستعمرين الذين درسوا في العواصم الاستعمارية نظام الأحزاب السياسية وكيفية عملها ينشئون في بلادهم منظمات شبيهة بغية تعبئة الجماهير والضغط على الادارة الاستعمارية . ان قيام الأحزاب السياسية في البلاد المستعمرة معاصر لنشوء نخبة من المثقفين والتجار . وهذه النخبة تخلع على التنظيم

قيمة كبيرة من حيث هو تنظيم ، وكثيرا ما تتغلب عبادة التنظيم هذه على الدراسة العقلية للمجتمع المستعمر . ان فكرة الحزب مستوردة من البلاد المستعمرة فترى النخبة تحاول أن تطبق هذه الأداة النضالية الحديثة تطبيقا آليا على مجتمع بدائي ، غير متوازن ، مجتمع تعيش فيه أنظمة مختلفة معا ، تعيش فيه أنظمة العبودية ، والقنانة ، والمقايضة ، والحرف ، وعمليات البورصة .

ان ضعف الأحزاب السياسية ليس ناشئا فقط عن أنها تستعمل استعمالا آليا هذا التنظيم الذي يقود الطبقة العاملة في مجتمع رأسمالي بلغ درجة عالية من التصنيع . ان هناك على صعيد هذا النموذج من التنظيم تجديدات وتكييفات كان ينبغي أن تنشأ . ان الخطيئة الكبرى ، ان الآفة الكبرى التي تعيب الأحزاب السياسية في المناطق المتخلفة هي أنها تتجه بأهتمامها الأول الى العناصر الواعية من الشعب : الطبقة العاملة في المدن ، أصحاب الحرف ، الموظفين ، أي الى جزء صغير من السكان لا يتجاوز واحدا في المائة .

ولئن كانت هذه البروليتاريا تفهم دعاية الحزب وتقرأ كتاباته ، فانها أقل استعدادا لتلبية نداء الشعارات التي قد تدعو الى الكفاح القوي في سبيل التحرير الوطني . ان البروليتاريا ، كما لوحظ ذلك مرات كثيرة ، هي من الشعب المستعمر نواة يفيض عليها النظام الاستعماري أكثر ما يفيض من خير ، ان البروليتاريا الناشئة التي تعيش في المدن هي طبقة تتمتع نسبيا ببعض الامتيازات . اذا كانت البروليتاريا في البلاد الرأسمالية لا تخشى أن تخسر شيئا ، لأنها الطبقة التي يمكن أن تربح كل شيء ، فان البروليتاريا في البلاد المستعمرة يمكن أن تخسر ، فهي من الشعب المستعمر ذلك الجزء الضروري الذي لا يستغني عنه لحسن سير الآلة الاستعمارية : سائقو حافلات الترام وسيارات الأجرة ،

عمال المناجم ، عمال الموانىء . التراجمة ، الممرضون ، الخ . وهذه العناصر هي التي تضمها الأحزاب الوطنية أكثر ما تضم ، وهي ، بما لها من امتيازات في ظل النظام الاستعماري ، يمكن أن تعد الجزء البورجوازي من الشعب المستعمر .

ان المنتسبين الى الأحزاب السياسية الوطنية هم أفراد من سكان المدن قبل كل شيء : أصحاب حرف ، عمال ، مثقفون ، تجار . حتى ان طراز تفكيرهم يحمل في كثير من النواحي علامة البيئة الراقية بعض الرقي ، الميسورة بعض اليسر ، التي تجري حياتهم فيها . وفي هذه البيئة تسود «الروح العصرية» . ان هذه الأوساط نفسها هي التي تحارب التقاليد البالية ، وتريد ان تصلح العادات ، وبذلك تدخل في صراع صريح مع قوام الأمة .

أن الأكثرية الساحقة في الأحزاب الوطنية تشعر تجاه الجماهير الريفية بحذر كبير ، وارتياب شديد . انها تحس أن هذه الجماهير عاطلة عقيمة . وما يلبث أعضاء الأحزاب الوطنية «من عمال المدن والمثقفين» أن يصبح رأيهم في سكان الأرياف كرأي المستوطنين . لكن اذا حاولنا ان نفهم أسباب هذا الحذر الذي تشعر به الأحزاب الوطنية ازاء الجماهير الريفية ، كان علينا ان نتذكر هذه الحقيقة ، وهي أن الاستعمار قد عزز دائما سيطرته أو رسخها بواسطة العمل على تجميد الأرياف وتحجيرها . ان الجماهير الريفية التي يحيط بها الدراويش والسحرة والزعماء التقليديون ، ما تزال تعيش في المرحلة الاقطاعية ، وهذه البنية الاجتماعية التي تذكر بالقرون الوسطى انما يغذيها الموظفون الاداريون والعسكريون الاستعماريون .

وتدخل البورجوازية الوطنية الناشئة ، وهي بورجوازية تجارية بوجه خاص ، تدخل في تنافس مع هؤلاء السادة الاقطاعيين من نواح

شتى : الدراويش الدجالون والسحرة المشعوذون يسدون الطريق أمام المرضى الذين يستطيعون أن يستشيروا الطبيب ، ومجالس القبائل تفصل بين الناس فتصرفهم عن اللجوء الى المحامين ، والزعماء التقليديون يستعملون سلطتهم السياسية والادارية للقيام بتجارة ، أو لاقامة خط من خطوط النقليات ، والقادة المحليون يعارضون باسم الذين والتقاليد دخول تجارات جديدة ومنتجات جديدة .

ان هذه الطبقة الناشئة من التجار المستعمرين في حاجة الى زوال هذه الأنواع من الخطر وهذه الأنواع من الحواجز ، حتى تنمو وتزدهر . وهكذا فان هؤلاء الزبائن من السكان الأصليين الذين يمثلون في نظر الاقطاعيين صيدا يجب عليهم أن يحتفظوا به ، الذين يمنعون بعض المنع من شراء منتجات جديدة ، يصبحون سوقا متنازعا عليها .

والقيادات الاقطاعية تقيم حاجزا بين الوطنيين الشبان المطبوعين بالطابع الغربي وبين الجماهير ، فكلما حاولت النخبة ان تبذل جهدا من الجهود في صفوف الجماهير الريفية تصدى لها زعماء القبائل ، وزعماء الحلقات الدينية ، وتصدت لها السلطات التقليدية ، فأخذت تصب عليها مزيدا من الوعيد والتهديد وتكيل لها اتهامات الكفر والزندقة . ان هذه السلطات التقليدية التي تدعمها قوة الاحتلال ، يسوؤها أن ترى ازدياد المحاولات التي تقوم بها النخبة من أجل التغلغل في الأرياف . انها تعلم أن الأفكار التي يمكن ان يحملها الى الريف هؤلاء الناس القادمون من المدن تنكر حتى مبدأ دوام الاقطاعيات . لذلك تشعر أن عدوها الأول ليس هو السلطة المحتلة التي يقوم بينها وبينها نوع من التفاهم ، وانما عدوها هؤلاء العصريون الذين يريدون أن يبدلوا نظام المجتمع وان يخطفوا خبزهم من أفواههم .

والعناصر المطبوعة بالطابع الغربي تشعر نحو جماهير الفلاحين

بعواطف تذكرنا بالعواطف التي نراها في صفوف طبقة العمال في البلاد المصنعة . لقد أوضح تاريخ الثورات البورجوازية وتاريخ الثورات البروليتارية ان جماهير الفلاحين كثيرا ما تكون حاجزا يعطل اندفاع الثورة . أن الجماهير الريفية في البلاد المصنعة هي على وجه العموم اقل عناصر المجتمع وعيا ، وأقلها تنظيما وأكثرها فوضى . انها تتصف بمجموعة من الصفات هي الصفات التي يمتاز بها السلوك الرجعي ، من ميل الى الفردية ، وبعد عن الانضباط ، وحب الربح ، واستعداد للغضب الشديد تارة وللبأس العميق تارة أخرى .

وقد رأينا الأحزاب الوطنية تنقل أساليبها وعقائدها عن الأحزاب الغربية ، لذلك نراها في أكثر الأحوال تتجه بدعايتها نحو هذه الجماهير الريفية . ولكن هذه الأحزاب لو حللت المجتمع المستعمر تحليلا عقليا سليما ، لأدركت أن الفلاحين المستعمرين يعيشون في بيئة تقليدية ظلت بنياناتها سليمة ، على حين أن هذه البيئة التقليدية في البلاد المصنعة هي التي صدعها تقدم التصنيع . ان البروليتاريا الناشئة في المستعمرات هي الطبقة التي نرى لدى أفرادها سلوكا فرديا . ان الفلاحين الذين لا يملكون أرضا ، والذين يطرح عليهم تزايد السكان مشكلة لا سبيل الى حلها يهجرون الريف ويفدون الى المدن فيتكدسون في أكواخ الصفيح ، ويحاولون أن يتسربوا الى الموانىء والمدن التي أوجدتها السيطرة الاستعمارية ، فيكونون هنالك البروليتاريا الدنيا . ان الجماهير الريفية التي تبقى في القرى تواصل حياتها في اطار ساكن ، حتى اذا زاد عدد الأفواه التي تحتاج الى طعام لم تجد لها سبيلا الا ان تهاجر الى المدن . ولكن الفلاح الذي يبقى في مكانه يحمي تقاليده في عناد واصرار ، وهو في المجتمع المستعمر يمثل العنصر الانضباطي الذي يظل بنيانه الاجتماعي قائما على التواصل بين أفراد الجماعة ، وعلى ارتباط

بعضها ببعض ارتباطا قويا . صحيح أن هذا الركود وهذا الانكماش قد يولدان من حين الى حين حركات قائمة على العصبية الدينية ، وقد يولد حروبا قبلية . ولكن الجماهير الريفية تظل في عفويتها انضباطية تتصف بالغيرية . ان الفرد ذائب هنا في الجماعة .

والفلاحون يسيئون الظن بابن المدينة ويحذرون منه . انه يرتدي ملابس كملابس الأوروبين ، ويقطن احيانا في الحي الأوروبي . لذلك ينظر اليه الفلاحون نظرتهم الى انسان خرج على قومه ، وهجر كل ما هو تراث قومي . ان الفلاحين ينظرون الى سكان المدن نظرتهم الى «خونة» ، نظرتهم الى أناس «باعوا أنفسهم» فهم متفاهمون مع المحتل ، يحاولون في اطار النظام الاستعماري ان يحققوا النجاح . لذلك نسمع الفلاحين في كثير من الأحيان يصفون أبناء المدن بأنهم أناس لا أخلاق لهم . ولسنا هنا بصدد ذلك التعارض المعروف بين الريف والمدينة . وانما نحن هنا بصدد تعارض بين المستعمر المحروم من منافع الاستعمار ، وبين المستعمر الذي يرتب أموره بحيث ينال من الاستغلال الاستعماري نصيبا .

والاستعماريون ، من جهة أخرى ، يستغلون هذا التعارض في صراعهم ضد الأحزاب الوطنية . فهم يجندون سكان الجبال والقرى ضد سكان المدن ، ويثيرون مؤخرة البلاد ضد مقدمتها ، ويحرضون القبائل . فما ينبغي أن يدهشنا أن يتوج كالونجي نفسه ملكا على كاسامي ، ولا أن نرى «مجلس زعماء غانا» يقف منذ سنوات في وجه نكروما ويخلق له المصاعب .

ان الأحزاب السياسية لا تتوصل الى ترسيخ قواعد منظماتها في الأرياف . فهي بدلا من ان تستعمل البنيات الموجودة من أجل اعطائها مضمونا قوميا أو تقدميا . تحاول في نطاق النظام

الاستعماري ، أن تقلب الواقع التقليدي رأسا على عقب . انها تتخيل أن في وسعها ان تطلق الأمة من عقالها وان تبعثها على المسير ، في حين ان حلقات النظام الاستعماري ما تزال مطبقة عليها جاثمة فوقها . ان هذه الأحزاب لا تمضي الى لقاء الجماهير . انها لا تضع معارفها النظرية في خدمة الشعب ، وانما تحاول ان تنظم الجماهير وفقا لمخطط لم ينبثق من التجربة . وهكذا تراها ترسل من العاصمة الى القرى ، على حين غرة ، مسؤولين مجهولين أن شبانا صغارا تندبهم السلطة الحزبية المركزية للذهاب الى القرية أو الدوار ، كأنما هي تريد أن تقود القرية أو الدوار كما تقاد خلية من خلايا الحزب في مصنع من المصانع ، وهي بذلك تتجاهل الزعماء التقليديين ، وربما أهانتهم في بعض الأحيان . ان تاريخ الأمة المقبلة يطغى طغيانا كبيرا على التواريخ المحلية الصغيرة التي هي الواقع الوطني الوحي الراهن ، في حين أن من الواجب على هذه الأحزاب ان توفق توفيقا منسجما بين تاريخ القرية وتاريخ المنازعات التقليدية ، بين القبائل والعشائر وبين النضال الحاسم الذي تدعو الشعب الى خوض غماره . ان هذه الأحزاب كثيرا ما تسخر على رؤوس الأشهاد من الشيوخ الذين تحيط بهم في المجتمعات التقليدية هالة من الأحترام ، والذين يملكون على وجه العموم سلطة معنوية لا سبيل الى المماراة فيها . ولا تنسى دوائر السلطة المحتلة ان تستغل هذه الأحقاد ، فهي تتسقط أخبار أيسير القرارات التي نتخذها هذه السلطة الغرة ، فاذا هي تنزل ضربتها البوليسية في احكام مستمد من دقة المعلومات التي وصلت اليها ويعتقل المسؤولون الذين وفدوا الى المدينة على حين غرة ، ويعتقل كبار أعضاء المجلس الجديد .

ويأتي هذا الاخفاق مصداقا «للتحليل النظري» الذي قامت به الأحزاب الوطنية ، فالنازلة التي نزلت بالحزب حين حاول تنظيم

الجماهير الريفية تعزز حذره من الجماهير الريفية وتقوي تهجمه على هذا الجزء من الشعب ، وبعد انتصار كفاح التحرير الوطني تتجدد هذه الأخطاء وتغذي الميول الى اللامركزية والى الانفصالية . وتحل محل العصبية القبلية التي كانت سائدة في عهد الاستعمار عصبية اقليمية تسود في عهد التحرر الوطني ، منادية بشعارها الدستوري : الفدرالية .

ولكن يتفق أحيانا ان نرى الجماهير الريفية ، رغم قلة تأثير الأحزاب الوطنية ، فيها ، نتدخل في الكفاح تتدخل حاسما ، فاما ان تزيد الوعي القومي نضجا ، واما أن تتناوب العمل مع الأحزاب الوطنية ، واما — وهذا أندر — ان تحل نفسها محل هذه الأحزاب العقيمة .

ان دعاية الأحزاب الوطنية يتردد صداها دائما بين صفوف الجماهير القروية . ان ذكرى مرحلة مقاومة الاستعمار تظل حية قوية في القرى . ان النساء ما تزال تذنذن في آذان أطفالها الأغاني التي رافقت المقاتلين الذين قاوموا الغزو . ان أطفال القرى الذين هم في الثانية عشرة او الثالثة عشرة من أعمارهم ، يعرفون أسماء الشيوخ الذين شهودوا آخر ثورة . والأحلام التي تداعب أخيلة الصغار في القرى ليست تلك الأحلام المترفة التي تملأ أخيلة أطفال المدن ، أعني أحلام النجاح في الامتحانات ، وانما هي أحلام تشبه بهذا المقاتل أو ذاك من المقاتلين الذين ما تزال ميتتهم البطولية تستدر من المآقى دموعا غزارا .

وفي اللحظة التي تحاول فيها الأحزاب السياسية أن تنظم الطبقة العاملة الناشئة في المدن ، تشهد الأرياف في بعض الأحيان انفجارات تبدو في الظاهر غريبة غير مفهومة . فكذلك شبت الثورة المشهورة في مدغشقر عام 1047 . ان المصالح الاستعمارية قد فسرت هذه الثورة

تفسيرا بسيطا فقالت : عصيان . ولكننا نعلم اليوم ان الأمور كانت أعقد من ذلك كثيرا ، كما هي الحال دائما . ففي أثناء الحرب العالمية الثانية وسعت الشركات الاستعمارية الكبرى سلطانها واستولت على جميع الاراضي التي كانت لا تزال حرة . وفي تلك الفترة نفسها شاع أن في النية أسكان لاجئين من اليهود ، وأناس من القبائل ومن سكان جزر الأنتيل في مدغشقر . وشاع إيضا ان السكان البيض في جنوبي افريقيا سيغزون الجزيرة بالتواطؤ مع المستوطنين الأوروبيين . لذلك رأينا مرشحي القائمة الوطنية في الانتخابات التي جرت بعد الحرب يفوزون فوزا ساحقا . فاذا بأعمال القمع التي تقوم بها السلطات الاستعمارية تنصب فورا على خلايا «الحزب الديمقراطي» لبعث مدغشقر ، واستعمل الاستعمار ، في حملة القمع هذه ، الأساليب التقليدية المعروفة لتحقيق أهدافه . اعتقالات كثيرة ، دعاية عنصرية للتفريق بين القبائل ، خلق حزب جديد من عناصر غير منظمة أخذتها من بين صفوف البروليتاريا الدنيا . وكان الغرض من خلق هذا الحزب الذي أسمي «حزب المحرومين» أن تكون استفزازاته حجة مشروعة تتذرع بها السلطة الاستعمارية للمحافظة على النظام . ولكن هذه العملية التافهة ، أعني تصفية حزب أعد لهذا الغرض سلفا ، اتسعت اتساعا هائلا . فأدركت الجماهير الريفية التي كانت على أهبة الدفاع منذ ثلاث سنين او أربع ، أدركت فجأة أنها مهددة بالموت ، فقررت أن تعارض القوى الاستعمارية معارضة وحشية ، فتسلحت بالرماح ، وبالحجارة في أكثر الأحيان ، وخاضت غمار تلك الثورة الجارفة التي عمت البلاد في سبيل التحرير الوطني ... والقارىء يعرف تتمة القصة .

وليست في هذه الثورات المسلحة الا احدى الوسائل التي

تستعملها الجماهير الريفية للتدخل في الكفاح القومي . وفي بعض الأحيان يحمل الفلاحون العبء عن المدينة ، حين تتناول حملة القمع البوليسي الحزب الوطني . أن الأنباء تصل الى الارياف مضخمة ، مضخمة تضخيما كبيرا : الزعماء اعتقلوا ، الرشاشات تقذف الناس برصاصها ، دم الزنوج يغرق المدينة ، المستوطنون يستحمون بالدم العربي . وتتفجر مراجل الحقد المتجمع المكظوم . فيهجم الفلاحون على مخفر الشرطة المجاور فيحتلونه ، ويمزقون رجال الدرك اربا اربا ، ويقتلون معلم المدرسة ، ولا ينجو الطبيب الا لأنه كان غائبا ، الخ ، الخ ... وتهرع السلطة الاستعمارية فترسل الى المنطقة فرقا من جيوشها ، وتأخذ الطائرات تقذف قنابلها . وهكذا ترفع راية الثورة ، وتنبعث التقاليد الحربية القديمة ، وتزغرد النساء ، وينظم الرجال صفوفهم ويحتلون مواقعهم في الجبال ، وتبدأ الحرب . هكذا يخلق الفلاحون من تلقاء أنفسهم جوا عاما من اضطراب حبل الأمن ، فيخاف الاستعمار ، فاما أن يستمر في الحرب واما أن يفاوض .

فكيف تستجيب الأحزاب الوطنية لهذا الدخول المفاجيء الذي تدخله جماهير الفلاحين في الكفاح الوطني ؟ لقد رأينا أن أكثر الأحزاب الوطنية لم تضع في براجها ضرورة العمل المسلح . وهي الآن لا تعارض استمرار الثورة ولكنها تكتفي بالركون الى عفوية القرويين . انها بوجه الاجمال ، تتصرف ازاء هذا العنصر الجديد تصرفها ازاء معجزة نزلت من السماء ، مبتهلة الى القدر أن تستمر هذه المعجزة . ان الأحزاب الوطنية تستثمر هذه المعجزة ، ولكنها لا تحاول أن تنظم الثورة . انها لا ترسل الى الأرياف رجالا من مسؤوليها لبث الوعي السياسي لدى الجماهير ولتنويرها ولرفع مستوى المعركة ، وانما هي تأمل أن يستمر كفاح هذه الجماهير من تلقاء ذاته ، وتترجى أن لا يضعف

أو يخور . فليس ثمة عدوى تسري من حركة المدينة الى حركة الريف ، وانما تتطور كل حركة من الحركتين وفقا لمنطقها الخاص .

ان الأحزاب الوطنية لا تحاول أن تدخل الى الجماهير الريفية ، التي هي الآن مهيأة كل التهيؤ ، شعارات معينة . انها لا تعرض عليها أي هدف . كل ما في الأمر أنها تأمل ان تستمر هذه الحركة الى غير نهاية ، وأن لا يحقق قصف القابل غرضه فيقضي على الثورة . وهكذا نرى أن الأحزاب الوطنية لا تستثمر ، حتى في هذه المناسبة ، الفرصة المتاحة لها ، وهي ان تضم الجماهير الريفية الى صفوفها ، وأن تبث فيها الوعي السياسي ، وأن ترفع مستوى كفاحها . انها تظل على ذلك الموقف الاجرامي ، موقف الحذر من الأرياف .

ان المسؤولين السياسيين يقبعون في المدن ، ويفهمون الاستعمار ان لا صلة لهم بالثائرين ، أو يسافرون الى الخارج . ومن النادر أن ينضموا الى الشعب في الجبال . ففي كينيا مثلا لم يعلن أي وطني معروف ، أثناء ثورة الماو ماو ، انتماءه الى هذه الحركة ، ولا حاول ان يدافع عن هؤلاء الرجال .

ما من مناقشة خصبة بين مختلف طبقات الأمة ، ولا من لقاء . لذلك نرى عدم التفاهم هذا يبقى ويتفاقم حين يتحقق الاستقلال ، بعد قمع قاست ويلاته الجماهير الريفية ، وتفاهم تم بين الاستعمار والأحزاب الوطنية . ويقف القرويون موقف التردد والاحتراس من التجديدات الاجتماعية ولو كانت تقدمية في نظر من يرى الأمور رؤية موضوعية ، وما ذلك الا لأن الذين أصبحوا الآن حكاما لم يشرحوا لمجموع الشعب أثناء فترة الاستعمار ، لا أهداف الحزب ، ولا الاتجاه القومي ، ولا المشكلات العالمية ، الخ ...

فالحذر الذي كان القرويون والاقطاعيون يشعرون به ازاء الاحزاب

الوطنية في عهد الاستعمار ، يستمر في عهد الاستقلال عداوة مماثلة : وتأخذ الدوائر الاستعمارية السرية التي لم تلق سلاحها في عهد الاستقلال ، تأخذ تغذي الشعور بالاستياء ، وتتوصل الى خلق مصاعب كثيرة في وجه الحكومات الفتية . وتدفع الحكومة عندئذ ثمن كسلها وتقاعسها في ابان عهد التحرير ، وثمن احتقارها للقرويين . يمكن أن يصبح للأمة رأس عاقل حكيم ، بل قد يصبح لها رأس تقدمي ، ولكن الجسم الكبير يبقى ضعيفا هزيلا غير متعاون .

ويغري الحكومة في مثل هذه الحالة أن تحطم هذا الجسم بتركيز الحكم واخضاع الشعب بالقوة . زهذا واحد من الاسباب التي تحمل كثيرا من الناس على أن يقولوا انه لا بد من شيء من الديكتاتورية في البلاد المتخلفة ، إن المسؤولين يشكون في الجماهير الريفية ، حتى لقد يأخذ هذا الشك اشكالا خطيرة . من ذلك مثلا أن بعض الحكومات تظل زمنا طويلا بعد ل لاستقلال تعد مؤخرة البلاد منطقة لم يستتب فيها السلم ، فما يزورها رئيس الدولة ولا وزراء الحكومة الا بمناسبة قيام الجيش الوطني ببعض المناورات العسكرية ، حتى لتكاد مؤخرة البلاد أن تكون شيئا مجهولا . والغريب في الأمر أن تصرف الحكومة الوطنية ازاء الجماهير الريفية يشبه بعض صفات تصرف السلطة الاستعمارية . فترى المسؤولين يقولون : «لا يعرف المرء كيف يمكن أن يكون رد الفعل لدى هذه الجماهير» ، بل ان الحكام الجدد لا يتورعون عن القول : «لا بد من استعمال السوط اذا نحن أردنا اخراج هذه البلاد من القرون الوسطى» . ولكن تهاون الأحزاب السياسية بشأن الجماهير الريفية في عهد الاحتلال ، هو الذي يؤدي ، كما سبق أن ذكرنا ذلك ، الى تصديع الوحدة القومية ، وتعطيل انطلاق الأمة .

ويعمد الاستعمار أحيانا الى تفريق الاندفاعية القومية والى تشتيتها .

فلا يثير المشايخ وزعماء القبائل على «ثوريي» المدن ، وانما يشكل من الجماعات الدينية والقبائل أحزابا . وهكذا تنشأ ، في وجه حزب المدينة الذي أخذ يجسد الارادة القومية ، ويهدد النظام الاستعماري ، تجمعات وتكتلات وأحزاب تقوم على أساس قبلي أو محلي . فاذا قبيلة برمتها تصبح حزبا سياسيا يمده الاستعماريون بالنصح والتوجيه . حتى اذا حان وقت المفاوضات حول الدائرة المستديرة ، وجدت الحزب الموحد غارقا في حساب القوى والتجمعات ، ورأيت الاحزاب القبلية تعارض وجود سلطة مركزية ، وتناهض الوحدة وتندد بدكتاتورية الحزب الموحد .

وهذا الأسلوب نفسه تستعمله المعارضة الوطنية فيما بعد . ان سلطة الاحتلال قد اختارت من الحزبين الوطنيين أو من الأحزاب الوطنية الثلاثة التي قامت بحركة التحرير . وأشكال هذا الاختيار كلاسيكية معروفة : اذا فاز أحد الأحزاب بالاجماع الوطني وفرض نفسه على المحتل كمفاوض وحيد قام المحتل بمناورات كثيرة لتأخير موعد المفاوضات الى أقصى حد ، مستعملا هذا التأخير في تفتيت مطالب هذا الحزب ، أو في الفوز من قيادته بابعاد بعض العناصر «المتطرفة» . أما اذا لم يستطع أي حزب من الأحزاب أن يفرض نفسه حقا ، اكتفى المحتل بتفضيل الحزب الذي يبدو له أكثر «تعقلا واعتدالا» من غيره . وعندئذ نرى الأحزاب الوطنية التي لم تشترك في المفاوضات تأخذ باستنكار الاتفاق الذي تم بين المحتل والحزب الآخر . ويشعر الحزب الذي تسلم السلطة بخطر هذه المواقف الديماغوجية التي يقفها خصمه ، فيحاول أن يشتت الحزب المعارض ، ويتهمه بأنه غير شرعي . فلا يسع الحزب المعارض الا أن يعتصم بأطراف المدن وبالأرياف محاولا أن يؤلب الجماهير الريفي على «أهل

الساحل الذين باعوا أنفسهم» ، على «سكان عاصمة الفاسدين المتفسخين» . ولا يدع هذا الحزب ذريعة من الذرائع لا ويستعملها ، فهو يهاجم خصمه بحجج دينية ، وهو يتهمه بالخروج على التقاليدي فيما يجنح اليه من اتجهات تجديدية ، مستغلا جهل الجماهير الريفية وما تتصف به الأرياف من انفعالية وعفوية . وتسري الشائعات هامسة هنا وهناك . الجبل قد ثار ، الأرياف مستاءة حانقة ، أطلق رجال الدرك رصاص بنادقهم على الفلاحين ، هبت الحكومة ترسل الامدادات والنجدات ، النظام كله أوشك أن ينهار . وهكذا فأن أحزاب المعارضة ، التي ليس لها برنامج واضح ، وليس لها هدف الا ان تحل محل الفئة الحاكمة ، تضع مصيرها بين الجماهير الريفية العفوية الجاهلية .

وقد يحدث عكس هذا ، فلا تعتمد المعارضة على الجماهير الريفية ، وانما تعتمد على العناصر التقدمية ، على النقابات في الأمة الفتية ، وعندئذ تستعين الحكومة بالجماهير لمقاومة مطالب العمال ، قائلة انها مناورات أناس مغارين خارجين على التقاليد .

ان الحقائق التي أتيح لنا نلاحظها على صعيد الأحزاب السياسية تلاحظ هي نفسها على صعيد النقابات . ففي أول الأمر تكون التشكيلات النقابية في الأراضي المستعمرة فروعا محلية لنقابات البلاد المستعمرة ، وتكون شعارات هذه النقابات أصداء لشعارات نقابات البلد المستعمر .

حتى اذا توضحت المرحلة الحاسمة من الكفاح الوطني ، قرر عدد من النقابيين الوطنيين انشاء نقابات وطنية ، وانسحب الوطنيون جماعات ووحدانا من المنظمة القديمة المستوردة من الخارج ، وأصبحت المنظمة النقابية الجديدة عنصرا جديدا من عناصر الضغط

على الاستعمار لدى سكان المدن . لقد سبق ان قلنا ان البروليتاريا في المستعمرات هي بروليتاريا ناشئة ، وهي من الشعب فئة محظوظة أكثر من سائر فئاته . وتنظم النقابات التي تنشأ أثناء الكفاح صفوفها في المدن ، وترسم لنفسها برنامجا سياسيا ، وطنيا في الدرجة الأولى . وما النقابة الوطنية التي تنشأ في ابان المرحلة الحاسمة من الكفاح في سبيل الاستقلال ، ما هي في واقع الأمر الا تجنيد للعناصر الوطنية الواعية النشيطة .

ولكن الجماهير الريفية التي تزدريها الأحزاب السياسية ، تظل مبعدة . ولئن أمكن ان تتكون نقابة للعمال الزراعيين ، فان هذه المنظمة لا تزيد على أن تلبي تلك الحاجة الشكلية ، النقابية التابعة للبلاد المستعمرة ، فانهم لا يعرفون كيف ينظمون الجماهير الريفية . لقد فقدوا كل اتصال بطبقة الفلاحين ، فهم لا يعنون في الدرجة الأولى الا بتنظيم عمال مصانع الفولاذ ، وعمال الموانيء ، وموظفي شركات الغاز والكهرباء وما الى ذلك .

ولهذه التشكيلات النقابية قوة ضاربة مدهشة في عهد الاستعمار . ان هذه النقابات تستطيع في المدن ان تجمد الاقتصاد الاستعماري في كل لحظة ، أو ان تعرقله على أقل تقدير . ولما كان الأوروبيون يقطنون في المدن غالبا . فان تأثير هذه المظاهرات في نفوسهم تأثير كبير ، فتراهم يصيحون : لا غاز . لا كهرباء ، القمامة لم تجمع ، البضائع تفسد على أرصفة الميناء ..

ان المدن ، وهي أشبه بجرر أوروبية ، نشعر في عهد الاستعمار لا تستطيع أن تتحمل هذه الضربات . أما «الداخل» (الجماهير الريفية) فانها تظل غريبة عن هذا الكفاح .

هكذا نرى أنه ليس ثمة تناسب بين عمل النقابات وعمل سائر

طوائف الأمة من الناحية القومية . حتى اذا تحقق الاستقلال رأينا العمال المنخرطين في النقابات يشعرون بأنهم لا يقومون بعمل ذي بال ، وانهم يدورون على فراغ . فالهدف المحدود الذي رسموه لأنفسهم قد ظهر ، منذ تحقق ، أنه ليس له كبير شأن اذا قيس باتساع مهمة البناء القومي . ويكتشف القادة النقابيون ، ازاء البورجوازية الوطنية التي تكون علاقاتها بالسلطة وثيقة جدا في كثير من الاحيان ، أنهم أصبحوا لا يستطيعون أن يحصروا نشاطهم في نطاق العمل العمالي . ولأنهم معزولون بطبيعة الحال عن الجماهير الريفية ، ولا يستطيعون أن ينشروا شعاراتهم فيما وراء ضواحي المدن ، تراهم يتبنون مواقف ما تنفك تصبح سياسية أكثر فأكثر . والواقع أن النقابات مرشحة السلطة ، فها هي ذي تحاول بجميع الوسائل أن تخرج البورجوازية : تحتج على بقاء القواعد الأجنبية في البلاد ، تستنكر الاتفاقات التجارية ، تهاجم السياسة الخارجية التي تتبعها الحكومة الوطنية . ان العمال يدورون على فراغ بعد أن فازوا «بالاستقلال» . وتدرك النقابات غداة الاستقلال أنها لو أعلنت مطاليبها لكان ذلك فضيحة في نظر سائر فئات الأمة . ذلك أن العمال هم في الواقع فئة تنعم بخيرات العهد أكثر من سائر الفئات . أنهم هم الفئة التي تعيش في بحبوحة أكثر من سائر الفئات ، فلو قاموا بحركة تهدف الى الحصول على تحسين ظروف المعيشة للشغيلة وعمال الموانىء لأسخطوا الشعب ، بل ولأثاروا عداوة الجماهير المحرومة في الأرياف . وهكذا نرى النقابات ، وقد حرمت من العمل في سبيل الحصول على مزيد من الحقوق للعمال ، وقد أصبحت تتحرك وهي مكانها لا تبرحه .

وليس هذا الوضع الحرج الا دليلا على أن ثمة حاجة موضوعية الى برنامج اجتماعي يتناول أخيرا جميع فئات الشعب . أن النقابات

تكتشف فجأة أن مؤخرة البلاد يجب أن تنور وأن تنظم هي أيضا . ولكنها ، لأنها لم تهتم يوما باقامة جسور بينها وبين جماهير الفلاحين ، لأن هذه الجماهير هي بعينها القوى الوحيدة ، الثورية من تلقاء ذاتها ، ما تلبث أن تبرهن على عجزها ، وما تلبث ان تكتشف أن برنامجها قد فات أوانه .

والقادة النقابيون ، الغارقون في بحر الاضطراب السياسي العمالي ، لا بد أن ينتهوا من ذلك أخيرا الى الاعداد لانقلاب . ولكن «الداخل» يكون مستبعدا من هذا الاعداد للانقلاب أيضا ، فالقضية محصورة بين البورجوازية الوطنية والعمالية النقابية ، وتعمد البورجوازية الى الأساليب القديمة التي كان يستعملها الاستعمار ، فتعرض قواتها العسكرية والبوليسية ، بينما تمضي النقابات تعقد الاجتماعات وتعبيء عشرات الألوف من أعضائها . ولا يزيد الفلاحون ، ازاء هذه البورجوازية الوطنية وهؤلاء العمال الذين يأكلون بينما الفلاحون جياع ، لا يزيد الفلاحون ازاء هؤلاء وأولئك على أن ينظروا وهم يرفعون أكتافهم غير مكترثين . أنهم يرفعون أكتافهم لادراكهم أن هؤلاء وأولئك جميعا لا ينظرون اليهم الا نظراتهم الى تكأة يتكأ عليها ، فالنقابات والعمال والحكومة انما يستغلون جماهير الفلاحين استغلالا ميكافيليا لا أخلاقيا ، استغلالهم لقوة عاطلة عمياء يحسن الانتفاع بها في المناورات .

ويحدث في بعض الظروف عكس ذلك ، فترى جماهير الفلاحين تتدخل تدخلا حاسما في نضال التحرير الوطني ، وفي تعيين المستقبل الذي تختاره الأمة في آن واحد . ولهذه الظاهرة أهمية أساسية في البلدان المتخلفة ، لذلك نريد أن ندرسها الآن بشيء من التفصيل .

لقد سبق أن رأينا ان في الأحزاب الوطنية ارادتين متجاورتين :

أولاهما ارادة تحطيم الاستعمار ، والثانية ارادة التفاهم معه بالحسنى . ويحدث في داخل هذه الأحزاب أحيانا أمران . الأول هو عناصر مثقفة جهدت في تحليل الواقع الاستعماري والوضع الاستعماري تحليلا دائبا ، تشرع في انتقاد الفراغ العقائدي التي تلاحظه في الحزب ، وتشرع في انتقاد ما تراه في هذا الحزب من فقر في أسلوب العمل وخطة النضال ، وتأخذ تطرح على القادة في غير كلال ولا ملال أسئلة أساسية كهذه الأسئلة : «ما هي القومية ؟ ما الذي تعنونه من هذه الكلمة ؟ ما مضمون هذه اللفظة ؟ لماذا تريدون الاستقلال ؟ بل أولا ما هي الوسيلة التي تتصورون أنكم واصلون بها الى الاستقلال ؟» ويأخذون يطالبونهم في الوقت نفسه بأن يعالجوا قضية خطة العمل معالجة دقيقة صارمة ، ويقترحون على هؤلاء القادة أن يضيفوا الى الوسائل الانتخابية «جميع الوسائل الأخرى» . ولا يزيد القادة في أول هذه المجادلات على أن يتملصوا من هذا الغليان بقولهم : انه حماسة شباب مراهقين ، فان العناصر الثورية التي تدافع عن هذه المواقع ما تلبث ان تعزل ، فالقادة المتدثرون بتجربتهم ما يلبثوا ان ينبذوا ، في غير رحمة «هؤلاء المغامرين ، هؤلاء الفوضويين» .

ان آلة الحزب تبدو مستعصية على كل تجديد . وتجد الأقلية الثورية نفسها وحيدة أمام تلك القيادة المذعورة التي يقلقها أن تتصور انجرافها في اعصار لا تعرف وجهه ولا قوته ولا جهته .

وأما الأمر الآخر الذي يحدث فيتصل بالقادة الموجهين أو القادة الثانويين الذين تعرضوا بسبب نشاطهم ، للتعذيب البوليسي الاستعماري . ومن المهم أن نذكر هنا أن هؤلاء الرجال قد وصلوا الى مراكز القيادة في الحزب بفضل نشاطهم الصامد العنيد ، وبفضل ما يتصفون به من روح التضحية ، وما يمتازون به من روح وطنية صادقة

مثلي . وهؤلاء الرجال الذين صعدوا من القاعدة انما هم في اكثر الأحيان عمال صغار أو شغيلة موسميون أو شبان عاطلون عن العمل . والأنضمام الى حزب وطني لايعني عندهم أن يعملوا في السياسة ، وانما يعني أنهم يختارون الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من الارتقاء من الحالة الحيوانية الى الحالة الانسانية . ان هؤلاء الرجال الذين يزعجهم تمسك الحزب بالشرعية ، يظهرون في الأعمال التي يعهد بها اليهم مبادهة وشجاعة وحسا نضاليا ، فسرعان ما تكشفهم قوى القمع الاستعمارية ، فتعتقلهم ، وتحكم عليهم ، وتعذبهم ، ثم يخرجون الى السجن ، ولكنهم يكونون في اثناء اعتقالهم قد محصوا أفكارهم وشحذوا عزائمهم . انهم حين يضربون عن الطعام ، وحين يتضامنون في أعمال عنيفة تقوم بها زنزانة مشتركة في السجن ، يتصورون اطلاق سراحهم فرصة تتاح لهم من أجل الشروع في الكفاح المسلح . وفي ذلك الوقت نفسه ، خارج السجن ، يكون الاستعمار الذي أصبح يهاجم في كل مكان ، أخذ يقدم عروضا للمعتدلين من الوطنيين .

وهكذا يحدث تباعد يشبه القطيعة بين اتجاه التمسك بالشرعية واتجاه الاستخفاف بالشرعية ، في صفوف الحزب ويشعر أصحاب الاتجاه الثاني أنهم أصبحوا أناسا غير مرغوب فيهم . فأصحاب التمسك بالشرعية يتحاشونهم ويتهربون منهم . ولئن كانوا يقدمون لهم يد المعونة بعد احتياطات كثيرة ، فهم يشعرون أنهم أصبحوا أجانب عن الحزب . وعندئذ يتصل هؤلاء الرجال بأولئك المثقفين الذين أتيح لهم منذ بضع سنوات أن يعجبوا بمواقفهم ، فيخرج من هذا الاتصال حزب سري يوازي الحزب الشرعي . ولكن أعمال القمع ضد هذه العناصر التي أصبح لا يمكن استردادها ، تزداد بازدياد تقارب الحزب الشرعي من الاستعمار أملا في تبديله «من داخل» فاذا بفريق

اللاشرعية يجد عندئذ نفسه في منعطف تاريخي .

فهؤلاء الرجال المنبوذون من المدن يتجمعون ، أول الأمر ، في الضواحي المحيطة بالمدن . ولكن شبكة الشرطة تكتشف أمرهم . فيضطرون أخيرا الى ترك المدن نهائيا ، والى الابتعاد عن أمكنة الصراع السياسي ، ماضين الى الأرياف ، الى الجبال ، الى جماهير الفلاحين . والفلاحون ، في مرحلة أولى يحتضنونهم فيخفونهم عن أعين رجال الشرطة . والمناضل الوطني الذي يقرر ان يهجر لعبة التخفي التي كان يلعبها مع الشرطة ، وأن يربط مصيره بمصير جماهير الفلاحين ، لا يخسر أبدا . ان الفلاحين ، يغطونه كمعطف ، ويحنون عليه ويحمونه حماية لم تكن تخطر له ببال . وهكذا نرى هؤلاء الرجال الذين نفوا من المدن نفيا ، وانقطعوا عن بيئة المدن التي أنضجوا فيها أفكارهم عن الأمة وعن النضال السياسي ، قد أصبحوا الآن ثوارا حقا . انهم ، وهم مضطرون الى التنقل بغير انقطاع تحاشيا لرجال الشرطة ، والى السير ليلا حتى لا يلفتوا النظر ، يطوفون الآن في البلاد ويعرفونها . وداعا زمان المقاهي ، وداعا زمان المناقشات العقيمة عن الانتخابات القادمة ! ان آذانهم تسمع الآن صوت الشعب ، صوته الحق ، وان أبصارهم ترى الآن بؤس الشعب ، بؤسه الكبير الذي لا نهاية له . ويدركون أنهم أضاعوا وقتا ثمينا في تعليقات على النظام الاستعماري لا طائل فيها ولا نفع منها . ويفهمون ان التبديل لن يكون اصلاحا ولن يكون تحسينا . ويفهمون ، وهم يشعرون بدوار لن يبرحهم ، ان التحرك السياسي في المدن سيظل عاجزا عن تغيير النظام الاستعماري ، عن قلب النظام الاستعماري .

ويألف هؤلاء الرجال مخاطبة الفلاحين . ويكتشفون ان الجماهير الريفية لم تنقطع يوما عن الاعتقاد بأن تحررها لا يتم الا بالعنف ، وبأن

القضية هي قضية استرداد الأراضي من الأجانب ، هي قضية كفاح وطني ، هي قضية ثورة مسلحة . الأمر بسيط واضح . يكتشف هؤلاء الرجال شعبا متجانسا منسجما ، ان كان يعيش حياة ساكنة جامدة ، فانه ما يزال محافظا على قيمه الاخلاقية وعلى ارتباطه بالأمة ، يكتشفون شعبا كريما سخيا ، مستعدا للتضحية ، راغبا في العطاء ، نافذ الصبر ، قوي الشمم والاباء . وواضح ان اللقاء بين أولئك المناضلين الذين تطاردهم الشرطة وبين هذه الجماهير المتوفزة ، يمكن أن يؤدي الى مزيج متفجر ذي قوة لا عهد بمثلها من قبل . فأولئك الرجال الوافدون من المدن يدخلون مدرسة الشعب ، وفي الوقت نفسه بفتحون للشعب مدرسة يتعلم فيها الشعب السياسة والحرب . ويأخذ الشعب يشحذ أسلحته . فالدروس في المدرسة لا تطول ، وما تلبث الجماهير التي تسترد اتصالها بعضلاتها ، أن تحمل القادة على اقتحام الامور . وينطلق الكفاح المسلح .

وتحار الأحزاب السياسية تجاه الثورة . ذلك أن عقيدتها قد أكدت نفي دائما أنه لا جدوى من اللجوء الى القوة ، بل ان وجودها نفسه انما هو دائم لقيام أية ثورة مسلحة . حتى أن بعض الأحزاب السياسية تشارك المستعمرين تفاؤلهم سرا ، وتهنىء نفسها بأنها في خارج هذا الجنون الذي سيقمع باسالة الدماء . ولكن النار التي اشتعلت ما تلبث أن تسري الى مجموع البلاد سريان وباء سريع . وتعجز المصفحات والطائرات عن تحقيق النجاح الذي كان يقدر لها . ويرى الاستعمار استفحال الداء ، فيأخذ يفكر . حتى أن أصواتا في صفوف المضطهدين تأخذ تلفت النظر الى خطورة الوضع .

أما الشعب في أكواخه وفي أحلامه فانه يتجاوب مع الحركة الوطنية الجديدة . ويأخذ ينشد للمقاتلين المظفرين ، بصوت خافت ، في قرارة

قلبه ، أناشيد لا تنتهي . لقد اجتاحت الثورة الأمة ، والأحزاب هي التي أصبحت الآن معزولة .

غير أن قادة الثورة ما يلبثون أن يشعروا في ذات يوم ان على الثورة أن تمتد إلى المدن أيضا . انهم ما يلبثون أن يعوا هذه الحقيقة . وليس وعيهم هذا أمرا عرضيا ، بل هو ثمرة محتومة للمنطق الذي يخضع له تطور الثورة المسلحة في سبيل التحرير الوطني . ذلك ان الاستعمار ، رغم أن الأرياف هي الينابيع التي لا تنضب لتدفق الطاقات الشعبية ، ورغم أن جماعات الثائرين قد أخذت تنشر الاضطراب في الأرياف ، يظل واثقا بقوته ، مطمئنا الى أنه غير معرض للخطر . لذلك تقرر قيادة الثورة أن تنقل الحرب الى مواقع العدو ، الى المدن الهادئة الباذخة .

ونقل الثورة الى المدن يطرح على القيادة مشكلات عسيرة . لقد رأينا أن أكثر القادة قد ولدوا أو شبوا وترعرعوا في المدن ، ثم فروا من بيئتهم تلك تحاشيا لمطاردات الشرطة الاستعمارية ، ولأن القيادات المتعقلة المعتدلة في الأحزاب السياسية لم تفهمهم بوجه عام ، فانسحابهم الى الأرياف كان هربا من أعمال القمع من جهة ، وكان من جهة أخرى يأسا من التشكيلات السياسية القديمة . والأشخاص الذين يمكنهم أن يتصلوا بهم في المدن انما هم الوطنيون المعروفون في الأحزاب السياسية . ولكننا رأينا أن هؤلاء الثوار قد انشقوا عن أولئك القادة الخائفين الذين لا يزيدون على تضييع جهودهم في الكلام على مساوىء الاستعمار . ثم ان المحاولات الأولى ، التي يقوم بها رجال الثورة مع أصدقائهم القدامى هؤلاء ، وخاصة مع الذين يعدونهم اكثرهم تطرفا تأتي مصدقة لمخاوفهم ، وتجعلهم ، يكرهون حتى رؤية هؤلاء الأصدقاء القدامى . والواقع ان الثورة التي انطلقت في الأرياف

ستدخل المدن عن طريق ذلك الجزء الذي لم يستطع حتى الآن ان يجد عهد الاستعمار عظمة يقضمها . ان الرجال الذين أجبرهم تزايد السكان ، وأجبرهم تجريدهم من أملاكهم من قبل الاستعمار على ترك أرض آبائهم وأجدادهم ، يأخذون يدورون حول المدن في غير كلال ولا ملال ، آملين أن يسمح لهم في يوم من الأيام بدخولها . فبين هذه الجماهير ، من هذا الشعب الذي يسكن أكواخ القصدير ، بين هؤلاء الفعلة الكادحين ، انما تجد الثورة حربتها في المدن .. ان هؤلاء الفعلة الكادحين ، ان هذه الجموع الساغبة التي فصلت عن قبائلها وعشائرها ، هي بين القوى الثورية في الشعب المستعمر من اكثرها عفوية وجذرية .

في السنوات التي أعقبت ثورة الماو ماو في كينيا ، رأينا السلطات الاستعمارية البريطانية تضاعف اجراءات الأرهاب ضد هذه الفئات الدنيا من الكادحين . ورأينا قوى الشرطة وقوى البعثات التبشيرية تنسق جهودها في عامي 1950 و 1951 من أجل وقف تدفق الشباب الكيني من الأرياف والغابات ، وانغماسه في السرقة والفساد والادمان وغير ذلك ، بعد أن يعجز عن ايجاد عمل . ان جنوح الشباب في البلاد المستعمرة انما هو ثمرة مباشرة لوجود هذه الطبقة البائسة من صغار الكادحين . ومثل ذلك جرى في الكونغو ، اذ اتخذت اجراءات قوية ، منذ عام 1957 ، من أجل ان يعاد الى الارياف أولئك «الشبان الأوغاد» الذين يعكرون صفو النظام والأمن ، حتى لقد أنشئت معسكرات خاصة لايوائهم وعهد بهم الى البعثات التبشيرية ، تحت حماية الجيش البلجيكي طبعا .

ان نشوء هذه الطبقة البائسة من الكادحين ظاهرة تخضع لمنطق خاص ، فلا الجهود الطافحة التي تبذلها البعثات التبشيرية ، ولا

القرارات الكثيرة التي تصدرها الحكومة المركزية بقادرة على وقف نمو هذه الظاهرة . فهذه الطبقة من الناس أشبه بجموع الفئران التي تستمر على قضم جذور الشجرة ، رغم ركلها بالأرجل ورميها بالحجارة .

أن أكواخ القصدير التي تتجمع حول المدن تعبر عن عزم المستعمر على أن يغزو قلعة العدو ، مهما يكن ثمن ذلك ، ومهما تكن المسارب الخفية التي يجب أن يعمد اليها لتحقيق هذا الهدف . ان نشوء هذه الطبقة الشقية التي تجثم على صدر المدينة ، وتعكر صفو «الأمن» فيها ، انما يعني أن السيطرة الاستعمارية قد أخذ السوس ينخر فيها ، وان داء قاتلا قد أُخذ ينتشر في جسمها . وها هم أولا القوادون والأوباش والعاطلون والمجرمون الذي يطاردهم الحق العام ، ينخرطون في كفاح التحرير مقاتلين أقوياء الشكيمة . ان هؤلاء الناس لا يرد اعتبارهم اليهم في نظر المجتمع الاستعماري وفي نظر الأخلاق التي ينادي بها المستعمر . ذلك أنهم ، على خلاف ذلك ، انما يسلكون الى دخول المجتمع طريق القنبلة والمسدس . ولكن بذلك يستردون اعتبارهم في نظر أنفسهم وفي نظر التاريخ . حتى المومسات ، والخادمات بألفي فرنك ، واليائسات ، وجميع الرجال والنساء الذين يتأرجحون بين الجنون والانتحار ، يستردون اذ ذاك توازنهم ، ويأخذون يسيرون ، ويشاركون مشاركة حاسمة في موكب الأمة التي استيقظت .

أن الأحزاب السياسية لا تفهم هذه الظاهرة التي تعجل تفكيكها . ان ظهور الثورة في المدن على حين غرة يبدل ملامح الكفاح . لقد كانت الجيوش الاستعمارية متجهه كلها الى الأرياف ، وها هي ذي الآن تقفل راجعة الى المدن على جناح السرعة لتكفل الأمن للأرواح والأرزاق . وها هي ذي تبعثر قواعا يمنة ويسرة في القيام بأعمال القمع .

ان الخطر ماثل في كل مكان . أرض الوطن كلها ثائرة ، الشعب في المستعمرة قد انتفض باسره . وتشهد جماعات الفلاحين المسلحين انفراج انحصار عنها . ان أنطلاق الثورة في المدن يتيح لها أن تتنفس .

وحين يرى قادة الثورة ان الشعب الذي عصفت به نار الحماسة قد أخذ يكيل للآلة الاستعمارية ضربات حاسمة ، فان شكهم في جدوى السياسة التقليدية يزداد ويقوى ويصبح كل انتصار جديد دليلا على أنهم كانوا على حق في عدوانهم لتلك السياسة العقيمة التي يطلقون عليها الآن اسماء جديدة : سياسة الثرثرة الفارغة واللفظية السقيمة والتهويش العقيم . ويشعرون نحو «السياسة» والديماغوجية بكره شديد . لذلك نرى تقديس العفوية ينتصر في أول الأمر .

وتأتي الانتفاضات الكثيرة التي تولد في الأرياف ، فتؤكد حيثما تنفجر ان الأمة حاضرة في كل مكان ، وان حضورها حضور قومي كثيف . لقد أصبح كل مستعمر مسلح جزءا من هذه الأمة التي انبعثت فيها الحياة . ان هذه الانتفاضات تهدد النظام الاستعماري ، وتحمله على تعبئة قواه وبعثرتها . وتوشك في كل لحظة ان تخنق هذه القوى وأن تقطع أنفاسها . وعقيدتها عقيدة بسيطة : اجعلوا الأمة موجودة . وليس ثمة برنامج ولا خطب ولا قرارات ولا اتجاهات . المشكلة واضحة : يجب أن يرحل الأجانب . علينا أن نؤلف جبهة واحدة مشتركة ضد المستعمر المضطهد ، ويجب أن تعزز هذه الجبهة بالكفاح المسلح .

وما ظل القلق يهز الاستعمار ، فان القضية الوطنية تتقدم الى أمام ، وتصبح قضية كل فرد من أفراد الأمة . ان حركة التحرير أصبحت واضحة المعالم ، وهي تتناول مجموع البلاد منذ الآن .

والعفوية هي المسيطرة في هذه المرحلة والمبادهة مبادهة محلية . ففي كل منطقة من المناطق تنشأ حكومة مصغرة تستلم زمام الأمر . ونرى سلطة وطنية في كل مكان ، في الوديان والغابات ، في الأدغال والقرى . ان كل فرد يثبت بنضاله وجود الأمة ، ويعمل على أن يكفل لها النصر في المنطقة التي هو فيها . وهكذا نشهد قيام استراتيجية أساسها العمل المباشر الشامل الجذري . ان هدف كل جماعة من هذه الجماعات المسلحة التي تتشكل تشكلا عفويا انما هو تحرير المنطقة التي هي فيها . ذلك هو هدفها ، وذلك هو برنامجها . ما دامت الأمة موجودة في كل مكان ، فهي موجودة هنا أيضا . وتتحدد الأسلوب الخطة والاستراتيجية الحربية ، بل يستحيل فن السياسة الى فن حرب . فالمناضل السياسي انما هو المقاتل الحربي . والحرب والسياسة شيء واحد .

ان هذا الشعب المحروم الذي اعتاد أن يعيش محصورا في نطاق الصراعات والخصومات ، يعمل الآن في جو رائع من تطهر الأمة في المنطقة التي هو فيها . انه يشعر بنشوة جماعية ، فاذا الاسر المتعادية تقرر أن تمحو كل شيء ، ان تنسى كل شيء . والأحقاد الراسخة المدفونة تخرج الآن الى النور لتستأصل بمزيد من الاطمئنان الى أنها تستأصل . ان تحمل مسؤولية الأمة بأسرها يقوي الوعي . فوحدة الأمة انما هي وحدة الجماعة قبل كل شيء ، انها ازالة الخصومات القديمة وتصفية التردد . وفي الوقت نفسه يشمل التطهر ذلك العدد القليل من السكان الذين لطخوا شرف البلاد باعمالهم وبتواطؤهم مع المحتل الغاصب . اما الخونة والأشخاص الذين باعوا أنفسهم فانهم يحاكمون وينالون العقاب الذي يستحقونه . ان الشعب الذي يسير هذا السير المتواصل ويخوض غمار المعركة ، يسن الآن القوانين ، ويكتشف

نفسه ، ويريد أن يحكم نفسه بنفسه ، أن يكون سيد مصيره . ان الشعب يستيقظ كله من السبات الاستعماري ، ويعيش في جو رائع من الحماسة ، الجموع تتدفق في القرى تدفقا متصلا ، السخاء والكرم لا يقفان عند حد الشهامة والأَرْيَحِيَّة تنطلقان انطلاقا قويا ، الناس يريدون صادقين أن يموتوا في سبيل «القضية» التي يكافحون من أجلها . وهذا كله يشبه أن يكون دينا جديدا . ما من أحد من أهل البلاد يستطيع الآن أن لا يكترث بهذا الايقاع الجديد الذي يجرف الأمة جرفا . وتوفد الوفود سريعة الى القبائل المجاورة . هذه أول طريقة لربط الثورة بعضها ببعض . وتحمل هذه الوفود الى المناطق التي لم تتحرك بعد ، حركة وسرعة . وتتصالح القبائل التي كان يحمل بعضها لبعض عداء مستحكما معروفا ، تتصالح وهي تشعر بالفرح وتذوب الدموع ، متعهدا بعضها لبعض بالمساعدة والدعم . ان الناس ، في الكفاح المسلح ، يتساندون تساند الاخوة ، كتفا بكتف وذراعا في ذراع ، ويكتشفون العدو الحقيقي . وتتسع دائرة الامة ، وتشرع قبائل جديدة في اقامة كائن ، داخلة بذلك في المعركة . وتعد كل قريةٌ نفسها معسكرا من معسكرات القتال . وينعكس التضامن بين القبائل وبين القرى ، ضربات يكيلونها للعدو في كثرة ما تنفك تزداد . ويشير قيام كل فرقة جديدة من فرق المقاتلين ، وانطلاق كل معركة جديدة من المعارك التي تشب هنا وهناك ، اذ أن كل واحد يضرب العدو ، الى أن كل واحد يجابه العدو .

ويظهر هذا التضامن بمزيد من الوضوح في المرحلة الثانية ، المرحلة التي يبدأ فيها العدو بشن هجومه . ان القوى الاستعمارية تجمع صفوفها بعد حدوث الانفجار ، وتعيد تنظيم نفسها ، وتبدأ باستعمال طرائق في القتال تناسب طبيعة الثورة التي قامت . وهذا الهجوم الذي

تشنه القوى الاستعمارية يبدل جو الانطلاق للفرح الذي ساد المرحلة الاولى . ان العدو يشن هجومه مركزا نقاط معينة تتجمع فيها قوى كبيرة . وسرعان ما تصبح قوى العدو أكبر من القوة الوطنية الضاربة في نقطة معينة . ومما يفاقم الأمر أن القوة الوطنية المحلية تميل في أول الأمر الى خوض المعركة وجها لوجه ، فالتفاؤل الذي سيطر على المشاعر في المرحلة الأولى يجعل القوة الوطنية متهورة ، ويفقدها شيئا من الشعور بالواقع . ان الجماعة التي رسخ في اعتقادها ان منطقتها هي الأمة بأسرها ، ترفض أن ترخي الحبل ، ولا تطيق أن تقاتل متراجعة . وبذلك تسقط ضحايا كثيرة ، ويبدأ الشك بالتسرب الى النفوس . ان الفرقة المحلية تجابه الهجوم المحلي مجابهتها لمعركة حاسمة يتوقف عليها مصير الكفاح كله . انها تتصرف تصرف من يحسب أن مصير البلاد كله يتقرر هنا .

ولكن من الواضح أن هذا الاندفاع الشديد الذي يريد أن يصفي حسابه مع النظام الاستعماري فورا ، لابد أن يتنكر لنفسه من حيث هو مذهب يعتنق مبدأ «الفورية» . وتجيء الواقعية اليومية العملية فتحل محل أندفاعات الأمس . ان دروس الوقائع ، وضحايا التهور ، تحمل على اعادة النظر في الأمر ، وتفسير الأحداث تفسيرا جديدا شاملا . ان غريزة البقاء وحدها تحمل على اتخاذ موقف اكثر مرونة وحركة . فهذا التبدل في أسلوب القتال قد تميزت به الأشهر الاولى من حرب تحرير الشعب الأنجولي . انكم تتذكرون أن الفلاحين الأنجوليين قد هجموا في اليوم الخامس عشرة من شهر آدار «مارس» 1961 على المواقع البرتغالية جماعات مؤلفة من الفي شخص أو ثلاثة آلاف شخص . فالرجال والنساء والأطفال سواء أكانوا مسلحين أم كانوا غير مسلحين ، أخذوا يزحفون كتلا متراصة وموجات متعاقبة نحو المناطق

التي يسيطر عليها المستوطن البرتغالي والجندي البرتغالي ، ويرفرف عليها علم البرتغال ، فحاصروا قرى ومطارات بل هاجموا قرى ومطارات ، ولكنكم تعرفون أن رشاشات الاستعمار حصدت ألوفا من الأنجوليين وما هو الا وقت قصير حتى أدرك قادة الثورة الأنجولية أن عليهم ان يعمدوا الى طريقة أخرى اذا هم أرادوا أن يحرروا بلادهم حقا ، لذلك رأينا الزعيم الأنجولي هلدان روبرتو يعيد تنظيم «الجيش الوطني الأنجولي» منذ بضعة أشهر ، مستفيدا من تجارب مختلف حروب التحرير ، مستعملا أساليب حرب العصابات .

ذلك أن القتال ، في حرب العصابات ، لا يتم في المكان الذي يكون فيه المقاتل ، بل في المكان الذي يذهب اليه . ان كل مقاتل في حرب العصابات أنما ينقل الوطن الى حيث تمضي قدماه العاريتان . ان جيش التحرير الوطني ليس هو الجيش الذي يعرض نفسه لقوى العدو مرة واحدة ، بل هو الجيش الذي يمضي من قرية الى قرية ، يختبىء في الغابات ، وتمتلىء قلوب جنوده فرحا حين يرون في الوادي سحابة الغبار التي تثيرها أقدام العدو . القبائل في حرب التحرير تتحرك ، وجماعات المقاتلين تنتقل ، وتغير مواقعها في غير انقطاع . رجال الشمال يتحركون نحو الغرب ، ورجال السهل يتجهون الى الجبال . وما من موقع استراتيجي يفضل على غيره . ان العدو يتخيل أنه يطاردنا ويلاحقنا ، ولكننا نتدبر الأمور دائما بحيث نكون وراءه ، نتعقبه ونهوي عليه في اللحظة التي ظن فيها اننا قد فنينا . نحن الذين نطارده الآن ونلاحقه . ونشعر أنه ، مع معداته وأسلحته ،يغوص في الوحل . ثم يغوص ويغوص . ونغني نحن ، ثم نغني .

وفي أثناء ذلك يدرك قادة الثورة أن عليهم أن ينوروا جميع المقاتلين ، أن يعلموهم ، أن يثقفوهم ، أن يبثوا فيهم عقيدة ، يدرك قادة الثورة أن

عليهم أن يخلقوا جيشا ، أن يمركزوا السلطة . ان علينا أن نصحح التبعثر والتشتت ، ان علينا ان نتجاوز تفتت القوى المقاتلة . وعندئذ نرى هؤلاء القادة الذين فروا من جو السياسة العقيمة الذي يسود المدن ، يعودون الى السياسة لا كأسلوب تخدير أو تضليل ، بل كوسيلة وحيدة الى تقوية الكفاح ، والى اعداد الشعب لقيادة البلاد قيادة واعية . ان قادة الثورة يشعرون بأن الانتفاضات ، ولو كانت رائعة ، في حاجة الى انكار المعركة من حيث هي انتفاضة ، ويحيلونها بذلك حربا ثورية . انهم يدركون ان انتصار الكفاح يقتضي أن تكون الأهداف بينه جلية ، وأن تكون أساليب العمل واضحة ، ويقتضي خاصة أن تعرف الجماهير ما في جهودها من قوة دافعة مثمرة . ان الجماهير تصمد ثلاثة أيام وربما ثلاثة شهور باستعمال الحقد المتراكم في صدورها ، ولكنك لا تستطيع ان تفوز بالنصر في حرب تحريرية ، وأن تحطم أداة العدو الرهيبة ، وأن تبد الناس ، اذا انت أغفلت رفع مستوى الوعي لدى المقاتل . ليس يكفيك تأجج الحماسة ، ولا عنف الشجاعة ، ولا جمال الشعارات .

ثم ان تطور حرب التحرير يتولى بنفسه تعزيز هذه القناعة لدى قادة الثورة ، ذلك ان العدو يغير خطته . فهو يضيف الى سياسة القمع الوحشية في الظروف المؤاتية سياسة أخرى : يتظاهر بانفراج الأزمة ، ويقوم بمناورات لتفريق الصفوف ،ويعمد الى «الأساليب السيكولوجية» لتضليل الناس وهو يحاول هنا وهناك أن يبعث المنازعات القبلية من مرقدها ، حتى لينجح في ذلك أحيانا بدفع بعض الأفراد الى ارتكاب أعمال استفزازية ، مستعملا نوعين من الناس . فأما النوع الأول فعملاؤه التقليديون من زعماء ومشايخ وسحره ومشعوذين . ونحن نعلم ان جماهير الفلاحين التي عاشت زمنا طويلا في جمود رتيب ، تظل

تقدس الزعماء الدينيين ووجهاء الأسر العريقة ، فالقبيلة كلها تسير ، كرجل واحد ، في الطريق التي يعينها الزعيم التقليدي ، وفي وسع الاستعمار ان يكفل لنفسه مساعدة هؤلاء الرجال الموثوقين بما يغدقه عليهم من ذهب . وأما النوع الثاني فيصطاده الاستعمار من بين صفوف الطبقة الدنيا من الفعلة الاشقياء . ان بين صفوف هذه الطبقة عددا ضخما من العاطلين عن العمل . لذلك كان ينبغي لكل حركة تحرير وطني ان تنتبه أشد الانتباه الى هذه الطبقة . ورجال هذه الطبقة يلبون دائما نداء الثورة ، ولكن اذا ظنت الثورة أن في وسعها ان تستغني عنهم ، فان جموعهم الجائعة المنبوذة ما تلبث أن تخوض غمار القتال ، وأن تشارك في الصراع ، ولكنها تقاتل عندئذ في صفوف العدو . ان العدو الذي لايدع فرصة من الفرص لجعل الزنوج يأكل بعضهم بعضا ، سيستعمل الآن جهل أفراد هذه الطبقة البائسة وفقدان الوعي بين صفوفهم ، فاذا لم تبادر الثورة فورا الى تنظيم هذا الاحتياطي المهيأ للعمل ، ضمنهم الاستعمار الى جنوده المأجورين . ان هذه الطبقة هي التي أمدت الاستعمار في الجزائر بأتباع مصالي الحاج . وهذه الطبقة هي التي أمدت الاستعمار في انجولا بكشافي الطرق الذين يتقدمون اليوم القوات المسلحة البرتغالية . وفي الكونغو نجد أفراد هذه الطبقة في المظاهرات الاقليمية بكاساي وكاتنجا ، كما وجدنا أعداء الكونغو يستعملونهم بمدينة ليوبولدفيل في تنظيم تجماعات «عفوية» تعادي لومومبا .

أن العدو يحلل قوى الثورة ، ويعمق دراسته للخصم الذي هو الشعب المستعمر ، ويدرك ما هنالك من فراغ ايديولوجي ، ويدرك ما هنالك من فقدان الاستقرار المعنوي في صفوف بعض طبقات السكان ، ويكتشف ان هنالك ، في مقابل الطليعة الثورية القوية

المتراصة ، كتلة من الرجال يمكن دائما أن يحملها بؤسها الدائم وذلها وفقدان شعورها بالمسؤولية على النكوص . لذلك يستعمل العدو هذه الكتلة من الناس دافعا لها من أجل ذلك ثمنا كبيرا . ان الدولارات الأمريكية والفرنكات الفرنسية تتقاطر غزيرة على الكونغو ، وفي مدغشقر تدفع للخونة أجور طائلة ، وفي الجزائر يضم الى القوى الفرنسية جنود مرتزقة من الجزائريين . وخلاصة القول ان قادة الثورة يشعرون أن العدو يحاول أن يخرب الأمة . ان قبائل برمتها تنقلب على اعقابها ، ويحملها العدو أسلحة حديثة ، ويوجهها الى غزو القبائل المعادية التي يعينها لها . وهكذا فان الاجماع الذي نلاحظه في الساعات الاولى من الثورة خصبا رائعا عظيما ما يلبث ان يتعطل . وتتفتت الوحدة القومية ، وتصل الثورة الى متعطف حاسم . عندئذ تصبح التوعية السياسية للجماهير ضرورة تاريخية .

ان ذلك الاندفاع الذي كان يريد ان ينقل الشعب المستعمر الى مستوى السيادة المطلقة دفعة واحدة ، وذلك الاعتقاد الذي كان يخامر النفوس بأن في امكاننا أن نجر جميع أجزاء الأمة الى حركة واحدة تحت ضوء واحد ، وتلك القوة التي كان يقوم عليها هذا الأمل ، ان ذلك كله ينكشف الآن بالتجربة ضعفا كبيرا . ان المستعمر ، ما ظل يتخيل ان في امكانه ان ينتقل رأسا ، بلا مراحل ، من حالة المستعمر الى حالة مواطن يملك السيادة ، وما ظل يستسلم لخداع فورية عضلاته ، لا يحقق تقدما حقيقيا في طريق المعرفة ، بل يظل وعيه بسيطا ساذجا . ان المستعمر ينخرط في الكفاح في حرارة كما رأينا ، وخاصة حين يكون هذا الكفاح مسلحا . والفلاحون يندفعون في الثورة بحماسة عظيمة ، خاصة وأنهم لم يكفوا لحظة عن الثبات على طراز من الحياة يعادي الاستعمار بطبيعته . ان الفلاحين قد حافظوا دائما على

ذاتيتهم تجاه الاستعمار بعد كثير من المخاتلة والمكر ، حتى انهم يبلغون من ذلك الى الاعتقاد بان الاستعمار لم ينتصر عليهم يوما . أن أنفة الفلاح ، واحجامه عن النزول الى المدن ، واشمئزازه من مقاربة العالم الذي بناه الأجنبي ، وتراجعه الدائم كلما دنا منه ممثلو الحكم الاستعماري ، ان ذلك كله كان يعني دائما أنه يقابل الانقسام الذي أوجده المستعمر بانقسام من عنده .

لاشك في أن التعصب العرقي الذي يقابل به المستعمر تعصب المستعمر ، وأن عزم المستعمر على الدفاع عن جلده جوابا على اضطهاد المستعمر ، لاشك في ان ذلك يهيب بالمستعمر اهابة كافية الى الانخراط في الكفاح . ولكن المرء لا يصمد في حرب طويلة ،ولا يتحمل عذابا كبيرا ، ولا يطيق أن يرى فناء أسرته كلها ، لمجرد أنه يريد أن ينتصر حقده وان ينتصر تعصبه العرقي . ان التعصب العرقي ، والكره ، والحقد ، و «الرغبة المشروعة في الانتقام» ، ان ذلك كله لا يمكن أن يغذي حربا تحريرية . ان تلك البروق التي تومض في نفسي فتدفع جسمي في طرق هائجة ، وتلقيني الى تهويل تشبه ان تكون هلوسات مرضى ، فاذا تصور وجه العدو يجعلني في حالة دوار ، واذا دمي يحدوني ان أسفح دمه ، واذا موتي البطيء بالعطالة يحضني على أن أحمل اليه الموت ، ان تلك البروق وهذه الحماسة الكبيرة التي تشب في النفس في الساعات الأولى ، ما تلبث أن تنحل اذا هي أرادت ان تتغذى من ذاتها . صحيح ان الجرائم المتصلة التي ترتكبها القوات الاستعمارية ما تنفك تدخل العناصر الانفعالية في الكفاح ، وما تفتأ تمد المناضل بدواع جديدة الى الحقد ، وما تفتأ تزوده بأسباب جديدة تحفزه على أن يبحث عن «المستعمر الذي يجب عليه أن يذبحه» . ولكن قادة الثورة يدركون يوما بعد يوم أن الكره لايمكن ان

يكون برنامجا . انك لا تستطيع أن تركن الى الخصم الذي يعرف دائما كيف يتخلص من المأزق ، وأن تطمئن الى أنه سيضاعف جرائمه ، فيعمق «الهوة» ويدفع مجموع الشعب دفعا الى أحضان الثورة ، وقد رأينا ان الخصم يحاول على كل حال أن يكتسب عطف بعض فئات السكان ، وبعض المناطق ، وبعض الزعماء . حتى أنه يصدر الى المستوطنين والى قوى الشرطة تعليمات بهذا الصدد ، فترى سلوك هؤلاء يتلطف ويصطنع شيئا من «الروح الانسانية» ، حتى لقد يأخذون يخاطبون المستعمرين بقولهم : «سيدي وسيدتي» وما ينفكون يضاعفون التأدب والتهذب ، الى أن يشعر المستعمر حقا أن ثمة تبدلا قد حدث .

والمستعمر الذي لم يحمل السلاح لمجرد أنه كاد يموت جوعا ، وأنه كان يرى مجتمعه بسبيل الانحلال وانما حمل السلاح أيضا لأن المستوطن كان ينظر اليه نظرته الى دابة ، ويعامله معاملة دابة . لابد أن يتأثر بهذه التدابير الجديدة . ان هذه الاكتشافت السيكولوجية تضعف الكره . والأخصائيون في علم النفس وعلم الاجتماع ينيرون الطريق للمناورات الاستعمارية ، ويضاعفون دراساتهم «للعقد» : عقد الحرمان ، عقد القتال ، الخ .. وهاهم الاستعماريون يرفعون منزلة السكان الأصليين ، محاولين أن يفلوا سلاحهم بعلم النفس ، وببضع قطع من النقود أيضا بطبيعة الحال . هذه التدابير التافهة ، هذه الاصلاحات الظاهرية ، التي لا تبذل جزافا مع ذلك ، وانما تبذل بمقادير معلومة ، تتوصل الى تحقيق بعض النجاح . ذلك أن جوع المستعمر ، جوعه الى من يعامله معاملة انسان ، ولو بأرخص الأثمان ، قد بلغ من القوة أن هذه الصداقات يمكن ان تؤثر في نفسه . ان شعوره قد بلغ من الضعف والكثافة أنه يهتز الأيسر بارقة . ان ظمأه الكبير الى الضوء في أول الآمر

مهدد في كل لحظة بأن يغر به وأن يضلل . فاذا المطالب العنيفة الشاملة التي كانت تشق السماء شقا تنطوي الآن على نفسها وتتواضع . ان الذئب المفترس الذي كان يريد أن يلتهم كل شيء ، والاعصار العاصف الذي كان يريد أن يحقق ثورة حقيقية ، مهددان بأن تتغير ملامحهما فما يعرفان ، اذا استمر الكفاح ، وانه ليستمر . ان المستعمر مهدد في كل لحظة بأن يسقطوا في يده بأي تنازل .

ويكشف قادة الثورة فقدان الثبات هذا لدى المستعمر ، يكتشفونه في رعب . ويحارون في أول الأمر ، لكنهم ما يلبثون أن يفهموا من هذه الزاوية الجديدة أن عليهم أن يشرحوا الأمور ، وأن يحملوا الى النفوس وعيا يحررها من الانزلاق . ان الحرب تستمر ، والعدو ينظم صفوفه ، ويقوي نفسه ، ويدرك استراتيجية المستعمر . وكفاح التحرير الوطني ليس اجتياز مسافة بوثبة واحدة . ان الملحمة تتتابع فصولها كل يوم ، والآلام التي يقاسيها المقاتلون أقوى من جميع الآلام التي قاساها الشعب في عهد الاستعمار «يظهر ان المستوطنين قد أصبحوا في المدن غير ما كانوا بالأمس . لقد تبدلوا . لقد أصبح جماعتنا أكثر سعادة» . هذا هو الخطر . ان الأيام تتلو الأيام ، وما ينبغي للمستعمر المنخرط في الكفاح ، ولا للشعب الذي يجب أن يستمر في مساندة الثورة ، أن يتوقفا . يجب أن لا يتوهما أن الغاية قد تحققت ، وأن الهدف قد تم الوصول اليه . يجب أن تشرح لهم الأهداف الحقيقية التي يسعى الكفاح الى تحقيقها ، ويجب أن لا يتخيلوا أن بلوغ هذه الأهداف أمر مستحيل . نعم ، يجب أن تشرح لهم الأمور ، يجب أن يعرف الشعب الى أين هو ماض . وكيف ينبغي له أن يمضي الى حيث هو ماض . ليست الحرب معركة كبيرة واحدة ، وانما هي سلسلة من معارك محلية ليست واحدة منها فاصلة في حقيقة الأمر .

يجب اذن أن ندخر قوانا ، أن لا نلقيها في الميزان دفعة واحدة . ان احتياطات الاستعمار أغنى وأكبر من احتياطات المستعمر . والحرب مستمرة . والعدو يدافع عن نفسه . وموعد التصفية الكبرى ليس اليوم ولا غدا . لقد بدأت هذه التصفية منذ أول يوم في الواقع ، ولن تنتهي يوم لا يبقى ثمة خصم ، بل يوم يدرك هذا الخصم لأسباب كثيرة أن مصلحته نفسها تقتضي أن ينهي هذا الصراع ، وأن يعترف بسيادة الشعب المستعمر ، يجب أن لا تبقى أهداف الكفاح غامضة غموضها في الأيام الأولى . فان لم ننتبه الى هذا تعرضنا في كل لحظة لأن نرى الشعب يتساءل عند اي تنازل يتنازله العدو : فيم نطيل هذه الحرب ؟ ذلك أن الناس قد بلغوا من تعودهم على احتقار المستعمر لهم . وعلى اصراره على الاستمرار في اضطهادهم مهما كلف الأمر ، انهم ما ان يلاحظوا بادرة طيبة منه ، وما ان يظهر لهم شيئا من حسن الاستعداد ، حتى يحيوا ذلك مدهوشين وحتى يباركوه فرحين . ان المستعمر يميل عندئذ الى أن يغني طربا . فيجب اذن ان نضاعف الشرح والتوضيح ، ان نفهم المناضل ان تنازلات الخصم ما ينبغي ان تضله عن الحقيقة ، ان تعمية ، فهذه التنازلات ليست الا تنازلات ، وهي لا تمس جوهر الأمر ، حتى ليمكن ان يقال ، من وجهة نظر المستعمر ، ان كل تنازل لا يمس جوهر ما لم يتناول النظام الاستعماري في جوهره .

ان الأشكال الوحشية التي يكتسبها وجود المحتل قد تزول زوالا تاما . والواقع أن زوالها هذا لا يعدو أن يكون تخفيضا للنفقات التي ينفقها المحتل ، ولا يعدو أن يكون اجراء ايجابيا من أجل الحيلولة دون بعثرة قواه . ولكن الشعب المستعمر يدفع ثمن ذلك باهظا ، يدفع ثمنه مزيدا من تحكم المستعمر بمصير البلاد ، يجب علينا ان نذكر للشعب

أمثلة تاريخية تساعده على الاقتناع بأن مهزلة التنازل هذه وبأن تطبيق مبدأ التنازل هذا ، قد أديا الى سيطرة المستعمر سيطرة ان كانت أخفى فهي أكمل وأشمل يجب أن يعرف الشعب وان يعرف مجموع المناضلين ذلك القانون التاريخي ، وهو أن هناك تنازلات ليست في حقيقتها الا أغلالا . فاذا أغفلنا هذا الشرح وهذا التوضيح رأينا قادة بعض الاحزاب السياسية تتورط بسهولة في مساومات مع المستعمر . يجب ان يقتنع المستعمر بأن الاستعمار لا يهب له شيئا ، وأن ما يحصل عليه المستعمر بكفاحه السياسي أو كفاحه المسلح ليس ثمرة حسن النية أو طيب القلب لدى المستعمر ، وانما هو افصاح عن عجز المستعمر عن تأجيل التنازلات . ويجب أن يعلم المستعمر أيضا أن المستعمر ليس هو الذي يقدم هذه التنازلات ، وانما المستعمر هو الذي يقدمها . فحين تقرر الحكومة البريطانية أن تمنح السكان الافريقيين عددا من المقاعد الاضافية في «مجلس كينيا» فما من أحد يستطيع ان يدعي أن الحكومات البريطانية قد قامت بتنازلات ، اللهم الا أن يكون قليل الحياء أو عديم الوعي . ان الشعب الكيني هو الذي تنازل هنا عن حقوقه . يجب على الشعوب المستعمرة ، يجب على الشعوب التي كانت محرومة مجرددة من حقوقها ، أن تتحرر من هذه الحالة النفسية التي لازمتها الى الآن . لقد يمكن عند الاقتضاء أن يقبل المستعمر حلا وسطا ، ولكن ما ينبغي له ابدا أن يقبل مساومة .

هذه الشروح كلها ، وهذه التوضيحات المتصلة المتعاقبة التي تحمل الى النفوس الوعي والنور ، وهذا المسير في طريق معرفة تاريخ المجتمعات ، هذا كله لا يمكن أن يتم الا في اطار تنظيم يتناول الشعب . وهذا التنظيم انما يكون باستعمال العناصر الثورية التي وفدت من المدن في أول الثورة ، العناصر التي التحقت بالأرياف أثناء تطور

الكفاح . ولكن الفلاحين الذين ينضجون معارفهم من اتصالهم بالتجربة ، يبرهنون أنهم قادرين هم ايضا على قيادات الكفاح الشعبي ، فالمؤسسات التقليدية تقوى وتعمق ، حتى لقد تتبدل تبدلا حقيقيا : مجالس «الجماعة» التي تفض الخلافات وتفصل في المنازعات ، ومجالس القرى ، تستحيل الى مجالس ثورية ولجان سياسية حربية ، ويظهر في كل جماعة من جماعات المقاتلين ، وفي كل قرية ، رجال يتولون التوجيه السياسي ، ويأخذ هؤلاء الرجال بتنوير الشعب الذي بدأ يشعر من عزلته بحيرة ، ولا يحجم هؤلاء الرجال عن معالجة المشكلات التي تؤدي السكوت عنها الى مزيد من الحيرة والبلبلة . من ذلك مثلا ان المناضل الذي حمل السلاح يخنقه ان يرى كثيرا من أبناء وطنه ما يزالون يتابعون حياتهم في المدن كأنهم غرباء عما يحدث في الجبال ، كأنهم يجهلون هذه الحركة الجوهرية التي انطلقت . أن صمت المدن ، واستمرار الحياة فيها على منوالها المألوف ، يولد في نفس الفلاح شعورا مرا بأن قسما بكامله من الأمة يكتفي بمشاهدة المعركة ولا يزيد على عد الضربات . وهذا يثير الحنق والغيظ في نفوس الفلاحين ، ويعزز ميلهم الى احتقار سكان المدن ، والى الحكم عليهم بالسوء جميعا . فعلى الموجه السياسي في هذه الحالة أن يجعل الفلاحين قادرين على تمييز الأمور تمييزا أدق ، فيفهمهم أن هناك أجزاء من الشعب لها مصالح خاصة لا تتفق اتفاقا كاملا دائما مع المصلحة الوطنية ، ويدرك الشعب عندئذ أن الأستقلال الوطني يبرز وقائع كثيرة هي في بعض الأحيان متباعدة بل ومتعارضة . والشرح في هذه اللظة بعينها من لحظات الكفاح ، أمر حاسم ، لأنه ينقل الشعب من أفق الوطنية العامة الغامضة الى أفق الوعي الاجتماعي والاقتصادي . ان الشعب الذي تبنى في بداية الكفاح تلك الثنائية الأولى التي أوجدها

المستوطن الأجنبي : البيض والسود ، العرب والأروام ، يدرك الآن في أثناء النضال أنه يتفق لسود أن يكونوا اكثر بياضا من البيض ، وان هناك فئات من السكان لا يحملها امكان ارتفاع راية وطنية وامكان قيام أمة مستقلة على التنازل عن امتيازاتها وعن مصالحها . ويدرك الشعب أن هناك أناسا من بني وطنه لا يتمسكون بمصالحهم فحسب ، بل ينتهزون كذلك فرصة الحرب لتعزيز وضعهم المالي وقوتهم الناشئة . ان هناك أناسا من السكان الأصليين يتاجرون ويحققون أرباحا طائلة من قيام هذه الحرب ، على حساب الشعب الذي يضحي بنفسه دائما ، ويروي بدمه تراب الوطن . ان المناضل الذي يجابه بوسائله البدائية آلة الحرب الاستعمارية يكتشف أنه بقضائه على الاضطهاد الاستعماري يساهم في خلق جهاز استغلالي آخر . وهو اكتشاف مؤلم شاق مثير . لقد كان الأمر بسيطا في البداية : كان هناك في نظره أشرار من جهة ، وطيبون من جهة أخرى . أما الآن فقد حل محل الوضوح الخيالي اللاواقعي الأول ظلام يجزيء الشعور . ان الشعب يكتشف أن الاستغلال الظالم يمكن أن يكون زنجيا أو عربيا . وهو يندد عندئذ بالخيانة ، ولكن يجب أن نصحح هذا التنديد . فالخيانة ههنا ليست وطنية بل اجتماعية ، ينبغي لنا ان نعلم الشعب أن يندد باللصوص . والشعب في مسيره الشاق الى المعرفة العقلية ، يترك أضا تلك النظرة التبسيطية التي كان يتميز بها ادراكه للمتسلط . ان النوع يتجزأ الآن أمام بصره . انه يلاحظ من حوله مستوطنين لا يشاركون في تلك الهستريا الاجرامية ، ويختلفون عن سائر أبناء جلدتهم . ان بين هؤلاء المستوطنين الذين كان يعدهم كتلة واحدة تمثل التسلط الأجنبي بغير تمييز أناسا يستنكرون الحرب الاستعمارية ، بل أعجب من ذلك أن أفرادا من هذا النوع ينتقلون الى المعسكر الآخر ، ويجعلون أنفسهم

زنوجا أو عربا ويرتضون تحمل الآلام والتعذيب والموت .

هذه الأمثلة تضعف الحقد العام الذي كان المستعمر يشعر به نحو جميع الأجانب . حتى لقد يحيط ذلك العدد القليل من الأشخاص بعاطفة حارة ، ويميل بنوع من المزايدة العاطفية ، الى ان يمحضهم ثقة مطلقة . ان في عاصمة البلاد المستعمرة ، التي ينظر اليها المستعمر نظرته الى جلاد لا يرحم ، أصواتا كثيرة ، شهيرة في بعض الأحيان ، تستنكر بغير تحفظ سياسة الحرب التي تتبعها الحكومة الاستعمارية ، وينصحون هذه الحكومة بأن تثوب الى رشدها ، وأن تحسب أخيرا حساب الارادة القومية للشعب المستعمر . بل ان جنودا من جنود الاستعمار يفرون من بين صفوفه ، كما أن جنودا آخرين يرفضون صراحة ان يقاتلوا ضد حرية الشعب ، فيذهبون الى السجون ، ويتحملون العذاب باسم حق هذا الشعب في الاستقلال وفي ادارة شؤونه بنفسه . .

وعندئذ لا يكون المستوطن رجلا يجب ذبحه ، وكفى افراد الكتلة الاستعمارية يظهرون أقرب الى الكفاح الوطني ، أقرب كثيرا الى الكفاح الوطني من بعض أبناء الأمة . وبذلك يصبح التفريق العنصري والتعصب العنصري متجاوزا في الاتجاهين . فلا كل زنجي وكل مسلم يستحق شهادة صدق ، ولا كل مستوطن يستقبل بتناول البندقية أو السيف . هكذا الوعي يطل بكثير من الجهد والمشقة على حقائق جزئية محدودة غير ثابتة . وذلك كله صعب كما تقدرون . وأنما يسهل مهمة ترشيد الشعب ان يكون التنظيم قويا صارما وأن يكون المستوى العقائدي لدى قادة هذا التنظيم عاليا . وعلو المستوى العقائدي انما يتحقق ويتعزز خلال اتساع النضال ومناورات الخصم وخلال الانتصارات والهزائم . والقيادة تكشف عن قوتها وسلطتها بفضح

الأخطاء وبالاستفادة من كل تقهقر في الوعي لاستخلاص الدرس ولتوفير شروط جديدة من أجل التقدم . فهي تستثمر كل نكوص محلي من أجل اعادة النظر في القضية على مستوى جميع القرى وجميع الشبكات . ان الثورة تبرهن لنفسها على أنها عقلية ، وتعبر عن نضجها كلما استفادت من حالة من الحالات في تعميق وعي الشعب . وقيادة الثورة ، ولو كان ما يحيط بها يوهم أحيانا بأن الأهتمام بالفروق الطفيفة خطر ، وبأنه يحدث صدوعا في كتلة الشعب ، تظل ثابتة على مبادىء الكفاح الوطني والكفاح العام الذي يخوضه الانسان لتحقيق تحرره . صحيح أن هناك وحشية تحتقر الفروق الطفيفة والحالات الفردية ، وحشية ثورية حقا ، غير ان هناك وحشية أخرى تشبهها شبها كبيرا وليست من الروح الثورية في شيء ، بل هي منافية للثورية ، مغامرة فوضوية . فاذا لم تحارب هذه الوحشية الصرفة الكلية فورا ، أدت حتما الى أخفاق الحركة في غضون أسابيع .

ان المناضل الوطني الذي هجر المدينة بعد أن آلته المناورات الديماغوجية المتخاذلة التي يقوم بها المسؤولون في الحزب ، بعد أن خيبت ظنه «السياسة» ، اكتشف أثناء النضال العملي المحسوس سياسة جديدة لا تشبه السياسة القديمة بوجه من وجوهها ، انها سياسة أناس مسؤولين وقادة داخلين في التاريخ يتولون بعضلاتهم وأدمغتهم توحيد كفاح التحرير . ان هذا الواقع الجديد الذي سيعرفه المستعمر الآن لا يوجد الا بالعمل النضالي . فالنضال الذي ينسف الواقع القديم الاستعماري ، يكشف عن جوانب كانت مجهولة ويفجر معاني جديدة ، ويضع الأصبع على التناقضات التي كان يخبئها ذلك الواقع . ان الشعب الذي يكافح ، الشعب الذي يدرك بالنضال هذا الواقع الجديد ويعرفه ، يسير حين يتحرر من الاستعمار متنبئا بجميع

محاولات التضليل ، متهيئا لجميع الأكاذيب التي تلفق باسم الوطنية . والعنف وحده ، العنف الذي يمارسه الشعب ، العنف المنظم الواعي الذي ينيره قادة الثورة ، هو الذي يتيح للجماهير ان تحلل الواقع الاجتماعي وأن تملك مفتاحه . وبدون هذا النضال ، بدون هذه المعرفة النابعة من النضال ، لا يكون ثمة الا تهريج : قليل من التبديل ، بضعة اصلاحات في القمة ، رايه وطنية ، أما تحت ، فكتلة كبيرة من الناس ما تزال تعيش في «القرون الوسطى» ، وما تنفك تجري حياتها على وتيرة ثابتة .

مزالق الشعور القومي

أما أن المعركة ضد الاستعمار لا تجري منذ البداية على مستوى قومي ، فذلك ما بدلنا عليه التاريخ . ان المستعمر يظل زمنا طويلا يوجه جهوده نحو ازالة بعض المظالم : العمل الاكراهي ، العقوبات الجسمية ، تفاوت الأجور ، تقييد الحقوق السياسية ، الخ . وهذا النضال من أجل الديمقراطية ضد اضطهاد الانسان ما يلبث أن يخرج شيئا فشيئا من هذا الابهام الليبرالى الجديد ، وما يلبث أن يطل على المطامح القومية ولو بكثير من المشقة في بعض الأحيان . ولكن عدم تأهب الصفوة ، وفقدان الاتصال العضوي بين هذه الصفوة وبين الجماهير ، وكسل هذه الصفوة ، بل جبنها في اللحظة الحاسمة من لحظات الكفاح ، كل ذلك يؤدي الى مزالق فاجعة .

ان الشعور القومي ما لم يكن تجسيدا منسجما لأعمق مطامح الشعب بمجموعه ، وما لم يكن ثمرة مباشرة حية نابضة للتعبئة الشعبية ، فلن يكون في أحسن الأحوال الا شكلا لا مضمون له ، سريع الزوال قليل الدقة والوضوح . والصدوع التي نجدها فيه عندئذ هي السبب في أن البلاد الناشئة المستقلة ، كثيرا ما تنتقل بسهولة من حالة الأمة الى حالة القبيلة ، ومن مستوى الدولة الى مستوى العشيرة .

ان هذه الشقوق هي السبب فيما تعانيه الاندفاعة القومية والوحدة القومية من انتكاسات مؤلمة مؤذية . وسنرى الآن أن مواطن الضعف هذه ، وما تشتمل عليه من أخطار فادحة ، انما هي نتيجة تاريخية لعجز البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة عن ترشيد النضال الشعبي ، أي عن استخلاص معانيه ودوافعه .

ان الضعف الكلاسيكي المعروف الذي يعانيه الوعي القومي في البلدان المتخلفة لا يرجع الى أن النظام الاستعماري قد أفسد الانسان المستعمر ، وانما يرجع أيضا الى كسل البورجوازية الوطنية ، والى فقرها ، والى أن فكرها قد تكون تكونا كوزموبوليتيا في قراراته .

ان البورجوازية التي تستلم مقاليد السلطة في نهاية العهد الاستعماري هي بورجوازية متخلفة . قوتها الاقتصادية تكاد تكون صفرا ، أو هي على الأقل لا تقاس ابدا بالقوة الاقتصادية التي تملكها بورجوازية البلاد المستعمرة التي تريد هذه البورجوازية الوطنية ان تحل محلها . لقد ظنت البورجوازية الوطنية لنرجسيتها وغرورها أن في وسعها أن تحل محل بورجوازية الاستعمار وأن تكون خيرا منها . ولكن الاستقلال ما يلبث أن يضعها في مآزق حرجة ، فاذا هي تلجأ الى وسائل تجلب الكوارث ، اذ تتجه بنداءات خائفة الى الدولة التي كانت تستعمر بلادها . ذلك أن العناصر الجامعية والعناصر التجارية التي هي أكثر أبناء الدولة الجديدة وعيا تتميز بأنها قليلة العدد ، بأنها متمركزة في العاصمة ، وبأن أنواع نشاطها لا تتعدى التجارة والاستثمارات الزراعية والمهن الحرة ، فليس بين أفراد هذه البورجوازية الوطنية أناس من رجال الصناعة أو رجال المال . ان البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة ليست متجهة نحو الانتاج ، والابتكار ، والبناء ، والعمل ، وانما هي تنفق نشاطها كله في أعمال من نوع الوساطة .

ان نفسية البورجوازية الوطنية هي نفسية رجال أعمال ، لا رواد صناعة . ويجب ان نعترف أن جشع المستوطنين ، ونظام الحجر الذي أوجده الاستعمار لم يدعا للبورجوازية حرية الاختيار كثيرا .

انه ليستحيل على بورجوازية أن تجمع رأسمالا في ظل النظام الاستعماري . والرسالة التاريخية التي يبدو أن البورجوازية الوطنية الصادقة في البلد المتخلفه قد خلقت للنهوض بها هي أن تنكر نفسها كبورجوازية ، هي أن تنكر نفسها كأداة لرأس المال ، وأن تضع نفسها وضعا كاملا في خدمة رأس المال الثوري الذي هو الشعب .

ان على البورجوازية الوطنية الصادقة في البلدان المتخلفة أن تفرض على نفسها خيانة المهمة التي كانت ميسرة لها ، أن تدخل مدرسة الشعب ، أي ان تضع تحت تصرف الشعب الرأسمال الثقافي والتكنيكي الذي استطاعت ان تنتزعه حين مرورها بجامعات الاستعمار . ولكننا نرى آسفين ان البورجوازية الوطنية كثيرا ما تتنكب هذا السبيل البطولي الايجابي الخصب العادل ، لتسير راضية النفس مطمئنة البال في طريق فظيع ، مناقض لمصلحة الأمة ، هو الطريق الذي تسلكه بورجوازية تقليدية ، بورجوازية بورجوازية ، بورجوازية ارتضت في غباء وحمق وحطة ان لا تكون الا بورجوازية .

لقد رأينا أن هدف الأحزاب الوطنية يصبح منذ مرحلة من المراحل هدفا قوميا تماما . فهو يعبيء الشعب حول شعار الاستقلال ، مرجئا ما عدا ذلك للمستقبل . فاذا سألت رجال هذه الأحزاب عن البرنامج الاقتصادي الذي ستلتزمه الدولة ، وعن النظام الذي يريدون اقامته ، رأيتهم عاجزين عن الاجابة ، لأنهم يجهلون كل الجهل اقتصاد بلادهم .

ان اقتصاد بلادهم قد تطور دائما بعيدا عنهم وبدون تدخلهم .

انهم لا يعرفون عن الموارد الحالية والموارد الممكنة التي تشتمل عليها الأرض ويضمها جوف الأرض الا أمورا قرأوها في المكتب ، أمورا تقريبية ، لذلك تراهم لا يستطيعون أن يتحدثوا عن هذه الموارد الا حديثا مجردا عاما . حتى اذا تحقق الاستقلال ، رأيت هذه البورجوازية المتخلفة ، القليلة العدد ، التي لا تملك رؤوس أموال كبيرة ، والتي ترفض أن تسلك الطريق الثوري ، راكدة ركودا يرثى له . انها لا تستطيع أن تطلق العنان «لعبقريتها» التي كانت تستطيع ان تقول عنها بشيء من الطيش ان سيطرة الاستعمار هي التي حالت دون انطلاقها . وهكذا نرى فقر وسائلها وقلة رجالها تحصرها خلال سنوات طويلة في نطاق اقتصاد يقوم على الحرفة ، فاذا الاقتصاد القومي اقتصاد محدود الآفاق يستند الى ما يسمى بالمنتجات المحلية . ونسمع عندئذ خطبا طويلة عن قيمة الحرف ، فالبورجوازية الوطنية التي وجدت نفسها عاجزة عن اقامة مصانع تدر لها وللبلاد أرباحا أوفر ، تحيط الحرف عندئذ بعواطف العزة القومية والكرامة الوطنية ، وتستمد منها في الوقت نفسه فوائد جمة . وهذا التقديس للمنتجات المحلية ، هذا العجز عن خلق طرق جديدة يتجليان كذلك في انغماس البورجوازية الوطنية في الانتاج الزراعي الذي كان يتميز به العهد الاستعماري . انهم لا يوجهون الاقتصاد القومي توجيها جديدا . وتظل الأمور تسير على ما كانت تسير عليه من قبل : غلال الأراشيد ، غلال الكاوكاو ، غلال الزيتون . حتى أن هذه المنتجات الاساسية لا يطرأ أي تغير على طريقة استثمارها . وتظل البلاد تصدر مواد أولية ، ويظل الأهالي يعملون مزارعين صغارا لدى أوروبا ، وتظل البلاد اختصاصية في تقديم المحاصيل الخام .

ومع ذلك ما تفتأ البورجوازية الوطنية تطالب بتأميم الاقتصاد

والقطاعات التجارية . ذلك ان التأميم عندها لا يعني وضع مجموع الاقتصاد في خدمة الأمة ، وتحقيق كافة حاجات الأمة ، وهو لا يعني تنظيم شؤون الدولة على أساس علاقات اجتماعية جديدة يراد تسهيل وجودها ، وانما يعني التأميم عندها نقل الامتيازات الموروثة من العهد الاستعماري الى أهل البلاد .

ولما كانت البورجوازية لا تملك الوسائل المادية ، ولا الوسائل العقلية الكافية «مهندسين ، فنيين» ، نراها تكتفي بوضع اليد على مكاتب الأعمال وبيوتات التجارة التي كان يشغلها المستوطنون الأجانب . ان البورجوازية الوطنية تحتل الأمكنة التي كان يشغلها المستوطنون الأجانب . ان البورجوازية الوطنية تحتل الأمكنة التي كان يشغلها الأوروبيون : أطباء ومحامين وتجارا وممثلي شركات ووكلاء عامين ووسطاء . انها تشعر أن من واجبها ، حفاظا على كرامة البلاد وحفاظا على نفسها ، أن تحتل جميع هذه المراكز .

ومنذ ذلك الحين تراها تفرض على جميع الشركات الأجنبية الكبرى أن تمر بواسطتها ، سواء أكانت تريد أن تبقى في البلاد أم كانت تنوي أن تدخل الى البلاد . ان البورجوازية الوطنية تكتشف لنفسها هذه المهمة التاريخية وهي أن تكون وسيطا . وهكذا لا تكون رسالتها تغيير أحوال الأمة ، بل جعل نفسها وسيطا بين البلاد وبين رأسمالية مضطرة الى التخفي ، رأسمالية تضع على وجهها اليوم قناع الاستعمار الجديد . وترتاح البورجوازية الوطنية الى هذا الدور الذي تقوم به ، أعني دور وكيل للبورجوازية الغربية ، دون أن يكون ثمة عقد ولا غضاضة . وهذا الدور الذي يدر ربحا ضئيلا ، هذه الوظيفة التي تغل رزقا يسيرا ، هذا الضيق في النظرة ، هذا النقص في الهمة والطموح ، هذا كله انما يرمز الى عجز البورجوازية الوطنية عن النهوض بالدور التاريخي الذي تنهض به

البورجوازية . فما تعرف به كل بورجوازية وطنية من أنها نشيطة زائدة مبتكرة مستكشفة لعوالم جديدة ، لآفاق جديدة ، لا نرى مثله لدى هذه البورجوازية الوطنية . ان روح التمتع والتلذذ هي المسيطرة لدى البورجوازية الوطنية في البلدان المستعمرة . ذلك أنها على المستوى النفسي تتشبه بالبورجوازية الغربية وتستمد منها تعاليمها ، وتقتفي آثارها في الجانب السلبي وتنحط دون أن تكون قد قطعت مراحل الاستكشاف والابتكار الأولى التي قُطعتها البورجوازية الغربية ، وحققت بها أشياء ايجابية على كل حال . ان البورجوازية الوطنية في أول عهدها تشبه البورجوازية الغربية في آخر عهدها . وما ينبغي أن نظن أنها تغذ السير وتحرق المراحل . فانما هي في حقيقة الأمر تبدأ بالنهاية . لقد دلفت الى الشيخوخة المتهدمة قبل أن تعرف ما يعرفه الصبا والمراهقة من نزق ، وتهور ، واندفاع .

والانحطاط الذي تتردى فيه البورجوازية الوطنية تساعدها عليه البورجوازية الغربية مساعدة كبيرة ، بتوافد رجالها على البلاد سائحين مولعين بالغرائب والصيد والملاهي . ان البورجوازية الوطنية تنشيء مراكز للراحة والاستجمام واللذة يتقاطر عليها رجال البورجوازية الغربية . وهي تطلق على هذا النشاط اسم السياحة ، تعده أشبه بصناعة وطنية . واذا أردتم برهانا على هذا النوع من تحول عناصر البورجوازية الغربية ، فانظروا الى ما حدث في أميركا اللاتينية . ان ملاهي هافانا ومكسيكو وشواطىء ريودي جانيرو والبرازيليات الصغيرات ، والمكسيكيات الصغيرات ، وخلاسيات السنة الثالثة عشرة من العمر ، وآكابولكو ، وكوباكابانا ، كل تلك انما هي امارات الفساد الأخلاقي الذي تتردى فيه البورجوازية الوطنية . فلأن هذه البورجوازية الوطنية ليس لها أفكار ، ولأنها مغلقة على ذاتها ، منقطعة عن الشعب ، عاجزة عن التفكير في

مجموع المسائل على أساس مجموع الأمة ، نراها تقوم بدور الوكيل عن الغرب في ادارة مشاريعة ، ونراها تنظم بلادها ماخورا لأوروبا .

أعود فأقول يجب أن يكون ماثلا في خيالنا ذلك المشهد المحزن ، مشهد بعض جمهوريات أمريكا اللاتينية . ان رجال الأعمال في الولايات المتحدة وكبار أصحاب المصارف ورجال الصناعة ، يطيرون بصفقة جناح الى «البلاد الحارة» ليغرقوا هنالك سبعة أيام أو ثمانية في ذلك الجو اللذيذ من الفسق الذي يهيأ لهم .

ولا يختلف سلوك ملاكي الأراضي عمليا عن سلوك بورجوازية المدن . لقد طالب كبار المزارعين ، منذ اعلان الاستقلال ، بتأميم الاستثمارات الزراعية ، واستطاعوا بأساليب ماكره كثيرة أن يضعوا أيديهم على المزارع التي يملكها المستوطنون الأجانب ، فزادوا بذلك سيطرتهم على المنطقة . ولكنهم لا يحاولون أن يجددوا الزراعة ، أو أن يقووها ، أو أن يجعلوها جزءا من اقتصاد قومي حقا .

ان ملاكي الأراضي يطالبون السلطات العامة بأن تحيل اليهم تلك التسهيلات والامتيازات التي كان ينعم بها المستوطنون الأجانب قبل الاستقلال . ويصبح استغلال العمال الزراعيين أقوى مما كان ، ويصبح كذلك مشروعا . ويتزود هؤلاء الوطنيون الذين لا يختلفون عن المستوطنين الأجاب في شيء ، يتزود هؤلاء المستوطنون الجدد بشعارين أو ثلاثة شعارات ، ليطالبوا العمال الزراعيين بالقيام بجهود ضخمة باسم الاشتراك في المجهود القومي العام . فلا تجديد في أساليب الزراعة ، ولا خطة للتنمية الاقتصادية ، ولا مبادهات فردية ، لأن المبادهات تقتضي حدا أدنى من المخاطرات ، والمخاطرات تبث الذعر في نفوس هؤلاء الناس ، وتجعل هذه البورجوازية الزراعية المترددة «المتعلقة» يطيش صوابها ، فتؤثر ان تبقى الأحوال على ما هي عليه ، وتكتفي

بالطرق المعبدة التي شقها الاستعمار ، ان المبادهات في هذه المناطق انما هي من شأن الحكومة . الحكومة هي التي تقررها ، وهي التي تشجعها ، وهي التي تمولها . ان البورجوازية الزراعية تأبى ان تقوم بأية مجازفة . انها تكره الرهان ، تكره المغامرة . انها لا تريد ان تعمل على رمال . انها تريد أرحا مضمونة ، وأرباحا سريعة . وهذه الأرباح التي تجنيها ، هذه الأرباح التي تعد ضخمة بالقياس الى الدخل القومي ، يضعونها في جيوبهم ، ولا يستثمرونها من جديد . ان كنز المال هو السياسة التي تسيطر على نفسية هؤلاء الملاكين الزراعيين . وفي بعض الأحيان ، خاصة في السنوات التي تعقب الاستقلال ، نرى هذه البورجوازية لا تتورع عن ايداع الارباح التي تجنيها من أرض الوطن في البنوك الأجنبية . ونراها في مقابل ذلك تنفق أموالا طائلة في اقتناء الأشياء التي يدفع الى اقتنائها حب الظهور ، فهم يشترون السيارات الفخمة والفيلات الباذخة ، وسائر تلك الأسياء التي لاحظ علماء الاقتصاد أنها مميزات البورجوازية المتخلفة .

قلنا ان البورجوازية المستعمرة التي تتسلم مقاليد السلطة ، تصب طموحها الطبقي على احتكار الوظائف التي كان يستأثر بها الأجانب . وها هي ذي ، غداة الاستقلال ، تصطدم بالأجانب الذين خلفهم الاستعمار من محامين ، وتجار وملاكي أراض ، وأطباء ، وموظفين كبار . وها هي ذي تقتتل اقتتالا لا هوادة فيه مع هؤلاء الناس «الذين يهينون الكرامة الوطنية» ، وتنادي في كثير من القوة بفكرة تأميم الوظائف ، فكرة اسناد الوظائف الى الأفريقيين حتى لنرى سلوكها يصطبغ شيئا فشيئا بتعصب عرقي . وما تلبث ان تطرح على الحكومة هذه المشكلة بكثير من العنف : تريد هذه الوظائف ، ثم لا تخفف من من شراستها الا بعد أن تحتل هذه المراكز احتلالا كاملا .

ومن جهة أخرى نرى طبقة العمال في المدن ، وجمهرة العاطلين عن العمل ، وصغار أصحاب الحرف ، أولئك الذين ألفنا ان نسميهم أهل المهن الصغيرة ، نرى هؤلاء جميعا يقفون هذا الموقف الوطني المتعصب . ولكن يجب ان ننصفهم فنذكر انهم انما يقلدون في موقفهم هذا موقف بورجوازيتهم . واذا دخلت البورجوازية في تنافس مع الأوروبيين ، فان أصحاب الحرف وأهل المهن الصغيرة انما يبدأون الصراع ضد الافريقيين الذين ليسوا من أبناء هذه الامة . هكذا رأينا في ساحل العاج فتنا قائمة على تعصب عرقي ضد الداهوميين والفولتيين : ان الداهوميين والفولتيين الذين يحتكرون التجارة الصغيرة في قطاعات كبيرة قد قامت ضدهم ، في ساحل العاج ، غداة الاستقلال ، مظاهرات عدائية قوية ، وصارت القومية هنالك الى تعصب قومي ، الى تعصب عرقي طالب المتظاهرون بترحيل هؤلاء الأجانب ، وحرقوا مخازنهم ، وهدموا حوانيتهم الخشبية ، واعتدوا عليهم اعتداءات وحشية ، واضطرت الحكومة ان تستجيب لرغبة المواطنين فأجبرتهم على مغادرة البلاد . وفي السنغال قامت مظاهرات ضد السودانيين ، وهذه المظاهرات هي التي حملت مامادو ديا على أن يقول : «الحق ان الشعب السنغالي لم يتبن عقيدة مالي الا تعلقا منه بزعمائه ، وليس لاتحاده بمالي من قيمة غير قيمة تسليمه مرة أخرى بسياسة هؤلاء الزعماء ، وظل شعور الناس بالوطن السنغالي شعورا قويا ، لاسيما ان وجود السودانيين في دكار كان يعلن عن نفسه اعلانا ليس فيه شيء من التخفي بحيث ينسى الناس اقليميتهم . وهذه الظاهرة هي السبب في أن جماهير الشعب لم يؤسفها انفراط عقد «الاتحاد» الفدرالي ، بل استقبلته بارتياح ، ثم لم تظهر في أي مكان اية محاولة للابقاء عليه» (8) .

وبينما كانت طبقات من الشعب السنغالي تنتهز الفرصة التي أتاحها لها القادة أنفسهم للتخلص من السودانيين الذين كانوا يضايقونهم سواء في قطاع التجارة أو في قطاع الادارة ، رأينا الكونغوليين الذين شهدوا رحيل البلجيكيين عن بلادهم رحيلا جماعيا وهم لا يكادون يصدقون أعينهم ، رأينا هؤلاء الكونغوليين يضغطون على السنغاليين المقيمين في ليوبولدفيل واليزابثفيل من أجل ترحيلهم .

وهكذا نرى أن آلية هذين النوعين من الظاهرات واحدة . فلئن كان التنافس يقوم بين الأوروبيين وبين المثقفين والبورجوازية في الأمة الفتية ، فان تنافسا مثله يقوم بين جماهير الشعب المقيمة في المدن وبين افريقيين ينتمون الى أمة أخرى . وهؤلاء الافريقيون هم الداهوميون في ساحل العاج ، والنيجيريون في غانا ، والسودانيون في السنغال .

فاذا كانت مطالبة البورجوازية باسناذ الوظائف الى السود أو الى العرب لا تهدف الى تأميم حقيقي ،وانما هي تهدف فقط الى جعل البورجوازية تملك السلطة التي كان يملكها الأجانب من قبل ، فان الجماهير تطالب بهذا الامر نفسه على مستواها ، ولكنها تقصر معنى الأسود أو العربي على الحدود الاقليمية . وثمة مواقف كثيرة تقع بين المناداة الحماسية بوحدة القارة الافريقية وبين السلوك الذي تسلكه الجماهير بوحي من المصلحة الاقليمية . وهكذا نرى تأرجحا دائما بين الوحدة الافريقية التي ما تنفك تضعف وتهزل ، وبين عودة يائسة الى عصبية اقليمية كريهة حانقة . قال ماهادو ديا : «أما من جهة السنغال ، فان الزعماء الذين كانوا هم دعاة الوحدة الافريقية ، والذين ضحوا اكثر من مرة بمنظماتهم السياسية المحلية وبمراكزهم الشخصية في سبيل هذه العقيدة ، يتحملون مسؤوليات لا سبيل الى نكرانها ، نتيجة خطأ ارتكبوه عن حسن نية طبعا . ان خطن

خطأنا ، هو أننا بحجة محاربة التجزئة نسينا واقع الاقليمية ، فلم ننتبه في تحليلاتنا انتباها كافيا الى هذه الظاهرة التي هي ثمرة الاستعمار طبعا ، ولكنها أيضا واقع اجتماعي لا يمكن ان تقضي عليه أية نظرية في الوحدة مهما تكن محمودة ومهما تكن محببة . لقد فتننا المثل الأعلى ثم ظننا المثل الأعلى واقعا واقعا ، وحسبنا أنه يكفي أن نستنكر الاقليمية وما ينشأ عنها من تعصب لقوميات صغيرة حتى ننتصر عليها وحتى نحقق الظفر لمشروعنا الخيالي» (9) .

ولن تكون المسافة كبيرة بين التعصب السنغالي وبين القبيلة الأوولوفية . والواقع أنه حيثما تعجز البورجوازية الوطنية بسلوكها الرخيص ، وبغموض مواقفها العقائدية عن تنوير مجموع الشعب ، وعن طرح المشكلات على أساس الشعب أولا وقبل كل شيء ، حيثما تعجز هذه البورجوازية الوطنية عن توسيع نظراتها الى العالم توسيعا كافيا ، تشهد انتكاسا نحو الأوضاع القبلية ، وانتصارا الانقسامات العنصرية يثير في النفس أشد الحنق . فما دام الشعار الوحيد الذي تنادي به البورجوازية هو الحلول محل الأجانب ، وما دامت تبادر فتنتصف لنفسها في جميع القطاعات وتحتل المراكز ، فان صغار الوطنيين من سائقي سيارات الأجرة وباعة الحلوى وماسحي الأحذية ، لابد أن يطالبوا أيضا بأن يعود الداهوميون الى بلادهم ، وقد يذهبون الى أبعد من هذا فيطالبون بأن يرجع الفولتيون والبوهليون الى براريهم أو الى جبالهم .

على هذا الأساس انما يجب أن نؤول هذه الظاهرة التي نلاحظها في البلاد المستقلة الناشئة ، وهي أن النظام الفدرالي هو الذي ينتصر هنا وهناك . ان السيطرة الاستعمارية ، كما تعلمون ، قد خصت بعض المناطق بامتيازات خاصة ، فجعلت اقتصاد المستعمرة غير متكامل مع

بمجموع الأمة ، وانما نظمته على أساس التكامل مع اقتصاد البلاد المستعمرة المختلفة . ان الاستعمار لا يستثمر مجموع البلاد ، وانما يكتفي باكتشاف موارد طبيعية معينة ، فيستخرجها ويصدرها الى صناعات البلاد المستعمرة ، وبذلك يتيح لبعض المناطق شيئا من الثراء ، بينما يبقى سائر المستعمرة على حالة من التخلف والبؤس ، وربما ازداد تخلفا وبؤسا .

حتى اذا تحقق الاستقلال كان الوطنيون الذين يقطنون في المناطق المزدهرة يشعرون بما أوتوا من حظ ، فاذا هم بمنعكس لا أثر للتفكير فيه ، يرفضون أن يطعموا الوطنيين الآخرين الذين يعيشون في المناطق البائسة . ان المناطق الغنية بالأراشيد والكاوكاو والألماس تبرز بروزا ظاهرا على تلك الصفحة الخالية الخاوية التي تتألف منها سائر الأمة . ويشعر الوطنيون في هذه المناطق بكره نحو الآخرين ، ويصفونهم بأنهم أناس حاسدون وحاقدون شرهون ميالون الى الجريمة والقتل . وتنبعث الحزازات القديمة ، وتنتعش الأحقاد القبلية . ان قبائل البالوبا ترفض أن تطعم قبائل اللولوا ، واقليم كاتانجا يعلن أنه دولة مستقلة ، البير كالونجي يتوج نفسه ملكا على جنوبي كاساي .

ان الوحدة الافريقية ، هذا الشعار الغامض «ولكنه الشعار الذي تعلقت به قلوب الرجال والنساء بأفريقيا تعلقا حماسيا قويا ، وكان يضغط على الاستعمار ضغطا هائلا» يكشف الآن عن وجه آخر ، فاذا هو عصبيات اقليمية في داخل واقع قومي واحد . فالبورجوازية الوطنية ، لأنها منكمشة على مصالحها المباشرة ولأنها لا تنظر الى أبعد من أطراف أظافرها ، تتكشف عاجزة عن تحقيق الوحدة القومية ، عاجزة عن بناء الأمة على أسس وطيدة خصبة مثمرة . ان الجبهة الوطنية التي طردت الاستعمار تتفتت الآن وتنهزم .

وهذا الصراع القومي الذي يقوم بين القبائل ، هذا الحرص العنيف على احتلال المراكز التي أصبحت شاغرة برحيل الأجنبي ، سيولدان أيضا تنافسات دينية . ففي الأرياف والبراري نجد الطوائف الدينية الصغيرة ، والأديان المحلية ، وجماعات الطرق الصوفية ، تستعيد نشاطها وحيويتها وتستأنف لجوءها الى تفكير غيرها . وفي المدن الكبرى ، على مستوى الوظائف الادارية ، نجد صراعا يقوم بين الديانتين المنزلتين الكبريين : الاسلام والكاثوليكية .

ان الاستعمار الذي ترنحت قواعده أمام نشوء فكرة الوحدة الافريقية يسترد الآن آماله ، ويحاول أن يحطم هذه الارادة ، مستعملا جميع مواطن الضعف في هذه الحركة ، فهو يعبىء الشعوب الافريقية كاشفا لها عن وجود خصومات «روحية» ، ففي السنغال تصدر جريدة «افريقيا الجديدة» كل أسبوع لتعبر عن كره أصفر نحو الاسلام والعرب ، وتستعدي الشعور القومي على اللبنانيين الذين يملكون في الساحل الغربي القسم الأكبر من التجارة الصغيرة . وتحض على الانتقام منهم . ورجال البعثات التبشيرية ما يفتأون يذكرون للجماهير ان الغزو العربي ، قبل وصول الاستعمار الغربي بكثير ، قد حطم أمبراطوريات زنجية كبرى . ولا يترددون عن القول ان الاحتلال العربي هو الذي مهد للاستعمار الغربي . وهم يتحدثون عن استعمار عربي ، ويندددون بالاستعمار الثقافي الذي يمارسه الاسلام . والمسلمون يقصون عن المراكز التوجيهية . وفي مناطق أخرى نلاحظ عكس هذه الظاهرة ، فالسكان الذين اعتنقوا المسيحية هم الذين يعدون هنالك أعداء الاستقلال القومي عامدين واعين .

ان الاستعمار يحرك هذه الأسلاك كلها بدون خشية ولا حياء ، سعيدا كل السعادة بأنه يثير الافريقيين بعضهم على بعض بعد أن

اتحدوا بالأمس ضده . وتبرز في بعض الاذهان فكرة مذبحة دينية على نوع مذبحة سان بارتلمي ، ويضحك الاستعمار ساخرا في هدوء حين يسمع بعدئذ تلك التصريحات الفخمة التي تتحدث عن الوحدة الافريقية . لقد أخذ الدين ، في نطاق أمة واحدة ، يجزىء الشعب ويثير الطوائف الدينية بعضها على بعض ، والاستعمار وأجهزته من وراء ذلك تغذيه وتقويه . وتنفجر هنا وهناك أحداث لم تكن في الحسبان . ففي بلاد تهيمن عليها الكاثوليكية أو البروتستانتية نرى الأقليات الاسلامية تظهر تمسكا بأهداب الدين لم يكن مألوفا من قبل ، ونرى الاعياد الاسلامية تنشط وتقوى ، فالمسلمون يدافعون عن أنفسهم ضد التعصب المتطرف المعهود في الكاثوليك . ونسمع وزراء يخاطبون بعض الأفراد بقولهم : اذا كنتم غير راضين فما عليكم الا ان تذهبوا الى القاهرة . وقد تحمل البروتستانتية الاميركية الى الأرض الافريقية تعصبها ضد الكاثوليك ، فتثير بواسطة الدين خصومات قبلية .

وعلى مستوى االقارة الافريقية يمكن أن يتخذ هذا التوتر الديني وجها بغيضا رخيصا . فتراهم يقسمون افريقيا قسمين : قسما أبيض وقسما أسود ، حتى اذا استبدلوا بهذه التسمية تسمية أخرى فقالوا : افريقية جنوب الصحاري وافريقية شمال الصحاري ، ولم تخف هذه التسمية الجديدة ما وراءها من تعصب عرقي . فهنا يزعمون ان افريقيا البيضاء حضارة عريقة ترجع الى الوف السنين ، وانها تنتمي الى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وانها امتداد لأوروبا ، وانها تشارك في الحضارة الاغريقية اللاتينية ، في حين ان افريقيا السوداء منطقة جامدة ، بدائية غير متحضرة .. متوحشة . وهناك ما ينفكون يتحدثون حديثا بغيضا كريها عن تحجب النساء عند العرب ، وعن تعدد الزوجات عند العرب ، يزعمون ان العرب يحتقرون المرأة . ان هذه الاحاديث يذكر

تهجمها بالأحادث التي طالما دارت بها السنة المستعمرين . ان البورجوازية الوطنية في كل منطقة من هاتين المنطقتين الكبيرتين ، هذه البورجوازية التي تشربت أحقر مبادىء التفكير الاستعماري تحمل العبء عن الأوروبيين ، وتنوب عنهم في ترسيخ فلسفة عرقية تستشري في القارة وتحمل الى مستقبل القارة أشد الأذى . ان هذه البورجوازية ، بكسلها وتقليدها الأعمى تشجع وتعزز غرس التعصب العرقي الذي كان يتميز به العهد الاستعماري . لذلك يجب أن لا يدهشنا ان نسمع في بلد يسمى نفسه افريقيا افكارا أقل ما توصف به هو أنها أفكار عرقية ، وأن نرى تصرفات تفرق بين الناس في القيمة ، حتى ليحس المرء في البلد الافريقي بأنه في باريز أو بروكسل أو لندن شاعرا بكثير من المرارة .

بل اننا لنرى تلك الفكرة الجارحة التي تفرق بين الناس في القيمة ، تلك الفكرة المأخوذة عن الثقافة الغربية ، القائلة بأن الأسود لا يمكن أن ينفذ المنطق الى عقلة ولا يمكن أن يفهم العلوم ، تتجلى عارية كل العري مسيطرة كل السيطرة في بعض مناطق افريقيا . حتى لقد يتاح لنا ان نرى الاقليات السوداء تعامل هنالك معاملة أشباه العبيد ، وهو أمر يبرر ما تشعر به بلدان افريقيا السوداء من تحفظ بل ومن حذر وسوء ظن . ليس نادرا أن يقع المواطن من افريقيا السوداء حين يتنزه في مدينة من مدن افريقيا البيضاء ، ان يسمع أطفالا ينادونه «زنجي» ، أو أن يسمع موظفين يسمونه «عبدا» .

لا وليس مستبعدا ، وا أسفاه ، أن يقع لطلاب من افريقيا السوداء في كليات بافريقية شمال الصحرى أن يسألهم رفاقهم في المدرسة : هل في بلادكم بيوت ، هل تعرفون الكهرباء ، هل يأكل أهلكم لحوم البشر ؟ لا وليس مستبعدا وا أسفاه أن نرى في بعض مناطق الشمال افريقيين

آتين من الجنوب يبتهلون الى وطنيين أن يأخذوهم «الى أي مكان ، ولكن مع زنوج» . وكذلك نرى ، في بعض الدول الناشئة بافريقيا السوداء ، رجالا من أعضاء المجالس النيابية بل ومن الوزراء ، يقولون غير ضاحكين : ليس الخطر أن يعود الاستعمار الى احتلال بلادهم ، بل الخطر ان يغزوهم «عرب الشمال» .

وهكذا ترون أن افلاس البورجوازية لا يتجلى في الصعيد الاقتصادي فحسب . ان البورجوازية ، وقد وصلت الى السلطة باسم قومية ضيقة ، باسم العرق ، رغم تصريحات جميلة جدا من ناحية الشكل ، ولكنها تصريحات فارغة كل الفراغ من ناحية المضمون ، تصريحات تستعمل على غير شعور بالمسؤولية جملا مستمدة رأسا من كتب الاخلاق او الفلسفة السياسية التي تصدرها مطابع اوروبا ، ان هذه البورجوازية تبرهن على عجزها عن تحقيق النصر لحد أدنى من العقيدة الانسانية . ان البورجوازية حين تكون قوية وحين تنظم العالم على أساس سلطتها لا تتردد عن تأكيد أفكار ديموقراطية تساوي بين البشر ، ولابد لهذه البورجوازية ، القوية اقتصاديا ، من ظروف استثنائية حتى تضطر الى الخروج على نظريتها الانسانية هذه . والبورجوازية الغربية تتوصل في اكثر الأحيان ، رغم أنها في حقيقة أمرها عرقية ، الى اخفاء هذه العرقية بأقنعة كثيرة تتيح لها الابقاء على مناداتها المعروفة بالكرامة الانسانية . لقد هيأت البورجوازية الغربية عددا كافيا من الحواجز والسدود حتى لا تخاف حقا من منافسة هؤلاء الذين تستغلهم وتحتقرهم . ان التعصب العرقي البورجوازي الغربي تجاه الزنجي انما هو تعصب احتقار ، وتعصب استهانة . ولكن النظرية البورجوازية التي تنادي بأن البشر متساوون في جوهرهم ، تحتال على الأمر من أجل

ان تظل منطقية مع نفسها ، فتدعو هؤلاء البشر المتخلفين الى أن يصبحوا بشرا أسوياء من خلال النموذج الانساني الغربي الذي تجسده .

أما التعصب العرقي لدى البورجوازية الوطنية في البلاد المستعمرة فهو تعصب دفاعي ، تعصب قائم على الخوف . انه لا يختلف في جوهره عن القبلية الرخيصة بل لا يختلف عن الخصومات بين الفرق الصوفية أو الجماعات الدينية . لذلك رأينا المراقبين الدوليين الأذكياء لا يأخذون مأخذ الجد تلك النداءات الحماسية التي تدعو الى الوحدة الافريقية . فالصدوع التي يرونها بأم أعينهم تجعلهم يشعرون شعورا واضحا بأنه لابد من أن تنحل جميع هذه التناقضات قبل أن يأتي أوان الوحدة .

ان الشعوب الافريقية قد اكتشفت نفسها مؤخرا ، وقررت باسم القارة الافريقية كلها أن تحطم النظام الاستعماري . ولكن البورجوازيات الوطنية التي تساع ، اقليما بعد اقليم ، الى تشييد كيانها الخاص ، والى اقامة نظام وطني استغلالي ، تنشيء الحواجز تلو الحوجز من أجل الحيلولة دون تحقيق هذا «الحلم» . ان البورجوازيات الوطنية التي تعرف أغراضها حق المعرفة قد قررت أن تسد الطريق أمام هذا الجهد المنسق الذي يقوم به مائتان وخمسون مليونا من البشر في سبيل الانتصار على الحيوانية والجوع واللاانسانية . لذلك يجب علينا أن نعلم أن الوحدة لافريقية لا يمكن ان تتحقق الا باندفاع الشعوب وبقيادة الشعوب ، ي رغم أنف البورجوازية ومصالحها .

وعلى الصعيد الداخلي ، في الاطار الدستوري ، نجد البورجوازية تبرهن على عجزها أيضا ، ففي عدد من البلدان المتخلفة نرى النظام برلماني فاسدا فسادا عميقا . ان البورجوازية الوطنية وهي ضعيفة قتصاديا ، وعاجزة عن اقامة علاقات اجتماعية متسقة قائمة على مبدأ

سيطرتها كطبقة ، تختار الحل الذي يتراءى لها أنه أسهل الحلول ، أعني نظام الحزب الواحد . انها لا تملك راحة البال والطمأنينة اللتين لا يمكن ان تؤمنهما لها الا القوة الاقتصادية والهيمنة على نظام الدولة . انها لا تخلق دولة تطمئن المواطن بل تقيم دولة تبث القلق في نفس المواطن .

ان الدولة التي تؤهلها متانتها ويؤهلها تخفيها في الوقت نفسه ، لأن تهب للناس الثقة ، وان تفل سلاحهم وان تنميهم ، تصبح هنا دولة تفرض نفسها فرضا صارخا ، وتعرض قواها ، وتضرب وتقسو ، وتفهم المواطن بذلك انه في خطر دائم . ان نظام الحزب الواحد هو الشكل الحديث للدكتاتورية البورجوازية التي لا تقتنع لا تتزين ولا يزعها وازع ولا يردعها حياء .

وهذه الدكتاتورية لا تعمر طويلا . ذلك واقع . ان هذه الدكتاتورية ما تنفك تولد تناقضها ذاته . اذ لما كانت البورجوازية لا تملك الوسائل الاقتصادية لضمان سيطرتها وتوزيع شيء من الفتات على مجموع البلاد ، ولما كانت من جهة أخرى مشغولة بملء جيوبها بأقصى سرعة ممكنة ، وبأتفه طريقة ممكنة أيضا ، فان البلاد تزداد ركودا وجمودا . ومن أجل أن تخفى البورجوازية هذا الركود ، ومن أجل أن تقيم هذا التراجع ، ومن أجل أن تطمئن نفسها ، من أجل أن تهيىء لنفسها أسباب الزهو والافتخار ، تراها لا تجد سبيلا الى ذلك كله غير ان تبني في العاصمة أبنية ضخمة فخمة ، وأن تعمد الى ما يسمى بنفقات الهيبة .

وشيئا فشيئا تزداد البورجوازية اهمالا للداخل ، وتزداد اهمالا لواقع البلاد البور ، وتأخذ تنظر الى البلد الأوروبي الذي كان يستعمرها ، تأخذ تنظر الى الرأسماليين الاجانب الذين يضمنون ان تقدم لهم خدماتها . ولما كانت لا تقتسم أرباحها مع الشعب ، ولا تتيح له أبدا

أن يستفيد من المغانم التي تصبها عليها الشركات الأجنبية الكبرى ، فانها سرعان ما تكتشف ضرورة وجود زعيم شعبي تقع على عاتقه مهمة مزدوجة هي ضمان استقرار العهد القائم وضمان استمرار سيطرة البورجوازية في آن واحد . فالدكتاتورية البورجوازية في البلاد المتخلفة انما تستمد متانتها من وجود زعيم ، ان البورجوازية الدكتاتورية في البلاد المتطورة هي كما تعلمون نتيجة القوة الاقتصادية التي تتمتع بها البورجوازية ، أما في البلاد المتخلفة فان الزعيم هو القوة المعنوية التي تريد البورجوازية ، الهزيلة الفقيرة ، ان تغتني في ظلها وتحت حمايتها .

والشعب الذي ظل خلال سنين طويلة يرى الزعيم ويسمع خطبه ، ويتابع من بعيد ، وهو فيما يشبه الحلم ، ما يقوم بين الزعيم وبين السلطة الاستعمارية من مشاجرات ، يمحض هذا الزعيم ثقة من تلقاء نفسه . لقد كان الزعيم قبل الاستقلال يجسد آمال الشعب بوجه عام : الاستقلال ، الحريات السياسية ، العزة القومية . ولكنه بعد الاستقلال ، بدلا من أن يجسد حاجات الشعب تجسيدا محسوسا ، وبدلا من ان يكون رائد العزة القومية الحقيقية ، العزة القومية التي تمر بالخبز والأرض واعادة البلاد الى ايدي الشعب المقدسة ، تراه يكشف عن وظيفته الصميمة ألا وهي أن يكون الرئيس العام لشركة المنتفعين المسرعين الى التمتع ، أعني البورجوازية الوطنية .

ان الزعيم ، رغم أنه كثيرا ما يكون شريفا ، وكثيرا ما يقول أقوالا صادقة ، انما هو من الناحية الموضوعية المدافع المتحمس عن مصالح أصبحت اليوم مترابطة ، هي مصالح البورجوازية الوطنية ومصالح الشركات الاستعمارية السابقة . أضف الى ذلك أن شرفه وصدقه ما يلبثان أن يأخذا بالتفتت شيئا بعد شيء . ذلك أن اتصاله بالشعب اتصال غير واقعي ، فسرعان ما يقتنع ان الشعب أصبح متنكرا

لسلطته ، وأن الناس أخذوا يشكون في الخدمات التي قدمها لوطنه . ويقسو الزعيم قسوة شديدة في الحكم على هذه الجماهير التي لا تعترف بالجميل ، وما ينفك ينحاز يوما بعد يوم الى معسكر المستغلين ، ثم ينقلب انقلابا واعيا الى شريك للبورجوازية الناشئة التي تتخبط في أحضان الفساد واللذة .

وتنحدر الحياة الاقتصادية للدولة الفتية نحو بنيات الاستعمار الجديد . لقد كان الاقتصاد القومي محميا ، فأصبح اقتصادا موجها . والميزانية تغذيها قروض وهبات . ورؤساء الدولة أو الوفود الوزارية تزور كل بضعة أشهر العواصم الأوروبية التي كانت مستعمرة أو غيرها من البلدان تطلب المال .

والدولة التي كانت مستعمرة تضاعف الآن مطاليبها وشروطها ، وتطلب مزيدا من التنازلات والضمانات ، ولا تقوم بما كانت تقوم به قبل ذلك من احتياطات لاخفاء سيطرتها على السلطة الوطنية . ويركد الشعب ركودا محزنا على بؤس لا يطاق ، ويدرك ادراكا بطيئا تلك الخيانة التي يرتكبها قادته ، والتي لايمكن أن تسمى باسم . وتقوى حدة هذا الشعور لدى الشعب على قدر عجز البورجوازية عن تكوين نفسها كطبقة . فاذا تنظيمها لتوزيع الثروات لا يجعل هذا التوزيع متدرجا على طبقات ، وانما يحصر الثروة في أيدي فئة محتكرة . وهذه الفئة المحتكرة الجديدة تبعث على الشعور بالمهانة ، وتثير الحنق والتمرد ، خاصة وأن الأكثرية الساحقة من السكان ، وهي تشكل تسعة أعشار السكان ، ما تزال تموت جوعا . ان هذا الاثراء الفاضح السريع الذي لا يرحم ، هذا الاثراء الذي تحققه لنفسها الفئة المحتكرة ، يوقظ الشعب ايقاظا حاسما ، ويتصور الشعب عندئذ أنه لابد من غد عنيف يحمل اليه الفرج ويعده بالخير . وهذه الفئة البورجوازية المحتكرة ، هذا

الجزء من الشعب الذي يستأثر بمجموع ثروات البلاد ، ينتهي ، بمنطق مفهوم وان يكن غير متوقع ، الى أن يرى في سائر الزنوج أو في سائر العرب آراء تحط من قيمتهم ، وتذكر من عدة وجوه بالنظرية العرقية التي كان يدين بها ممثلو الدولة المستعمرة . فهذا البؤس الذي يعانيه الشعب ، وهذا الاثراء الفوضوي الذي تحققه الفئة البورجوازية المحتكرة ، وهذا الاحتقار العلني الذي تشعر به هذه الفئة نحو سائر الأمة ، هذا كله هو الذي سيعمق الآراء ويقوي الاتجاهات .

غير أن هذه الأخطار التي تلوح في الأفق ، تؤدي الى تشديد السلطة وظهور الدكتاتورية . فالزعيم الذي يجر وراءه حياة مناضل جريء وطني مخلص هو حاجز يقوم بين الشعب وبين البورجوازية الجشعة . لأنه يحمي أعمال هذه الفئة ، ويغمض عينيه عن وقاحة هؤلاء البورجوازيين وحقارتهم ومجافاتهم للأخلاق . ان الزعيم يساهم في لجم وعي الشعب ، انه يهب الى نجدة الفئة المحتكرة ، ويخفي عن الشعب مناوراتها ، ويصبح بذلك من أشد العاملين حماسة في تضليل الجماهير وتخديرها . انه كلما خاطب الشعب ذكره بحياته وهي حياة بطولية في كثير من الأحيان ، وذكره بالمعارك التي خاضها باسم الشعب ، وبالانتصارات التي حققها باسم الشعب ، مشيرا بذلك الى ان على الجماهير أن تستمر في محضة ثقتها . ما أكثر الأمثلة على أولئك الوطنيين الافريقيين الذين أدخلوا على السياسة النضالية المتحفظة التي كان يتبعها سابقوهم أسلوبا حاسما قوميا ! ان هؤلاء الرجال قد جاءوا من الارياف وكانوا يتكلمون باسم الزنوج ، وكان ذلك مثار دهشة المستعمر المتسلط ، ومثار خجل الوطنيين المقيمين بالعاصمة ! ان هؤلاء الرجال يصبحون اليوم ــ وا أسفاه !ــ على رأس فئة من الناس تدير ظهرها للأرياف ، وتعلن أن رسالة الشعب هي أن يكون تابعا ، يظل تابعا .

ان الزعيم يهدىء الشعب . انه لعجزه عن دعوة الشعب الى أعمال محسوسة ملموسة ، لعجزه عن أن يفتح للشعب باب المستقبل حقا ، وأن يدفع الشعب في طريق بناء الأمة ، وبالتالي في طريق بناء نفسه ، يظل سنين طويلة لا يزيد على أن يجتر تاريخ الحصول على الاستقلال ، وعلى ان يذكر بالوحدة المقدسة التي رافقت نضال التحرير . ان الزعيم لرفضه تحطيم البورجوازية الوطنية ، يطلب الى الشعب ان ينكفىء الى الماضي وأن يسكر بذكرى الملحمة التي أدت الى الاستقلال . وفي وسعنا أن نقول ان الزعيم يوقف سير الشعب — موضوعيا — ويعمل جاهدا اما على طرده من التاريخ وأما على منعه من دخول التاريخ . لقد كان الزعيم أثناء كفاح التحرير يوقظ الشعب ويعده بزحف بطولي جذري . أما اليوم فهو يضاعف جهوده من أجل تخذير الشعب وتنويمه ، ويذكره ثلاث مرات أو أربعا كل عام بعهد الاستعمار طالبا أن يقدر الطريق الطويل الذي قطعته البلاد .

ولكن يجب أن نعترف بأن الجماهير تعجز عجزا كاملا عن تقدير الطريق الطويل المقطوع . ان الفلاح الذي ما يزال يجهد في الارض ، والعاطل الذي ما يزال عاطلا ، لا يستطيعان رغم الاحتفالات ورغم الأعلام الجديدة أن يقتنعا بأن شيئا في حياتهما قد تغير حقا . ومهما تكثر البورجوازية الحاكمة من التظاهرات ، فان الجماهير تظل عاجزة عن أن تؤخذ بالأوهام . الجماهير ما تزال جائعة ، ومفوضو الشرطة الذين أصبحوا الآن افريقيين بعد ان كانوا أوروربيين لا يطمئنون لهذه الجماهير كثيرا . وتأخذ الجماهير بالحرون والاشاحة ببصرها وعدم الاكتراث بهذه الامة التي لا تفسح لها أي مجال ولا تخلق لها أي مكان .

وأثناء ذلك يعبىء الزعيم قواه من حين الى حين ، فيتحدث في

الراديو ، ويقوم بجولة لتهدئة الخواطر وتضليل العقول . والزعيم ضروري خاصة حين لا يكون ثمة حزب . لقد كان هناك حزب يقوده هذا الزعيم نفسه أثناء مرحلة الكفاح في سبيل التحرير . ولكن هذا الحزب قد تحلل بعد ذلك ، ولم يبق منه الا الشكل والاسم والرمز . ان الحزب المنظم الذي كان يتيح سريان فكرة تكونت على أساس الحاجات الحقيقية للجماهير ، قد استحال الآن الى نقابة لضمان مصالح أفراد . لقد أصبح الحزب منذ الاستقلال يساعد الشعب في التعبير عن مطالبه ، وفي وعي حاجاته مزيدا من الوعي وفي توطيد قوته مزيدا من التوطيد . لقد أصبحت وظيفة الحزب الآن هي أن يوصل الى الشعب التعليمات الآتية من القمة . وزال ذلك الذهاب والاياب من القاعدة الى القمة ومن القمة الى القاعدة ، زال ذلك التواصل الخصب الذي هو أساس الأحزاب وضمانة ديموقراطيتها . ان ما بقي من الحزب هو نقيض ذلك تماما : لقد اصبح الحزب حاجزا بين الجماهير وبين القيادة . اصبح الحزب بغير حياة . ان الخلايا الحزبية التي نظمت في عهد الاستعمار قد سرحت الآن من الخدمة تسريحا كاملا .

ويقضم الجاهل لجامه . ويدرك الناس صواب المواقف التي اتخذها بعض المناضلين أثناء كفاح التحرير . ان كثيرا من المناضلين قد طلبوا من أجهزة القيادة ابان المعركة ان تنشيء عقيدة ، وان توضح أهدافا معينة ، وان تضع برنامجا . ولكن القادة رفضوا يومئذ رفضا باتا ان يواجهوا هذه المهمة ، بحجة المحافظة على الوحدة الوطنية . كانوا يرددون قولهم : عقيدتنا هي الوحدة الوطنية ضد الاستعمار . وكانوا بتسلحهم بهذا الشعار القوي الذي اتخذوه عقيدة ، وبقصرهم النشاط العقائدي على أقوال شتى عن حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها ، يمضون مع تيار التاريخ الذي لابد أن يعصف بالاستعمار ، وان يطوح به .

حتى اذا طالبهم المناضلون بأن يحللوا تيار التاريخ هذا مزيدا من التحليل جابهوهم بقولهم : ان الاستعمار صائر الى زوال لا محالة ...

ويجيء الاستقلال ، ويوشك الحزب أن يصبح جثة هامدة . انهم الآن لا يعبئون اعضاء الحزب الا لمظاهرات يسمونها شعبية ، ولمؤتمرات دولية ولاحتفالات بأعياد الاستقلال . ان القيادات الحزبية المحلية قد عينت لوظائف ادارية ، والحزب استحال الى دائرة حكومية ، وعاد الحزبيون الى أماكنهم يحملون هذا الاسم الأجوف : مواطن .

انهم بعد أن قاموا بمهمتهم التاريخية ، وهي اصال البورجوازية الى سدة الحكم ، مدعوون بقوة الى الانسحاب ، حتى يتيحوا للبورجوازية أن تقوم برسالتها الخاصة في جو هادىء . ولكن البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة عاجزة ، كما رأينا ذلك ، عن تحقيق أية رسالة . وما هي الا بضع سنين حتى يصبح تحلل الحزب واضحا لكل عين ، ويدرك كل مراقب عندئذ ، ولو كان سطحيا ، أن الحزب القديم الذي أصبح الآن هيكلا عظيما ، لا يفيد الا في تجميد الشعب . ان الحزب الذي جذب اليه أثناء معركة الكفاح مجموع الأمة يتحلل الآن . والمثقفون الذين انضموا الى الحزب غداة الاستقلال يؤكدون بسلوكهم أن انضمامهم ذاك لم يكن له من هدف الا الاشتراك في المائدة التي جاء بها الاستقلال . لقد أصبح الحزب وسيلة نجاح فردي .

على أن هنالك تفاوتا في الاثراء والاحتكار في داخل العهد الجديد . فبعض الأفراد يأكلون على عدة موائد ، ويظهرون في مجال الانتهازية مقدرة فائقة واختصارا باهرا . وتتكاثر الامتيازات ، وتنتصر الرشوة ويعم الفساد وتنهار الاخلاق . لقد أصبحت الغربان أكثر عددا وأشد شراهة من أن تكفيها المغانم الوطنية الهزيلة . والحزب الذي أصبح أداة للسلطة في أيدي البورجوازية ، يقوي جهاز الدولة ويجمد الشعب ، وما ينفك

يصبح اداة قمع وعدوا للديموقراطية . لقد أصبح الحزب شريكا للبورجوازية المتاجرة ، عن غير وعي وعن وعي . وكما تنسحب البورجوازية من مرحلة البناء وتغوص في حماة الملذات ، كذلك هي على الصعيد الدستوري تقفز فوق المرحلة البرلمانية وتختار دكتاتورية من النوع الفاشستي . واننا نعلم اليوم أن تلك الفاشستية الصغيرة التي انتصرت في أمريكا اللاتينية خلال نصف قرن ان هي الا ثمرة منطقية لقيام دولة شبه استعمارية في عهد استقلال .

ففي هذه البلاد الفقيرة المتخلفة ، التي نرى فيها ، وفقا للقاعدة ، اكبر ثراء يتاخم أبأس فقر ، يكون الجيش والشرطة أعمدة النظام القائم ، وهما جيش وشرطة يشرف على توجيهما خبراء أجانب ، وهذه قاعدة أخرى يجب ان نتذكرها . وتكون قوة هذه الشرطة وسلطة هذا الجيش متناسبتين مع حالة الركود التي يعيش فيها سائر الأمة . ان البورجوازية الوطنية تبيع نفسها للشركات الأجنبية الكبرى بصراحة ما تنفك تزداد . وبالرشوة ينتزع الأجنبي الامتيازات تلو الامتيازات ، وتتكاثر الفضائح ، ويغتني الوزراء وتستحيل نساؤهم الى دمى ، ويدبر النواب أمورهم أيضا ، ولا يبقى شرطي ولا موظف من موظفي الجمرك الا ويشارك في هذه القافلة من الرشوة والفسد .

ويزداد تهجم المعارضة ، ويدرك الشعب دعايتها بنصف كلمة . وتبرز معاداة البورجوازية . ان البورجوازية الفتية التي دلفت الى السيخوخة وهي في ريعان الشباب لا تقيم وزنا للنصائح التي تبذل لها ، وتبدو عاجزة عن ان تفهم ان من مصلحتها ان تحجب استغلالها ولو بغلالة رقيقة .

ان جريدة مسيحية جدا ، جريدة «الأسبوع الأفريقي» ، هي التي كتبت تخاطب أمراء العهد القائم بقولها : «يا أيها الرجال الذين

تحتلون المراكز ، وأنتن يا نساءهم ، انكم تتمتعون الآن بالثراء والرخاء ، وربما كنتم تنعمون أيضا بالتعليم والثقافة ، كما تنعمون بمنزلكم الجميل ، وبعلاقاتكم الاجتماعية ، وبالمهمات التي تسند اليكم فتفتح لكم آفاقا جديدة . ولكن ثراءكم يعصب أعينكم فيحول بينكم وبين رؤية البؤس الذي يحيط بكم . ألا فاحذروا العواقب» . ولعل القارىء يدرك ان هذا التحذير الذي توجهه جريدة «الاسبوع الافريقي» الى اعوان السيد «يوليو» لايشتمل على أي روح ثورية ، فانما الأمر الذي تريد جريدة «الأسبوع الافريقي» ان توصله الى اسماع مجوعي الشعب الكونغولي هو أن الله سيعاقبهم على سلوكهم هذا : «اذا لم يكن في قلوبكم مكان للعطف على هؤلاء الناس الذين هم دونكم ، فلن يكون لكم في بيت الله مكان» .

واضح ان البورجوازية الوطنية لا تهتم كثيرا بهذه الاتهامات . انها ، وهي معلقة بأوروبا ، تظل مصممة تصميما قويا على انتهاز الفرصة . والأرباح التي تجنيها من إستغلال الشعب ما تلبث ان تصدرها الى الخارج . ان البورجوازية الوطنية الفتية كثيرا ما يكون سوء ظنها بالنظام الذي أقامته أشد من سوء ظن الشركات الأجنبية به . فهي تأبى ان تستثمر أموالها في الوطن ، وتتصرف تجاه الدولة التي تحميها وتغذيها تصرفا يتصف بنكران الجميل ، وهو أمر واضح يجب أن نشير اليه . انها تشتري سندات مالية من أوروبا ، وتمضي الى باريس أو هامبورغ لقضاء عطلة الاسبوع . ان سلوك البورجوازية الوطنية في بعض البلدان المتخلفة أشبه بسلوك أفراد عصابة من اللصوص ، ما ان يفرغوا من القيام بعملية من العمليات حتى يخفوا مرابحهم عن شركائهم ، ويستعدوا للانسحاب في حكمة وتعقل . وهذا السلوك يدل على أن البورجوازية الوطنية تشعر قليلا أو كثيرا أن لعبتها خاسرة على المدى

الطويل . انها تدرك ان هذا الوضع لن يدوم الى غير نهاية ، ولكنها تريد أن تستفيد منه الى أقصى حد ممكن من الاستفادة . غير ان هذا الاستغلال وهذا الظن السيىء بالدولة لابد ان يثير الاستياء في صفوف الجماهير . وفي هذه الظروف انما يتصلب النظام القائم ويقسو ، ويصبح الجيش سندا لابد منه للقيام بأعمال قمع منظم . فالجيش يصبح هو الحكم وهو المرجع ، لأنه ليس ثمة مجلس نيابي . ولكن الجيش يكتشف عاجلا أو آجلا أهميته ، ويصبح خطرا يهدد البورجوازية في كل لحظة بانقضاضه على الحكم .

وهكذا نرى ان البورجوازية في البلاد المختلفة لا تكون مبررة الا اذا كانت البورجوازية الوطنية في بعض البلاد المتخلفة لم تتعلم من المكتب شيئا . فلو انها أمعنت النظر في بلدان أميركا اللاتينية ، لأدركت الاخطار التي تتربص به . ونخلص اذن الى هذه النتيجة : ان هذه البورجوازية الصغيرة التي تحدث كثيرا من الضجيج مآلها الى التحرك وهي في مكانها . ذلك ان المرحلة البورجوازية مستحيلة في البلاد المتخلفة . فقد تنشأ دكتاتورية بوليسية ، وقد تنشأ فئة من المنتفعين ، ولكن قيام مجتمع بورجوازي أمر مخفق لا محالة . ان فئة المنتفعين ، الذين ينتزعون لأنفسهم أموالا طائلة من رزق البلاد ، لابد ان يروا أنفسهم ، عاجلا ، أو آجلا ، كقشة بين يدي الجيش الذي يحركه خبراؤه الأجانب في مهارة . وهكذا نرى العاصمة الأوروبية التي كانت مستعمرة تحكم البلاد حكما غير مباشر ، بواسطة البورجوازيين الذين تغذيهم وبواسطة الجيش الوطني الذي ينظمه خبراؤها والذي يجمد الشعب ويرهبه .

هذه الملاحظات التي سقناها بصدد البورجوازية الوطنية تقودنا الى نتيجة يجب ألا تدهشنا : في البلاد المتخلفة يجب ان لا تتوافر

للبورجوازية شروط الوجود والازدهار . وبتعبير آخر : يجب أن ينصب الجهد المتعاون المنسق الذي تقوم به الجماهير المنظمة في حزب ، ويقوم به المثقفون الواعون وعيا رفيعا والمسلحون بمبادىء ثورية ، يجب أن ينصب هذا الجهد على سد الطريق أمام قيام هذه البورجوازية العقيمة الضارة .

ان المشألة النظرية التي تطرح منذ خمسين عاما حين يعالج تاريخ البلاد المتخلفة ، أعني : هل يجب الوثب فوق المرحلة البورجوازية أو لا ، هذه المسألة يجب حلها على صعيد النضال الثوري لا بواسطة الاستدلال النظري . ان المرحلة البورجوازية الوطنية تملك من القوة الاقتصادية والتكنيكية ما يكفي لبناء مجتمع بورجوازي ، لخلق شروط نمو طبقة عاملة كبيرة ، لتصنيع الزراعة ، وأخيرا لقيام ثقافة وطنية أصيلة .

ان بورجوازية كالبورجوازية التي نشأت في أوروبا قد استطاعت أن تضع ايديولوجيا ، مع تعزيزها لقوتها الخاصة . ان تلك البورجوازية النشيطة الفعالة المتعلمة العلمانية ، قد نجحت نجاحا كبيرا في مهمة جمع الرساميل ، وأعطت الشعب حدا أدنى من الرخاء . أما في البلاد المتخلفة ، فقد رأينا أنه ليس هناك بورجوازية حقيقية ، بل فئة محتكرة طويلة الأنياب نهمة شرهة تسيطر عليها فكرة الربح التافهة وتتمتع بحصص من المنافع تخصها بها الدولة المستعمرة القديمة . وهذه البورجوازية الرخيصة عاجزة عن تمثل أفكار كبرى ، وعن القيام بأعمال تتجلى فيها روح الابتكار . انها تتذكر ما قرأته في الكتب المدرسية الغربية ، فاذا هي تستحيل شيئا فشيئا لا الى نسخة عن أوروبا ، بل الى كاريكاتور لأوروبا .

أن النضال ضد بورجوازية البلدان المتخلفة ليس موقفا نظريا . ليس

الأمر هاهنا أمر إداته مستمدة من حكم التاريخ . يجب علينا أن لا نكافح البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة على أساس انها قد تعوق نمو الامة نموا شاملا منسجما ، وانما يجب علينا ان نعارضها معارضة قاطعة لأنها في حقيقة الأمر لا تقوم بأي دور وليس لها أية فائدة . ان هذه البورجوازية التافهة في أرباحها وفي أعمالها وفي فكرها تحاول ان تحجب هذه التفاهة بأقنعة شتى : بأبنية فخمة على المستوى الفردي ، بسيارات أمريكية غنية بالكروم ، باجازات تقضيها على شواطىء الريفييرا ، بعطل أسبوعية في الكباريهات المتوهجة بأضواء النيون . ذلك كل شأنها .

ان هذه البورحوازية التي تزداد تحولا عن الشعب برمته يوم بعد يوم لا تظفر حتى بحمل الغرب على تقديم بعض التنازلات : كتوظيف رؤوس أموال تهم اقتصاد البلاد ، أو كاقامة بعض الصناعات . وفي مقابل ذلك نرى مصانع التجميع تزداد وتتكاثر ، معززة نموذج «الاستعمار الجديد» الذي يتخبط فيه الاقتصاد القومي . يجب أن لا نقول اذن ان البورجوازية الوطنية تؤخر تطور البلاد ، وانها قد تسير بالامة الى طرق مسدودة غير نافذة . فالواقع هو ان المرحلة البورجوازية في تاريخ البلاد المختلفة مرحلة لا لزوم لها . وحين ستزول هذه الفئة اذ تلتهمها تناقضاتها فسندرك أنه لم يتحقق شيء منذ الاستقلال ، وأن علينا أن نستأنف كل شيء من أوله ، أن نعود فنبدأ من الصفر . ولن يتم قلب الأمور عندئذ على مستوى البنيانات التي أنشأتها البورجوازية خلال حكمها ، لأن هذه الفئة لا تكون قد فعلت شيئا غير استلام ميراث الاقتصاد الاستعماري والتفكير الاستعماري والمؤسسات الاستعمارية دون أي تغيير او تبديل .

ومما يسهل تجميد هذه الطبقة البورجوازية انها كما رأينا ضعيفة سواء

من ناحية العدد ومن ناحية الثقافة ومن ناحية الاقتصاد . ان الطبقة البورجوازية في البلاد المستعمرة تستمد قوتها الأساسية من الاتفاقات المعقودة مع السلطة الاستعمارية القديمة . وحظ البورجوازية الوطنية من الحلول محل المضطهد الاستعماري يكون على قدر ما أتيح لها من خلوة مع السلطة الاستعمارية القديمة . ولكن تناقضات عميقة تحدث الاضطرابات والبلبلة في صفوف هذه البورجوازية ، وهذا ما يجعل المراقب اليقظ يشعر بأنه ليس ثمة استقرار . انه لم يتحقق لهذه الفئة حتى الآن شيء من التجانس . فكثير من المثقفين يدينون هذا النظام القائم على سيطرة عدد من الأفراد . ان في البلدان المتخلفة مثقفين وموظفين ونخبة صادقة تشعر شعورا قويا بضرورة التخطيط الاقتصادي وبضرورة ابعاد المنتفعين ومنع التضليل منعا صارما . أضف الى ذلك ان هؤلاء الرجال يناضلون الى حد ما في سبيل اشراك الشعب اشراكا كبيرا في ادارة الشؤون العامة .

انك تكاد تجد دائما في البلاد المتخلفة التي نالت الاستقلال عددا صغيرا من المثقفين الشرفاء الذين لهم افكار سياسية معينة واضحة ، ولكنهم بغريزتهم يكرهون هذا السعي الحثيث الى المراكز والى المغانم ، الذي تتميز به الايام التاية للاستقلال في البلدان المتخلفة . أن الظروف الخاصة بهؤلاء الرجال «كاعالة أسرة كبيرة العدد» وتاريخهم الشخصي «تجارب صعبة ، تربية أخلاقية صارمة» هما السبب فيما يشعرون به من احتقار نحو الانتهازيين المنتفعين . فيجب استعمال هؤلاء الرجال في المعركة الحاسمة التي يراد خوضها لتوجيه الأمة توجيها سليما . واذا كان سد الطريق أمام البورجوازية الوطنية يحقق ابعاد الاثراءات السريعة التي تعقب الاستقلال ، وتحاشي مزالق الوحدة القومية ، وتفسخ الأخلاق وهيمنه الرشوة والفساد والتقهقر الاقتصادي

وقيام حكم دكتاتوري مستند الى القوة والتخويف ، فانه أيضا السبيل الوحيد الى التقدم .

ان مما يضعف عزيمة العناصر التي تؤمن بالديمقراطية والتقدمية ايمانا عميقا بين أبناء الأمة الفتية ، ومما يجعلها خائفة وجلة ، هو ان البورجوازية تبدو في الظاهر قوية وطيدة الأركان . ذلك أن جميع القيادات في البلاد المتخلفة التي نالت استقلالها حديثا أنما تتجمع في المدن التي بناها الاستعمار . فيظن المراقب الذي لا يحلل مجموع السكان أن هناك بورجوازية قوية منظمة تنظيما كاملا . والحقيقة أن الأمر ليس كذلك . فنحن نعلم الآن أن البلدان المتخلفة ليس فيها بورجوازية . أن البورجوازية لا يخلقها فكر ولا ذوق ولا آداب ، حتى ولا آمال ، وانما البورجوازية ثمرة مباشرة لوقائع اقتصادية معينة .

والواقع الاقتصادي في المستعمرات انما هو واقع بورجوازي أجنبي . ان بورجوازية البلد المستعمر هي الموجودة في مدن المستعمرات بممثلها . ان البورجوازية في المستعمرات هي قبل الاستقلال بورجوازية غربية ، هي فرع لبورجوازية البلد المستعمر يستمد منها مشروعيته وقوته واستقراره . وفي أثناء فترة الاضطراب التي تسبق الاستقلال تحاول عناصر ثقافية وتجارية من السكان الأصليين الذين يعيشون في نطاق هذه البورجوازية المستوردة ، أن تتشبه بها . ان المثقفين والتجار من السكان الأصليين يريدون دئما أن يتشبهوا بممثلي بورجوازية البلد المستعمر .

فهذه البورجوازية التي تبنت متحمسة ، وبلا تحفظ ، الاساليب الفكرية التي تتميز بها عاصمة البلد المستعمر ، هذه البورجوازية التي ضيعت تفكيرها الخاص تضييعا عجيبا ، وأقامت وعيها على أسس أجنبية صرفة ، لابد أن تدرك وقد جف حلقها ، أنه يعوزها ذلك الشيء

الذي يصنع البورجوازية أعني المال . ان بورجوازية بالفكر . فلا قوتها الاقتصادية ولا نشاط أفرادها ولا سعة نظراتها هي التي تكفل لها صفة البورجوازية . لذلك نراها في بداياتها وخلال مدة طويلة تظل بورجوازية موظفين . فالوظائف التي تحتلها في الادارة الوطنية الجديدة هي التي تهب لها الهدوء والمتانة . حتى اذا أتاح لها الحكم الوقت الكافي والامكانيات اللازمة استطاعت أن تنسج لنفسها جوربا صغيرا من الصوف يعزز سيطرتها . ولكنها تظل عاجزة عن خلق مجتمع بورجوازي حقيقي مع كل النتائج الاقتصادية والصناعية التي يعترضها قيام هذا المجتمع .

ان البورجوازية الوطنية تتجه منذ البداية الى فعالية وساطية . فالأساس الذي تقوم عليه سلطتها انما هو براعتها في التجارة وقدرتها على خط الوكالات . فليست أموالها هي التي تعمل ، بل مهارتها في عقد الصفقات انها لا تستثمر أموالا ، ولا تستطيع تحقيق ذلك التجمع لرأس المال ، الضروري لقيام بورجوازية حقيقية وازدهارها . ولو سارت بهذه الخطى لاحتاجت الى قرون من أجل أن تنشىء نواة تصنيع ، ولاصطدمت على أقل تقدير بمعارضة الدولة المستعمرة القديمة التي تكون في اطار الاتفاقات التي تنتمي الى نوع «الاستعمار الجديد قد اتخذت جميع احتياطاتها .

فاذا أراد الحكم أن يخرج البلاد من الركود وأن يسير بها في طريق النمو والتقدم بخطى سريعة ، كان يجب عليه قبل كل شيء أن يؤمم قطاع الوساطة . ذلك أن البورجوازية التي تغلب روح الربح واللذة وتقف من الجمهور مواقف احتقار ، وتتهالك على الفائدة بل على السرقة ذلك التهالك الفاضح ، انما تصب كل نشاطها على ذلك القطاع ، ان البورجوازية الوطنية الناشئة تغزو ميدان الوسطة الذي كا

يحتله المستوطنون المستعمرون . ان ميدان الوساطة هو في الاقتصاد الاستعماري أهم الميادين . فاذا أردنا التقدم كان علينا أن نؤمم هذا القطاع منذ الساعات الأولى ولكن من الواضح أن هذا التأميم يجب أن لا يأخذ طابع سيطرة الدولة على هذا القطاع سيطرة صلبة جامدة . يجب أن لا نعين لهذه المصالح رؤساء لا يملكون وعيا سياسيا . فلقد لاحظنا في جميع الحالات التي تم فيها التأميم بهذه الطريقة السيئة أن السلطة قد ساهمت في انتصار دكتاتورية يمارسها موظفون تلقوا ثقافتهم في عاصمة البلاد المستعمرة ، فسرعان ما ظهروا عاجزين عن فهم الأمور على أساس مجموع ألامة . ان هؤلاء الموظفين سرعان ما يأخذون في تخريب الاقتصاد القومي ، وتفكيك الأجهزة ، فاذا الفساد والرشوة والتحيز والمحاباة والتهريب والتحايل والسوق السوداء ، اذا كل ذلك يظهر ويستقر . يجب أن يكون تأميم قطاع الوساطة تنظيما ديمقراطيا لتعاونيات البيع والشراء ، وأن تكون هذه التعاونيات لامركزية لجعل الجماهير تهتم بادارة الشؤون العامة . وذلك كله لا يمكن تحقيقه ، كما ترون ، الا بادخال الجماهير في الحياة السياسية . والواقع أن مبدأ ادخال الجماهير في الحياة السياسية أصبح مبدأ معروفا في البلدان المتخلفة . ولكن ليس يبدو أن هذه المهمة الأساسية مفهومة فهما صحيحا . يؤكدون ضرورية ادخال الشعب فيالحياة السياسية فأنما يعنون في الوقت نفسه أنهم يريدون أن يدعمهم الشعب في عملهم . ن الحكومة التي تصرح بأنها تريد ادخال الشعب في الحياة السياسية نما تعبر عن رغبتها في أن تحكم من الشعب ومن أجل الشعب . ولكن يجب ان لا يكون هذا لغة غايتها تقنيع اتجاه بورجوازي . ان الحكومات لبورجوازية في البلاد الرأسمالية قد تجاوزت منذ زمن طويل هذه المرحلة لصبيانية من الحكم . انها الآن تحكم ، بهدوء وبرود ، بواسطة قوانينها

وقوتها الاقتصادية وشرطتها . انها ، وقد أصبحت سلطتها متينة وطيدة ، غير مضطرة الى أن تضيع وقتها في مواقف ديماغوجية ، انها تحكم بما يحقق مصالحها ، جيئة غير هيابة . لقد أوجدت مشروعية ، فهي قوية بحقها .

أما الفئة البورجوازية في البلاد التي استقلت حديثا فانها لا تتصف بعد بما تتصف به البورجوازية القديمة من استخفاف ورباطة جئش قائمين على القوة . ومن ثم نرى لديها ذلك الاهتمام باخفاء قناعاتها العميقة ، وبالتظاهر بالشعبية ... ولكن أدخال الشعب في الحياة السياسية لا يكون بحشد عشرات الالوف أو مئات الألوف من الرجال والنساء ثلاث مرات أو أربع مرات في العام . ان هذه الاجتماعات التي تعقد من حين الى حين تشبه الأسلوب القديم الذي كا يتبع قبل الاستقلال حين كان هؤلاء الناس يعرضون قواهم بغية أن يبرهنوا لأنفسهم وللآخرين على أن الشعب معهم . ان ادخال الشعب في الحياة السياسية لا يعني أن ترده طفلا ، بل أن تجعله راشدا .

وهذا يقودنا الى الكلام على دور الحزب السياسي في بلد متخلف . لقد رأينا في الصفحات السابقة أن هناك أناسا ممن ينظرون الى الامور نظرة تبسيطية ، وهم ينتمون من جهة أخرى الى البورجوازية الناشئة ، ما يفتأون يرددون في كثير من الأحيان أن من الضروري أن تقاد الامور في البلد المتخلف بسلطة قوية وحتى بحكم دكتاتوري . وعلى هذا الأساس يكلف الحزب بمهمة مراقبة الجماهير . ويكون سندا لرجال الادارة والشرطة ، فيراقب الجماهير لا ليتأكد على أنها تشارك في شؤون الامة حقا ، بل ليذكرها دائما بأن السلطة تنتظر منها الطاعة والنظام والخضوع . ان هذه الدكتاتورية التي نظن انها ضرورية غداة الاستقلال ، انما تشير في الواقع الى أن الفئة البورجوازية قد قررت أن

تحكم البلد المتخلف بمساندة الشعب أولا ، وضد الشعب بعد ذلك . وما تحول الحزب شيئا فشيئا الى مصلحة مخابرات الا دليل على أن الحكومة أخذت تقف موقفا دفاعيا أكثر فأكثر . ان الحكومة التي تنظر الى الشعب نظرتها الى كتلة ليست بذات شكل ، تعد الشعب قوة عمياء يجب ترويضها سواء بالتضليل أو بالخوف الذي توقظه في نفسها قوى الشرطة . وليس الحزب الا بارومترا ، الا مصلحة مخابرات . انهم يحيلون عضو الحزب الى جاسوس . ويعهدون اليه بمهمات تأديبية في القرى . فاذا كانت هناك نواة حزب معارض ضرب أعضاؤه بالعصا والحجارة من أجل تصفيتهم . حتى أن مرشحي المعارضة يرون الحريق يشب في بيوتهم . وتضاعف الشرطة اتفزازاتها . وطبيعي ان الحزب في هذه الظروف حزب واحد ، والطبيعي والحالة هذه أن يفوز مرشح الحكومة ب 99,99% من الأصوات . يجب علينا ان نعترف ان سلوك عدد من حكومات افريقيا هو هذا السلوك . ان جميع احزاب المعارضة — وهي احزاب تقدمية على وجه العموم — التي عملت على أن يكون للجماهير مزيد من التاثير في إدارة الشؤون العامة ، والتي تمنت ازاحة البورجوازية الحقيرة التجارية ، قد اضطرت الى الصمت بقوة السياط والسجون ، ثم الى التنظيم السري .

ان الحزب السياسي في كثير من المناطق الافريقية التي أصبحت الآن مستقلة يعاني افلاسا خطيرا كل الخطورة . والشعب لا يزيد ، اذا حضر عضو من أعضاء الحزب ، على أن يصمت وعلى أن يتظاهر بأنه حمل وديع ، وعلى أن يكيل الأماديح جزافا للحكومة وللزعيم . ولكن ليتكم تسمعون في الشارع عند المساء ، في ظاهر القرية أو في المقهى أو على النهر ، ليتكم تسمعون تعبير الشعب عن خيبة ظنه ، عن المرارة التي تعتمل في نفسه ، عن اليأس الذي يملأ قلبه ، ولكن أيضا عن

الحق المكظوم الذي يضطرم في أعماقه . ان الحزب ، بدلا من ان يشجع على تعبير الشعب عن شكاواه وأوجاعه ، وبدلا من أن يجعل مهمته تسهيل انتقال أفكار الشعب الى القيادة انتقالا حرا ، ينصب نفسه حاجزا ومانعا . ان قادة الحزب يتصرفون تصرف جنود برتبة عريف ، وما يفتأون يذكرون الشعب بضرورة «الصمت في الصف» . ان هذا الحزب الذي كان يعلن أنه خادم الشعب ، وانه يعمل على تحقيق الازدهار للشعب ، ما أن تعهد اليه السلطة الاستعمارية بالحكم حتى يسارع الى اعادة الشعب الى كهوفه . وعلى صعيد الوحدة القومية ايضا يرتكب الحزب الاخطاء تلو الاخطاء ، ان الحزب الذي يزعم أنه حزب قومي يتصرف تصرف حزب قبلي . انه قبيلة صارت حزبا . ان هذا الحزب الذي ينادي بالقومية ويؤكد أنه يتكلم بلسان الشعب كله ، يمارس في السر دكتاتورية قبلية حقيقية ، حتى لقد تكون هذه الدكتاتورية القبلية صريحة مكشوفة في بعض الأحيان . ونحن لا نشهد عندئذ دكتاتورية بورجوازية ، بل دكتاتورية قبلية . فالوزراء ، ورؤساء المكاتب ، والسفراء والمحافظون ، أنما يتم اختيارهم من بين أفراد قبيلة الزعيم ، حتى لقد يتم اختيارهم من بين أفراد أسرته رأسا في بعض الأحيان . ان هذه الأنواع العائلية من الحكم تذكر بالقوانين القديمة التي كانت تفرض ان لا يتزوج الرجل الا امرأة من أسرته . والمرء لا يشعر ازاء هذه الحماقة بالغضب بل بالعار ، انه يشعر بالعار تجاه هذا الانحطاط العقلي والروحي . ان رؤساء الحكومات هم الخونة الحقيقيون ، هم الذين يخونون افريقيا ، لأنهم يبيعونها لعدو هو ألد أعدائها طرا : الحماقة ولا شك في أنكم تقدرون أن سيطرة هذه القبلية على الحكم لابد أن تؤدي الى الاقليمية والى الانفصالية . فاذا نحن نرى اتجاهات لا مركزية تظهر وتنتصر ، واذا الشعب يتفكك وتتقطع

أوصاله . ان الزعيم الذي كان ينادي «وحدة افريقيا» وهو لا يفكر الا في عائلته ، يستيقظ ذات صباح فاذا هنالك خمس قبائل تطالب هي أيضا بأن يكون لها سفراؤها ووزراؤها ، فيأخذ يندد «بالخيانة» وهو لا يزال على ما كان عليه من فقدان الشعور بالمسؤولية ، ومن فقدان الوعي ، ومن صغار النفس .

لقد أشرنا مرارا الى ان الدور الذي يقوم به الزعيم كثيرا ما يكون دورا ضارا مشوما . ان الحزب في بعض المناطق يكون منظما كتنظيم عصابة يتولى قيادتها الشخص الذي يكون أشد أعضائها قسوة . ويحلو لبعضهم أن يتحدث عن سيطرة هذا الزعيم وعن قوته ، حتى قد يتورع أن يقول بلهجة فيها الرضا والاعجاب ان هذا الزعيم يرعب أقرب المقربين اليه من معاونيه . فلكي نتحاشى هذه المخاطر الكثيرة يجب أن نناضل في كثير من العناد والصمود في سبيل ان لا يستحيل الحزب أبدا الى أداة طيعة بين يدي زعيم . ان كلمة زعيم الانكيزية Leader مشتقة من فعل : ساق يسوق . فيجب ان نعلم ان الشعب لا يساق الآن سوقا . ليست الشعوب الأن قطعانا تساق ، ولا هي في حاجة الى أن تساق : واذا سافني الزعيم فانني أريد ان يعلم في الوقت نفسه أنني أسوقه . ما ينبغي ان تكون الأمة كتلة يصرف شؤونها رجل . ومن هنا نفهم ذلك الذعر الذي يستولي على الاوساط الحاكمة حين يصاب واحد من هؤلاء الزعماء بمرض . ذلك أن المسألة التي تشغل بال هذه الاوساط وتقض مضاجعها هي مسألة الخلف الذي سيخلف الزعيم اذا مات . ما عسي ان تسير اليه البلاد اذا مات الزعيم ؟ ان الاوساط الحاكمة التي امحت أمام الزعيم غير شاعرة بالمسؤولية غير واعية للوضع ، مشغولة بالحياة المرفهة التي تعيشها ، وبالحفلات التي تشهدها ، وبالأسفار المأجورة التي تقوم بها والارباح الكثيرة التي

تجنيها ، ان هذه الأوساط الحاكمة تشعر من حين الى حين بالفراغ الروحي الذي يرين في قلب الشعب .

ان البلاد التي تريد حقا أن تحل القضايا التي يطرحها عليها التاريخ ، التي تريد حقا أن تحقق لمدنها الازدهار ، وأن تنمي عقول سكانها ، يجب ان يكون لها حزب حقيقي . وليس الحزب أداة بين يدي الحكومة ، بل الحزب أداة بين يدي الشعب . الحزب هو الذي يقرر السياسة التي تطبقها الحكومة . ليس الحزب ، وما ينبغي للحزب أن يكون ــ المكتب السياسي الذي يلتقي فيه أعضاء الحكومة وكبار المسؤولين على راحتهم . ان المكتب السياسي كثيرا ما يكون الحزب كله وا أسفاه ! وأعضاء المكتب السياسي يقيمون دائما في العاصمة . مع ان من الضروري في البلاد المتخلفة أن يفر المسؤولون الحزبيون من المدن فرارهم من الطاعون . ان عليهم أن يقيموا في المناطق الريفية ، الا عددا قليلا منهم . يجب ان نتحاشى تركيز كل شيء في المدينة الكبيرة . وما من عذر من الاعذار الادارية يمكن أن يسوغ هذا الغليان الشديد في العاصمة التي تشكو منذ الآن من فرط عدد السكان ومن فرط النمو بالقياس الى تسعة أعشار مساحة البلاد . يجب تخليص الحزب من التمركز الى كل حد ممكن . فتلك هي السبيل الوحيد الى تنشيط المناطق الميتة التي لم تستيقظ على الحياة بعد .

يجب عمليا أن يقيم عضو واحد على الأقل من أعضاء المكتب السياسي في كل منطقة من المناطق ، ويجب أن نتحاشى تعيينه رئيسا للمنطقة . يجب أن لا يتسلم سلطات ادارية . ليس من الضروري أن يحتل عضو المكتب السياسي أعلى مركز في الجهاز الاداري للمنطقة . يجب أن لا يكون جزءا من السلطة بالضرورة . يجب أن لا يكون الحزب في نظر الشعب هو السلطة ، بل الجهاز الذي بواسطته

يستطيع الشعب من حيث هو شعب ان يمارس سلطته ويحقق ارادته . وكلما فرقنا بين الحزب والحكم ، أزلنا ازدواج السلطة وكنا نكفل للحزب ان يحقق رسالته كمرشد وموجه ، كما كنا نكفل له أن يكون في نظر الشعب ضمانه حاسمة . أما اذا كان هناك اندماج بين الحزب والسلطة ، كان الانتساب الى الحزب يعني سلوك الطريق الأقصر الى تحقيق غايات أنانية ، الى الحصول على منصب في جهاز الحكم ، الى نيل ترفيع في الوظيفة أو تغيير في الوضع ، أو ما الى ذلك .

ان من شأن القيادات المحلية النشيطة في البلاد المتخلفة أن توقف عملية تضخم المدن ، وأن تحول دون تدفق الجماهير الريفية الى هذه المدن تدفقا مضطربا غير متسق . ان خلق قيادات محلية منذ الأيام الأولى للاستقلال ، قيادات تملك في المنطقة كل الصلاحيات اللازمة لايقاظ المنطقة واحيائها وتعجيل وعي المواطنين فيها ، ان خلق هذه القيادات المحلية ضرورة ليس في وسع أي بلد يريد التقدم أن يفلت منها ، والا رأينا المسؤولين الحزبيين ورجال الحكم يتجمعون حول الزعيم ، ورأينا الادارات تتضخم ، لا لأنها تنمو وتتنوع ، بل لأن أقرباء جددا وحزبيين جددا ينتظرون منصبا ويأملون أن يتسربوا الى عجلة الوظائف ، ورأينا كل مواطن يحلم أن يجيء الى العاصمة لينال نصيبه من الحلوى ، ورأينا المناطق البعيدة تخلو من سكانها ، والجماهير الريفية التي ما نظمت ولا ربيت ولا دعمت ، تتحول عن الأرض التي لم تحسن حرثها وتتجه الى الضواحي المحيطة بالمدن ، فتتضخم بها البروليتاريا تضخما لا يقف عند حد .

وتوشك الأمة أن تعاني أزمة وطنية اقتصادية جديدة . اننا نعتقد أن المناطق الداخلية في البلاد هي التي يجب أن تخص بالامتياز . بل قد لا يكون هناك أي ضرر من انتقال الحكومة الى مكان غير العاصمة .

يجب أن لا تظل العاصمة عاصمة الى الأبد . يجب أن نبرهن للجماهير المحرومة أننا من أجلها انما نقرر أن نعمل . وهذا ما حاولته الحكومة البرازيلية ، بمعنى من المعاني ، حين شيدت برازيليا . ان امتيازات ريودي جانيرو اهانة للشعب البرازيلي . ولكن من المؤسف ان العاصمة الجديدة برازيليا لا تقل عن العاصمة الأولى شموخا أشوه . والفائدة الوحيدة التي تحققت من تشييد هذه العاصمة الجديدة انه يوجد الآن طريق يشق الغابات ليدخل اليها . نعم ليس هناك أي باعث ذي بال يمكن أن يحول دون اختيار عاصمة أخرى . وان يمنع انتقال مجموع الحكومة الى منطقة من المناطق المحرومة . ان فكرة العاصمة في البلاد المتخلفة هي فكرة تجارية من مخلفات عهد الاستعمار . يجب علينا في البلاد المتخلفة أن نضاعف الاتصال بالجماهير الريفية . علينا أن نجعل سياستنا قومية تتناول الجماهير . يجب أن لانفقد اتصالنا بالشعب الذي كافح في سبيل استقلاله وفي سبيل تحسين حياته تحسينا محسوسا ملموسا .

ان على الموطفين والفنيين من أهل البلاد ان يغوصوا لا في الخطوط البيانية والاحصاءات ، بل في جسم الشعب . يجب عليهم أن لا يغضبوا أشد الغضب كلما أريد نقلهم الى «المناطق الداخلية» . يجب أن لا نرى بعد الآن أولئك النساء الشابات في البلدان المتخلفة يهددن أزواجهن بالطلاق اذا هم لم يتوسلوا بجميع الذرائع الممكنة ليحولوا دون تعيينهم لوظيفة في الريف . لذلك كان لزاما على المكتب السياسي للحزب أن يجعل المناطق المحرومة هي المناطق التي يخصها بالامتياز . وينبغي لحياة العاصمة ، الحياة المصطنعة السطحية اللازقة بالواقع القومي لزوق جسم غريب عنه ، أن لا تحتل الا أقل مكان ممكن في حياة الأمة التي هي الحياة الاساسية المقدسة .

وعلى الحزب في البلاد المتخلفة أن لا يكتفي بالاتصال بالجماهير ، وانما ينبغي له أن يكون تعبيرا مباشرا عن الجماهير . ليس الحزب جهازا مهمته نقل أوامر الحكومة ، بل الحزب هو الناطق القوي بلسان الجماهير ، وهو المدافع الصامد عن الجماهير . وللوصول الى فهم الحزب هذا الفهم يجب قبل كل شيء أن نتحرر من تلك الفكرة الغربية جدا ، البورجوازية جدا وبالتالي المسيئة جدا ، الفكرة القائلة بأن الجماهير عاجزة عن قيادة نفسها . ان التجربة تبرهن في الواقع على أن الجماهير تفهم أعقد المشكلات فهما كاملا . ان من أهم الخدمات التي أدتها الثورة الجزائرية للمثقفين الجزائريين أنها وصلتهم بالشعب ، وأتاحت لهم أن يروا ذلك البؤس الفظيع الرهيب الذي يعانيه الشعب وأن يشهدوا في الوقت نفسه يقظة الذكاء وتقدم الوعي الذى يعانيه الشعب ، ان الشعب الجزائري ، هذه الكتلة من الجائعين والأميين ، من الرجال والنساء الذين ظلوا غارقين في أحلك ظلمات الجهل قرونا صويلة ، قد صمد للدبابات والطائرات ، للقذائف المحروقة والدوائر السيكولوجية ، وصمد خاصة لمحاولات الرشوة والافساد وغسل الدماغ ، وصمد للخونة والجيوش «الوطنية» التي يقودها الجنرال بيلوني . صمد هذا الشعب رغم الضعاف والمترددين والأجراء ، صمد لان كفاحه خلال سبع سنين قد فتح له ميادين كان لا يتصور حتى وجودها . واليوم تعمل مصانع الاسلحة في الجبال على عمق عدة امتار تحت الأرض ، وتعمل محاكم للشعب بجميع درجاتها ، وتتولى لجان محلية للتخطيط حصر الملكيات الكبيرة ، استعدادا ليزوغ جزائر الغد . قد يعجز رجل منعزل عن فهم مشكلة من المشاكل أما الجماعة ، أما القرية بكاملها فانها تفهم الأمور بسرعة تحير العقل . صحيح أنك اذا حرصت كل الحرص على أن تستعمل لغة لا يفهمها الا الحاصلون على

شهادة اليسانس في الحقوق أو العلوم السياسية ، تستطيع أن تبرهن على أن الجماهير يجب أن تساق سوقا اما اذا استعملت اللغة المحسوسة الواضحة ، ولم تكن ممن يستبد بهم حرص شاذ على تلبيس الأمور ، على التخلص من الشعب ، فانك ما تلبث أن تدرك أن الجماهير تدرك أدق المشكلات وأرهف المسائل . ان لجوءك الى لغة تكنيكية معناه أنك قررت أن تعد الجماهير جاهلة. ان هذه اللغة تدل على رغبة اصحابها من المحاضرين في أن يخدعوا الشعب وفي أن يدعوه خارج القضية . ليس استعمال لغة غامضة الا قناعا يخفي وراءه حرصا على النهب . ان من يستعمل هذه اللغة الغامضة انما ينتزع من االشعب رزقه وسيادته معا . ان المرء يستطيع أن يشرح للشعب كل شيء متى أراد حقا أن يفهمه الشعب . فاذا ظن أنه ليس في حاجة الى الشعب ، اذا حسب أن الشعب يعرقل سير الشركات الخاصة ذات المسؤولية المحدودة ، التي تهدف الى جعل الشعب يعاني مزيدا من البؤس والفقر ، فقد حسمت المشكلة ..

من ظن أن في الامكان أن يقاد بلد من البلدان دون أن يقحم الشعب أنفه في ذلك ، من ظن أن الشعب يبلبل بمجرد حضوره الامور ، فيؤخر التقدم أو يخرب الوضع بجهله الطبيعي ، من ظن ذلك فلا تردد عنده : يجب ابعاد الشعب . ولكن الواقع هو أن الشعب اذا دعي الى قيادة البلاد لا يؤخر الحركة بل يعجلها . وقد أتيح لنا نحن معشر الجزائريين خلال هذه الحرب التي نخوضها ان نلمس بأيدينا عدة أشياء ، أن المسؤولين السياسيين والعسكريين من رجال الثورة قد واجهوا في بعض المناطق الريفية ظروفا اقتضت حلولا جذرية . وسنعرض الآن لبعض هذه الظروف .

في أثناء عامي 1956 و 1957 حرم الاستعمار الفرنسي بعض

المناطق ، فأصبح تنقل الاشخاص في هذه المناطق خاضعا لقيود صارمة . وأصبح الفلاحون لا يستطيعون أن يذهبوا الى المدينة بحرية لتجديد مؤنهم . فأخذ البقالون يكدسون أرباحا ضخمة ، حتى بلغت أسعار الشاي والقهوة والسكر والتبغ أرقاما خارقة ، وانتصرت السوق السوداء انتصارا هائلا . وأصبح الفلاحون الذين لا يستطيعون المقايضة يرهنون محاصيلهم بل وأراضيهم ، أو يأخذون يبيعون ارث الأسرة قطعة قطعة ، ثم ينتهون في مرحلة ثانية الى العمل في الأرض لحساب البقال . فما أن أدرك المفوضون السياسيون هذا الخطر حتى بادروا الى اتخاذ الاجراءات اللازمة فورا ، فوضعوا نظاما عقليا للتموين : فالبقال الذي يذهب الى المدينة عليه أن يشتري بضائعه من تجار وطنيين يعطونه فواتير تذكر فيها أسعار البضائع ، حتى اذا عاد الى القرية كان عليه أن يذهب فورا الى المفوض السياسي الذي يدقق في الفواتير ، ويحدد الربح ويعين تسعيرة البيع . وعلى البقال بعد ذلك أن يسجل على البضائع في حانوته أسعارها المفروضة ، ويكون هنالك رجل من رجال القرية يبصر الفلاح بأسعار البضائع ويكون أشبه برقيب على البقال . غير أن البقالين ما لبثوا أن اكتشفوا حيلة يلجأون اليه ، فما هي الا أيام ثلاثة أو أربعة حتى يدعوا أن البضاعة قد نفذت ، ثم يأخذون يبيعون خفية بأسعار فاحشة .

وكان رد السلطة السياسية العسكرية جذريا ، فرضت غرامات ضخمة على المخالفين ، وجمعت الغرامات وأودعتها صندوق القرية لانفاقها في البر ، أو لاستعمالها في أعمال ذات مصالح مشتركة . حتى لقد تقرر في بعض الاحوال اغلاق الحانوت الى أجل مسمي . فاذا تكررت المخالفة صودر المحل فورا وعهد الى لجنة منتخبة بادارته ، وأعطى صاحب المحل مرتبا شهريا .

وعلى أساس هذه التجارب شرحنا للشعب القوانين الاقتصادية الكبرى بالاستناد الى حالات محسوسة . فلم يعد قانون تجميع رأس المال نظرية من النظريات ، بل سلوكا واقعيا جدا راهنا جدا : أدرك الشعب كيف أن في وسع فرد من الأفراد يعمل في تجارة أن يصيب ثراء كبيرا ، وأن يوسع تجارته وعندئذ فقط أخذ الفلاحون يقصون كيف ان هذا البقال كان يقرضهم أموالا بربا فاحش ، وذكر آخرون كيف أنه طردهم من اراضيهم وكيف أصبحوا عمالا بعد أن كانوا مالكين . وكلما ازداد الشعب فهما للأمور ، ازدادت يقظته وأصبح يدرك أن كل شيء متوقف عليه ، وأن سلامته رهن باتحاده ، وبمعرفة مصالحه وبتعيين أعدائه . وفهم الشعب أن الغنى الذي حصلة الأغنياء لم يكن ثمرة العمل بل كان ثمرة سرقة منظمة محمية . وأصبح لا ينظر الى الاغنياء نظرته الى أناس محترمين بل الى حيوانات مفترسة ، الى ذئاب ، الى غربان تتمرغ في دماء الشعب ، وفي مضمار آخر قرر المفوضون السياسيون ان لا يعمل أحد أجيرا لأحد ، فالأرض لمن يزرعون الأرض . وهذا مبدأ أصبح بالشرح قانونا أساسيا في الثورة الجزائرية ، وحمل المزارعين الذين كانوا يستعملون عمالا زراعيين على أن يدفعوا لهؤلاء الذين عملوا لهم أنصبة من الأرباح .

ولاحظنا عندئذ أن غلة الهكتار قد تضاعفت ثلاثة أضعاف ، وذلك رغم هجمات الفرنسيين وقصف الطائرات وصعوبة الحصول على الأسمدة . وأراد الفلاحون الذين استطاعوا عند الحصاد أن يقدروا محاصيلهم وأن يزنوها ، أرادوا أن يفهموا هذه الظاهرة ، فسرعان ما اكتشفوا أن العمل ليس أمرا بسيطا ، وأن العبودية لا تتيح العمل ، وأن العمل يفترض الحرية والمسؤولية والوعي .

في هذه المناطق التي استطعنا أن نطبق فيها هذه التجارب

البناءة ، في هذه المناطق التي شهدنا فيها تحقق الانسان بالتشريع الثوري ، أدرك الفلاحون ادراكا واضحا جدا ذلك المبدأ الذي يقول ان الانسان يستمتع بالعمل على قدر اقدامه على بذل الجهد عن وعي واضح . لقد استطعنا أن نفهم الجماهير أن العمل ليس انفاق طاقة أو تشغيل عضلات فحسب ، فانما يعمل المرء بعقله وقلبه أكثر مما يعمل بعضلاته وعرقه . وكذلك اضطررنا في هذه المناطق التي تحررت ولكنها أبعدت في الوقت نفسه عن الدورة التجارية القديمة ، اضطررنا أن نبدل الانتاج الذي كان قبل ذلك متجها نحو المدن ونحو التصدير فحسب . فنظمنا الانتاج على أساس حاجة الشعب وحاجة وحدات جيش التحرير الوطني الى الاستهلاك . ضاعفنا انتاج العدس أربعة أضعاف ونظمنا صنع فحم الخشب ، وأصبحت الخضر والفحم الحجري تأتي من مناطق الشمال الى الجنوب عن طريق الجبال ، وأخذت مناطق الجنوب ترسل اللحوم الى الشمال . وكانت جبهة التحرير الوطني هي التي قررت احداث هذا التنسيق ووضعت خطة نقل المحاصيل . ولم يكن لدينا أخصائيون في التخطيط متخرجون من مدارس الغرب الكبرى ، ولكن هذه المناطق المحررة قد بلغ الراتب الغذائي اليومي فيها حدا لم تعرفه من قبل وهو 3200 ، حريرة . ولم يكتف الشعب بتحقيق النصر في هذه التجربة ، بل أخذ يطرح مسائل نظرية . مثال ذلك : لماذا كان بعض المناطق لا يرى البرتقال قبل حرب التحرير مع أن البلاد كانت تصدر منه الى الخارج ملايين الأطنان سنويا ، ولما كان عدد كبير من الجزائريين لا يعرف العنب مع أن ملايين العناقيد من عنب الجزائر كانت تتلذذ بها الشعوب الأوروبية ؟ لقد أصبح الشعب يعرف اليوم ما يملكه معرفة واضحة . أصبح الشعب الجزائري يعلم اليوم أنه المالك الوحيد لأرض بلاده ولما

يضمه جوف هذه الأرض من ثروات . واذا كان هناك أناس لا يفهمون لماذا تحرص جبهة التحرير الوطني هذا الحرص كله على أن لا تتهاون أي تهاون في حق التملك هذا ، ولا يفهمون عزمها العنيد الوحشي على رفض اية تسوية حول هذه المبادىء ، فليتذكروا أن الشعب الجزائري أصبح اليوم شعبا راشدا ، مسؤولا ، واعيا . ان الشعب الجزائري قد أصبح اليوم شعبا مالكا .

لقد استشهدنا بمثال الشعب الجزائري في توضيح كلامنا ، لامن أجل أن نمجد شعبنا ، بل لأننا أردنا أن نبين الدور الكبير الذي حققته معركته في تنمية واعية . وواضح أم هناك شعوبا أخرى وصلت الى هذه النتيجة نفسها بطرق شتى . ان لجوء الشعب الجزائري الى استعمال القوة أمر لم يكن منه بد ، والناس يدركون اليوم ذلك أكثر مما كانوا يدركونه من قبل ، غير أن هناك مناطق أخرى استطاعت بالنضال السياسي والشرح والتنوير الذي تولاه الحزب ، أن تصل الى هذه النتائج نفسها . لقد أدركنا في الجزائر أن الجماهير في مستوى المشكلات التي تجابهها . والتجربة تدل على أن المهم في بلد متخلف ليس هو أن يفهم وأن يقرر ثلاثمائة شخص ، وانما المهم ان يفهم الشعب كله وأن يقرر كله ولو اقتضى ذلك وقتا مضاعفا ضعفين أو ثلاثة أضعاف . فالوقت الذي تنفقه في الشرح ، الوقت الذي «تضيعه» في ترعية العاملين ، لا يذهب هدرا ، بل يتدارك ويسترد في التنفيذ . يجب أن يعرف الناس الى أين هم ماضون ، ولماذا يمضون الى حيث هم ماضون ؟ ينبغي لرجل السياسة أن لا يجهل أن المستقبل سيظل مسدودا ما ظل وعي الشعب قاصرا ضعيفا كثيفا . ان علينا ، نحن رجال السياسة الافريقيين . أن تكون أفكارنا عن حالة شعبنا واضحة جدا . ولكن هذا الادراك الواضح يجب أن يظل ديالكتيكيا

الى الأعماق . ان يقظة الشعب كله لن تتم دفعة واحدة ، وانخراط الشعب في عمل البناء القومي انخراطا منظما أمر طويل ، أولا لأن طرق الموصلات ووسائل النقل غير متطورة تطورا كافيا ، وثانيا لأن الزمانية لن تكون زمانية اللحظة الراهنة أو المحصول القادم بل زمانية العالم ، وأخيرا لأن اليأس الراسخ في قرارة العقول بنتيجة السيطرة الاستعمارية ما تزال متأهبا . ولكن يجب علينا أن لا نجهل أن الانتصار على عقد الانزلاق في الطريق الأسهل ، وهي من مواريث السيطرة على البلاد ماديا وروحيا ، ضرورة ليس في وسع أية حكومة أن تتملص منها . انظروا مثلا الى العمل في عهد الاستعمار . أن المستوطنين المستعمرين لم ينقطعوا لحظة عن القول ان السكان الأصليين كسالى بطيئون . اليوم نرى في بعض البلاد المستقلة أناسا مسؤولين يعودون الى هذه النغمة ويرددون هذه الادانة . وواقع الأمر ان المستوطن المستعمر كان يريد أن يكون العبد متحمسا . كان يريد ، بنوع من التضليل ، أن يقنع العبد بأن الأرض التي يزرعها هي له ، وأن المناجم التي يفقد فيها عافيته هي ملكه . وكان المستوطن المستعمر ينسى نسيانا عجيبا أنه انما يغتني بفضل احتضار العبد . لقد كان المستوطن المستعمر يقول للمستعمر عملنا : «لتفطس أنت ، ولأغتن أنا» . وعلينا الآن أن لا نفعل مثل هذا . علينا أن لا للشعب : «لتفطش أنت ولتغتن البلاد» اذا نحن أدرنا أن نزيد الدخل القومي ، واذا نحن أردنا أن نمنع استيراد بعض المنتجات غير المفيدة بل والضارة ، واذا نحن أردنا أن نزيد الانتاج الزراعي ، وأن نحارب الأمية ، فعلينا أن نشرح للشعب الاسباب التي تدفع الى ذلك كله . يجب أن يفهم الشعب أهمية ما نقدم عليه من عمل . يجب أن يعرف الشعب الشؤون التي تتصل بالشعب . ومن هنا تفهمون ضرورة اكثار خلايا القاعدة . ان ما يحدث في كثير من

الاحيان هو أننا نكتفي بانشاء منظمات وطنية في القمة وفي العاصمة دائما . «اتحاد النساء» ، «اتحاد الشباب» ، «النقابات» ، الخ ... حتى اذا بدا لك أن ترى ماذا وراء المكتب الذي مقره العاصمة ، اذ بدا لك أن تنتقل الى القاعة الخلفية التي يجب أن توجد فيها الاضبارات والملفات ، هالك ما ستراه من فراغ ، من عدم ، من خديعة . لابد من قاعدة ، لابد من خلايا هي التي تبث في الحركة مضمونا ونشاطا . ينبغي أن تمكن الجماهير من أن تجتمع وتناقش وتقترح وتتلقى تعليمات . ينبغي أن يستطيع المواطنون ان يتكلموا وأن يعبروا وأن يبتكروا . ان اجتماع الخلية أو اجتماع اللجنة أشبه بصلاة . انه فرصة فذة تتاح للانسان فيستطيع أن يصغي وأن يتكلم . وفي كل اجتماع ، يغتني عقل الانسان وتطل عيناه على آفاق ما تنفك تتسع .

وكثرة الشباب في البلاد المتخلفة تطرح على الحكومة مشكلات خاصة يجب أن تعالج معالجة واضحة . ا الشبيبة التي تعيش في المدن ولا تقوم بعمل والتي هي أمية في كثير من الأحيان ، تنساق في طرق كثيرة من طرق الانحلال والتفسخ . ان ألهيات البلاد المصنعة معروضة على شبيبة البلاد المتخلفة في اكثر الأحيان . والأمر الطبيعي في الواقع هو ان هناك تجانسا بين المستوى العقلي والمادي لأفراد مجتمع من المجتمعات وبين اللذات التي يستمتع بها هذا المجتمع . ولكن الشبيبة في البلاد المتخلفة تنعم بألهيات خلقت لشبيبة البلاد الرأسمالية : الروايات البوليسية ، ماكينات القمار ، الصور الفوتوغرافية الماجنة ، الأدب الخليع ، الأفلام الممنوعة عمن هم دون السادسة عشرة من العمر ، والمشروبات الكحولية خاصة . ففي الغرب نرى الجو العائلي ، والمواظبة على المدارس ، ومستوى معيشة الطبقات الكادحة ، العالى نسبيا ، نرى كل ذلك يحول بعض الشيء دون انجراف الشبيبة في هذه

الالهيات انحرافا مؤذيا . أما في بلد افريقي ،حيث النمو النفسي متفاوت ، وحيث يصطدم عالمان اصطداما عنيفا فتزعزع من ذلك التقاليد القديمة تزعزعا كبيرا ويتفكك عالم الادراك ، فان عواطف الفتى الافريقي وحساسيته يخضعان لهجمات الحضارة الغربية ويتأثران بها تأثرا كبيرا ، وكثيرا ما تعجز أسرة الفتى عن محاربة هذه الاندفاعات العنيفة بالاستقرار والتجانس .

ففي هذا المجال يجب على الحكومة أن تكون مصفاة وان تكون عامل استقرار وصمود . ان قادة «منظمات الشبيبة» في البلاد المتخلفة كثيرا ما يرتكبون خطأ فادحا ، اذ يتصورون رسالتهم على غرار رسالة قادة «منظمات الشبيبة» في البلاد المتطورة . انهم يتكلمون على ضرورة تقوية النفس ، وتربية الجسم ، وخلق الصفات الرياضية . وعندنا أن على هؤلاء القادة أن يعزفوا عن هذا المفهوم الخاطىء . ان شبيبة البلد المتخلف شبيبة عاطلة عن العمل في كثير من الأحيان ، فيجب شغلها بالعمل أولا وقبل كل شيء ، لذلك يجب أن يكون قادة منظمات الشبيبة تابعين لوزارة العمل ، ووزارة العمل التي هي حاجة ماسة في البلاد المتخلفة . يجب أن تكون على تعاون وثيق مع وزارة التخطيط التي هي حاجة ماسة أخرى في البلاد المتخلفة . يجب أن لا توجه الشبيبة الأفريقية نحو الملاعب الرياضة ، بل نحو الحقول ، ونحو المدارس . ويجب أن لا يكون ملعبهم ذلك المكان المخصص للعرض في المدن ، بل فسحة في طرف من اطراف الأرض التي يحرثونها ويزرعونها ويقدمونها للأمة . ان المفهوم الرأسمالي للرياضة مختلف اختلافا أساسيا عن المفهوم الذي يجب أن تأخذ به البلدان المتخلفة . يجب على السياسي الافريقي ان لا يعني بخلق رياضيين بل بخلق رجال واعين يكونون من جهة أخرى رياضيين . اذا لم نجعل الرياضة متكاملة مع

الحياة القومية أي مع البناء القومي ، اذا نحن رياضيين لا رجالا واعين ، فسرعان ما سنشهد تفسخ الرياضة لعبا . يجب أن لا تكون الرياضة ألهية تلهو بها بورجوازية المدن . ان المهمة الكبرى التي تقع على عاتقنا هي أن ندرك في كل لحظة ما يحدث في بلادنا . يجب أن لا ينصرف همنا الى ايجاد الفرد الفذ ، الى خلق البطل ، يجب أن نرفع مستوى الشعب ، أن ننمي عقل الشعب ، أن نجهز الشعب ، أن ننوعه أن نجعله انسانيا .

وها نحن أولاء نعود الى تلك الفكرة الهامة التي نريد أن يعتنقها جميع السياسيين الافريقيين ، أعنى ضرورة تنوير الجهد الشعبي ، ضرورة تنوير العمل ، وتخليصه من الظلام الذي تراكم عليه عبر التاريخ . ان على من يتحمل مسؤولية الحكم في بلد متخلف أن يدرك أن كل شيء مرهون أخيرا بتربية الجماهير ، بتثقيف الجماهير ، يرفع مستوى تفكير الجماهير ، بما يسمى ادخال الجماهير في السياسة .

وكثيرا ما يظن في خفة وطيش اجرامي أن ادخال الجماهير في السياسة انما يكون بالقاء خطاب سياسي كبير من حين الى حين . كثيرا ما يظن أنه يكفي أن يتولى الزعيم أو أحد المسؤولين أن يتحدث الى الجماهير بلهجة متفيهقة متعالمة عن كبريات مشكلات الساعة حتى يكون قد قام بواجبه في مضمار توعية الجماهير وادخالها في الحياة السياسية . ولكن التوعية السياسية انما تعني في الواقع فتح الأفهام ، ايقاظ العقول ، اقحام الأذهان في العالم . انها كما قال سيزار : «خلق نفوس» . ان ادخال الجماهير في الحياة السياسية لا يكون ولا يمكن أن يكون بالقاء خطاب سياسي ، وانما يكون بالعمل العنيف الدائب على افهام الجماهير أن كل شيء رهن بها ، فاذا ركدنا فهي المسؤولة عن ركودنا واذا تقدمنا فهي المسؤولة أيضا عن تقدمنا ، وأن الشعب هو

الخالق ، وأنه ما من رجل شهير يمكن أن يكون مسؤولا عن كل شيء ، وأن الأيدي الساحرة التي تحقق المعجزات انما هي أيدي الشعب . ومن أجل تحقيق هذه الأمور ، ومن أجل تجسيدها حقا ، لا بد من الابتعاد عن السيطرة المركزية الى أبعد حد ممكن من الابتعاد . ان الانتقال من القمة الى القاعدة ومن القاعدة الى القمة يجب أن لا يكون هو المبدأ الصلب الذي نتمسك به أشد التمسك لا من قبيل الحرص على الشكل ، بل لأن التقيد بهذا المبدأ هو الذي يكفل لنا السلامة . فمن القاعدة انما تصعد القوى التي تحرك القمة وتتيح لنا أن نحقق وثبة جديدة : وأعود فأقول اننا معشر الجزائريين قد أدركنا هذه الأمور بسرعة عظيمة ، فما من عضو من أعضاء أية قمة احتكر لنفسه مهمة تحقيق الخلاص . ان القاعدة هي التي تقاتل في الجزائر ، وهذه القاعدة لا تجهل أن القمة لا يمكن أن تصمد الا بما تخوضه القاعدة من كفاح يومي بطولي شاق ، لا ولا تجهل أنه ما لم يكن هنالك قمة وما لم يكن هنالك قيادة فان الفوضى والبلبلة ما تلبثان أن تهدما القاعدة ، ان القمة لا تستمد قيمتها وقوتها الا من وجود الشعب في ساحة القتال ، بل قل ان الشعب هو الذي يخلق لنفسه قمة ، وليست القمة هي التي تحمل الشعب .

يجب أن تعلم الجماهير أن الحكومة والحزب هما في خدمتها . والشعب الذي يشعر بكرامته ، الشعب الذي يعي كرامته ، لا يمكن أن ينسى هذه الحقائق . لقد قيل للشعب أثناء الاحتلال الاستعماري أن عليه أن يضحي بحياته في سبيل الكرامة ، ولكن الشعوب الافريقية سرعان ما أدركت أن كرامتها لا يجحدها المحتل فحسب ، سرعان ما أدركت أن هناك تساويا مطلقا بين الكرامة والسيادة . فالشعب الذي يتمتع بالكرامة هو الشعب الذي ينعم بالسيادة . ان الشعب الذي

يتمتع بالكرامة هو الشعب الذي يتحمل المسؤولية . وليس يجديكم أن «تبينوا» أن الشعوب الافريقية كالأطفال أو كضعاف العقول . ان للحكومة والحزب شعبا هو الذي يستحقانه ، وان للشعب بعد زمن يقصر أو يطول حكومة هي التي يستحقها .

ان التجربة المحسوسة في بعض المناطق تدل على وجود مثل هذه المواقف . ففي أثناء بعض الاجتماعات يتفق لبعض اعضاء الحزب أن يعودوا من أجل حل المسائل الصعبة ، الى هذه الصيغة : «لاشيء الا ...» . وهذا الاختصار القطعي الذي تسيطر عليه العفوية والتبسيطية سيطرة خطرة ولا يقوم على انضاج عقلي هو الذي ينتصر في كثير من الأحيان . فعلينا حين تصادف مثل هذا الصدوف عن المسؤولية لدى عضو من أعضاء الحزب لا نكتفي بتخطئته ، وانما يجب أن نجعله مسؤولا ، أن ندعوه الى المضي في تفكيره الى أقصاه ليلمس باصبعه ما يتصف به هذا القول : «لاشيء الا ...» من قسوة وشراسة ، ومن بعد عن الروح الانسانية ، ومن عقم في آخر الامر . ما من أحد يستأثر بالحقيقة ، لا القائد ولا العضو . ان البحث عن الحقيقة في أوضاع محلية انما هو من شأن الجماعة كلها . قد تكون تجربة بعض الأفراد اقدر من بعض في سرعة البت في الأمور ، قد يكون بعض الأفراد أوسع من بعضهم نظرة بحم ما أتيح لهم من خبرة . ولكن على هؤلاء أن لا يطغو على الشعب طغيانا ، لأن نجاح القرار المتخذ متوقف على التزام الشعب كله لهذا القرار التزاما منسجما واعيا . ما من أحد يمكن أن يتنصل من القضية . ان جميع الناس سيصرعون أو سيعذبون ، وان جميع الناس في اطار الاستقلال سيجوعون وسيشاركون في الفقر والركود . ان المعركة الجماعية تستلزم مسؤولية جماعية في القاعدة ومسؤولية مشتركة في القمة . نعم يجب أن

نورط جميع الناس في المعركة حتى نضمن السلامة العامة والخلاص العام . ليس هناك أيد نقية ، ليس هناك أبرياء ، ليس هناك «متفرجون» . نحن جميعا بسبيل تلطيخ أيدينا في مستنقعات أرضنا وفي الفراغ الرهيب الذي يرين على عقولنا . كل «متفرج» جبان أو خائن .

ان من واجب القيادة أن تكون الجماهير معها . والمناصرة تفترض الوعي ، تفترض فهم المهمة التي يجب النهوض بها ، تفترض حدا أدنى من ادراك الأمور ادراكا عقليا . يجب أن لا نفتن الشعب ، يجب أن لا تغرق الشعب في الانفعال والابهام . ان البلاد المتخلفة التي تقودها صفوة ثورية منبثقة عن الشعب تستطيع وحدها اليوم أن تتيح للجماهير أن تصعد الى مسرح التاريخ . ولكنني أعود فأقول يجب علينا أن نعارض معارضة شديدة حاسمة في نشوء بورجوازية وضنية ، في قيام طبقة من أصحاب الامتيازات . ان ادخال الجماهير في السياسة معناه أن نجعل الأمة كلها حاضرة في كل مواطن ، معناه أن نجعل تجربة الأمة كل مواطن . وكما قال الرئيس أحمد سيكوتوري في رسالته التي وجهها الى المؤتمر الثاني للكتاب الافريقيين : «يستطيع الانسان على صعيد الفكر أن يتشوف الى أن يكون دماغ العالم ، أما على صعيد الحياة المحسوسة الملموسة حيث نرى كل عمل يؤثر في الوجود المادي والروحي فان العالم هو دماغ الانسان دائما ، اذ على هذا المستوى انما تتجمع القدرات والوحدات المفكرة والقوى المحركة التي تحقق التقدم والكمال ، على هذا المستوى انما يتم انصهار الطاقات ويتحقق مجموع القيم الفكرية للانسان .» ان التجربة الفردية متى كانت قومية ، متى كانت خيطا في نسيج الوجود القومي لم يبق فردية محدودة ضيقة ، بل أصبحت قادرة على أن تطل على حقيقة الأمة والعالم . وكما كان كل

مقاتل في مرحلة الكفاح يحمل الأمة كلها على ذراعيه ، فكذلك يجب في مرحلة البناء القومي أن يستمر كل مواطن على أن يرتبط في عمله اليومي المحسوس بمجموع الأمة ، على أن يجسد حقيقة الأمة في حركتها ، على أن يريد انتصار الانسان هنا والآن . اذا كان بناء جسر لا يغني وعي أولئك الذين يبنون الجسر ، فلا كان الجسر ... وليظل المواطنون يعبرون النهر سباحة أو على قارب ... يجب أن لا يهبط الجسر من السماء ، يجب أن لا ينزل الجسر على المجتمع من أعلى ، بل يجب أن يخرج الجسر عن عضلات المواطنين ومن أدمغتهم . صحيح أننا ربما احتجنا الى مهندسين والى معماريين قد يكونون أجانب تماما ، غير ان على المسؤولين المحليين في الحزب أن يعملوا على ان ينفذ التكنيك الى دمة المواطن ، بحيث يستطيع المواطن ان يفهم الجسر جملة وتفصيلا وعلى أن يتصوره ويتبناه . يجب أن يستطيع المواطن ان ينسب الجسر اليه . وعندئذ فقط انما يصبح كل شيء ممكنا .

ان على حكومة تنادي بأنها قومية ان تحمل مجموع الامة ، والشبيبة في البلاد المتخلفة هي أهم قطاعات الأمة ، فيجب أن نرفع مستوى وعي الشبيبة ، يجب أن ننور الشبيبة . وهذه الشبيبة هي التي يجب أن نجدها في الجيش الوطني . فمتى قمنا بالشرح والتنوير على مستوى الشبيبة ، متى حقق «اتحاد الشبيبة الوطني» مهمته ، أعني مهمة ادماج الشبيبة في الامة ، كان في وسعنا عندئذ أن نتفادى الأخطاء التي أذت بل خربت مستقبل جمهوريات أمريكا اللاتينية . ليس الجيش مدرسة حرب بل مدرسة تنوير للمواطنين ، مدرسة سياسية . ليس الجندي في أمة راشدة جنديا مستأجرا بل هو مواطن يدافع عن الأمة بالسلاح لذلك كان من الأمور الأساسية أن يعرف الجندي أنه في خدمة بلده لا في خدمة ضابط من الضباط مهما يكن لهذا الضابط

من هيبة وتأثير . يجب أن نستفيد من الخدمة الوطنية ، المدنية والعسكرية ، في رفع مستوى الوعي القومي ، في القضاء على القبلية ، في توحيد الرجال والنساء . يجب على البلاد المتخلفة أن تتحاشى الاستمرار على التقاليد الاقطاعية التي تغلب عنصر الرجال على عنصر النساء . يجب أن تنال النساء منزلة كمزلة الرجال سواء بسواء لا في مواد الدستور بل في الحياة اليومية ، في المصنع ، وفي المدرسة ، وفي المجالس . واذا كانت البلاد الغربية تضع العسكريين في ثكنات ، فليس هذا أحسن الحلول دائما . لسنا مضطرين الى جعل المجندين عسكريين . ان خدمة العلم يمكن أن تكون مدنية مثلما يمكن أن تكون عسكرية ، ويجب على كل حال أن يكون كل مواطن سليم قادرا على أن ينضم في كل لحظة الى وحدة من وحدات القتال دفاعا عن المكتسبات القومية والاجتماعية .

ان الانشاءات الكبرى ذات المصلحة المشتركة يجب أن نستطيع تنفيذها بواسطة المجندين . تلكم وسيلة رائعة لتنشيط المناطق الراكدة ، ولإصلاع عدد كبير من المواطنين على واقع البلاد . يجب أن نتحاشى تحويل الجيش الى هيئة مستقلة يحملها الفراغ والتعطل وعدم وجود مهمة تضطلع بها على أن «تعمل في السياسة» عاجلا أو آجلا . أن جنرالات الصالونات يحلمون باستلام السلطة من كثرة ما يختلفون الى مكاتب السلطة . والسبيل الوحيدة الى تفادي ذلك هي أن نحمل الوعي السياسي الى الجيش ، هي أن ندخل الجيش في حياة الأمة . وكذلك يجب أن نبادر الى مضاعفة الحرس الوطني . فاذا قامت حرب كانت الامة كلها تقاتل وتعمل . يجب أن لا يكون هناك جنود محترفون ، ويجب أن نخفض عدد الضباط المحترفين الى أدنى حد ، أولا لان الضباط ينتقون في أكثر الأحوال من بين صفوف الجامعيين الذين

يمكن أن يكونوا أنفع كثيرا في هذا المجال : ان الأمة أحوج ألف مرة الى مهندس منها الى الضابط ، وثانيا لأن علينا أن نتحاشى تبلور عقلية طبقية عسكرية . لقد رأينا على الصفحات السابقة أن الدعوة القومية ، هذه الأنشودة الرائعة التي أثارت الجماهير على المتسلط الغاشم ، تتحلل غداة الاستقلال ، لأنها لم تكن عقيدة سياسية ولم تكن برنامجا اجتماعيا . فاذا أردنا حقا أن نجنب البلاد أمثال هذه النكسات وهذه الوقفات وهذه التدهورات كان علينا أن نسارع الى الانتقال من الوعي القومي الى الوعي السياسي والاجتماعي . لا وجود للأمة الا ببرنامج تنضجه قيادة ثورية وتعتنقه الجماهير اعتناقا قائما على الفهم الواضح والحماسة الثابتة . ويجب علينا دائما أن نضع الجهد القومي في هذا الاطار العام ، اطار البلاد المتخلفة . يجب أن تكون الجبهات التي نقاتل فيها ، جبهة الجوع ، جبهة الجهل ، جبهة البؤس ، جبهة تأخر الوعي ، يجب أن تكون هذه الجبهات ماثلة في أذهان رجالنا ونسائنا وفي عضلاتهم ، ويجب ان يكون عمل الجماهير وعزمها على تحطيم الحواجز التي ابعدتها عن تاريخ العقل الانساني قرونا طويلة ، يجب أن يكون هذا العمل وهذا العزم مرتبطين بعمل وعزم سائر الشعوب المتخلفة . هناك نوع من الجهد الجماعي والمصير المشترك في مستوى الناس المتخلفين . ان الأنباء التي تهم شعوب العالم الثالث ليست هي الأنباء التي تتحدث عن زواج الملك بودوان أو عن فضائح البورجوازية الايطالية . ان ما نريد أن نعرفه هو التجارب التي قام بها الأرجنتينيون أو البرمانيون في مضمار مكافحة الامية أو محاربة النزعات الدكتاتورية لدى الحكام . تلكم عناصر تقوينا ، وتعلمنا ، وتضاعف جدوى عملنا . هكذا ترون أن وجود برنامج أمر لابد منه لحكومة تريد حقا أن تحرر الشعب سياسيا واجتماعيا : هو برنامج اقتصادي ،ولكنه

أيضا يذهب في توزيع الثرات وفي العلاقات الأجتماعية . فالواقع أنه يجب أن يكون لنا مفهوم عن الانسان ، يجب أن يكون لنا مفهوم عن مستقبل الانسانية . معنى ذلك انه ما من أسلوب ديماغوجي ، وما من تواطؤ مع المحتل القديم يمكن أن يغني عن برنامج . ان الشعوب التي كان ينقصها الوعي ثم أصبحت تسير في طريق الوعي سيرا حثيثا تطالب بهذا البرنامج مطالبة قوية . ان الشعوب الافريقية ، والشعوب المتخلفة ، تبني وعيها السياسي والاجتماعي بسرعة كبيرة خلافا لما يظن والأمر الذي يمكن أن يكون خطرا هوأن تصل الى هذا الوعي الاجتماعي قبل المرحلة القومية ، لذلك قد نجد في البلدان المتخلفة مطالبة بالعدل الاجتماعي مرتبطة ارتباطا غريبا بقبلية كثيرا ما تكون بدائية . ان سلوك الشعوب المتخلفة هو سلوك أناس جائعين . معنى هذا أن أيام أولئك الذين يتسلون ويلهون في أفريقيا هي أيام معدودات . أريد أن أقول ان حكمهم لا يمكن أن يستمر الى غير نهاية . ان البورجوازية لا تقدم للجماهير غذاء غير الحماسة القومية محققة في تحقيق مهمتها ، متورطة حتما في سلسلة من المزالق والمهالك . انك ما لم تبرز مضمون الدعوة وتعمقها ، وما تحلها بسرعة الى وعي سياسي واجتماعي ، الى تطلع انساني ، فانك تسير في طريق مسدودة غير نافذة . ان القيادة البورجوازية في البلاد المتخلفة تحيل الشعور القومي الى شكلية عقيمة . لا شيء غير انخراط جماهير الرجال والنساء في القيام بأعمال نيرة حصبة يمكن ان يبث في هذا الشعور القومي مضمونا ، وان يهب له كثافة . وعندئذ لا يظل العلم الوطني وقصر الحكومة هما الرمزين اللذين يمثلان الأمة ، وانما تهجر الأمة هذه الاماكن الاصطناعية ، وتمضي الى الأرياف تستمد منها الحياة والحركة . ان التعبير الحي عن الأمة انما هو الوعي الذي يحرك مجموع الشعب ، هو العمل المنسق النير يندفع فيه

الرجال والنساء . ان تولي الجماعة بناء مصيرها هو تحمل مسؤولية على مستوى التاريخ . والا فثم الفوضى ، والقمع ، وظهور الاحزاب القبلية ، وطهور الدعوة الفدرالية ، وما الى ذلك . على الحكومة القومية ، اذا هي أرادت أن تكون قومية ، أن تحكم بالشعب ومن أجل الشعب ، ان تحكم من أجل المحرومين وبالمحرومين . ما من زعيم ، مهما تكن قيمته ، يمكن أن يحل نفسه محل الارادة الشعبية . وعلى الحكومة القومية قبل أن تعني بمهابتها الدولية ، أن ترد الكرامة الى كل مواطن ، أن تجز العقول ، أت تملأ الأعين بأشياء انسانية ، أن تملأ الأفق بنظر انساني ، انساني لأنه يسكنه أناس واعون أسياد .

في الثقافة القومية

«ليس يكفي ان تؤلف اغنية ثورية حتى تشارك في الثورة الافريقية ، وانما ينبغي أن تصنع هذه مع الثورة الشعب ، ثم تأتي الاغاني من تلقاء ذاتها .

من اجل ان تؤثر تأثيرا صادقا ، يجب ان تكون انت نفسك جزءا حيا من افريقيا وفكرها ، يجب ان تكون عنصرا من عناصر هذه الطاقة الشعبية المجندة كلها لتحرير افريقيا وتقدمها وسعادتها . ليس هناك أي مكان في خارج هذه المعركة .. لا للفنان ولا للمثقف الذي ليس منخرطا هو نفسه وليس معبأ كله مع الشعب ، في المعركة الكبرى التي تخوضها افريقيا والانسانية «المعذبة» .

سيكوتوري (10)

لابد لكل جيل أن يكتشف رسالته وسط الظلام ، فاما أن يحققها واما أن يخونها . والأجيال السابقة في البلاد المتخلفة قد قامت بعملين في آن واحد : قاومت أعمال الاستنزاف التي تابعها الاستعمار ، وهيأت نضج الكفاح الذي نخوضه الآن . فيجيب علينا ونحن في قلب المعركة أن نقلع عن تلك العادة التي تعودناها وهي أن نبخس الأعمال التي قام بها آبائنا حقها ، وان نتعجب من صمتهم أو سلبيتهم . فالحق

أن آباءنا قد ناضلوا كما استطاعوا ، ناضلوا بالأسلحة التي كانوا يملكونها ايامئذ ، واذا لم تترجع اصداء نضالهم على المستوى الدولي ، فليس مرد ذلك الى نقص بطولتهم بل الى أن الظرف الدولي في ذلك العهد يختلف عن الظرف الدولي الحالي اختلافا كبيرا . لقد كان لا بد أن يقول أكثر من مستعمر : «لا يمكن أن يدوم هذا الوضع» ، وكان لابد أن تقوم أكثر من قبيلة بعصيان ، وكان لابد أن تخمد أكثر من ثورة ، وأن تقمع أكثر من مظاهرة ، كان لابد من ذلك كله حتى تستطيع *نحن اليوم أن نقوم بكفاحنا مؤمنين بالنصر .*

ان مهمتنا التاريخية نحن الذين قررنا ان نمزق احشاء الاستعمار ، هي أن نرتب جميع الثورات وجميع الأعمال المستميتة وجميع المحاولات التي أجهضت أو غرقت في الدم .

وسأحلل في هذا الفصل تلك المسألة التي نشعر أنها اساسية ، أعني مشروعة المطالبة بانشاء أمة . يجب أن نعترف ان الحزب السياسي الذي يعبىء الشعب لا يعني كثيرا بمسألة المشروعية هذه فالأحزاب السياسية تنطلق من الواقع الحي المعيش ، وهي باسم هذا الواقع ، باسم هذا الواقع الراهن الذي يجثم على الحاضر والمستقبل ، انما تدعو الى العمل . قد يتحدث الحزب السياسي عن الأمة بعبارات تؤجج العاطفة ، ولكن الشيء الذي يهمه هو أن يفهم الشعب الذي يسمع حديثه ضرورة المشاركة في المعركة اذا هو كان يطمح الى الوجود والبقاء .

لقد اصبحنا نعرف الآن الاستعمار ، في المرحلة الأولى من مراحل الكفاح الوطني ، يحاول أن يشل المطمح القومي ، باسباغ طابع اقتصادي عليه ، فتراه منذ بزوغ المطالب الاولى يتظاهر بالفهم ويعترف في تواضع مسرحي بأن البلاد تشكو من تخلف خطير يوجب بذل

جهد اقتصادي واجتماعي كبير .

حتى ليحدث في الواقع ان يتخذ الاستعمار بعض الاجراءات الخداعة ، كفتح ورشات لتشغيل العاطلين هنا وهناك ، فاذا بهذه الاجراءات تؤخر تبلور الوعي القومي بضع سنين . ولكن الاستعمار يدرك عاجلا أو آجلا أنه ليس في وسعه أن يحقق اصلاحات اقتصادية اجتماعية يمكن ان ترضى مطامح الجماهير المستعمرة . فحتى على مستوى البطن يبدو الاستعمار عاجزا راسخا . وسرعان ما تدرك الدول الاستعمارية ان اسكات الأحزاب الوطنية في المجال الاقتصادي الصرف سيوجب عليها أن تفعل في المستعمرات ما لم تسأ أن تفعله في أراضيها نفسها . وليس من قبيل الصدفة أن نرى النظرية الكارتييرية تزدهر اليوم بعض الازدهار في كال مكان (11)

ان المرارة التي شعر بها كارتييه ازاء اصرار فرنسا على أن تربط بها أناسا يجب عليها ان تطعمهم في حين أن كثيرا من الفرنسيين يعيشون في حالة أعسار ، ان تلك المرارة تظهر عجز الاستعمار عن ان يصبح برنامجا مجردا عن المنفعة للمعونة والمساعدة . لذلك أعود فأقول ان علينا ان لا تضيع وقتنا في ترديد ذلك الشعار القائل بأن الجوع مع الكرامة خير من الخبز مع العبودية . فانما يجب أن تقتنع بأن الاستعمار عاجز عن أن يوفر للشعوب المستعمرة الظروف المادية التي يمكن ان تنسيها اهتمامها بالكرامة . وكلما فهم الاستعمار الى أين يمكن أن يجره أسلوب الاصلاحات الاجتماعية رأيناه يعود الى طرائقه السابقة ، فيعزز قوى الشرطة ، ويرسل فرق الجيش ، ويقيم نظاما ارهابيا يتلاءم مع مصالحه ونفسيته تلاؤما أكمل .

اننا نرى بين رجال الاحزاب السياسية حينا ، وعلى موازاة هذه الاحزاب أحيانا ، أناسا من اهل الثقافة المستعمرين يتخذون المطالبة

بحضارة قومية والبرهان على وجود هذه الحضارة القومية ميدانا لمعركة مفضلة . فبينما نجد السياسيين يتخذون الواقع الراهن ميدانا لعملهم ، نرى رجال الثقافة هؤلاء يضعون نشاطهم في اطار التاريخ . ومن الملاحظ أن الاستعمار لا يهتم كثيرا بالرد على المثقف المستعمر الذي قرر أن يفند تفنيد النظرية الاستعمارية القائلة بأن الهمجية هي التي كانت تسود المستعمرات قبل استعمارها ، لاسيما وان الأفكار التي تقول بها الطبقة المثقفة المستعمرة الناشئة يقول بها المختصون الأوربيون أنفسهم على نطاق واسع ، فان عددا كبيرا من الباحثين الأوروبيين قد أخذوا منذ عدة عقود من السنين يحاولون ، على وجه الاجمال أن يردوا الاعتبار الى حضارات افريقيا والمكسيك وبيرو . وقد استغرب بعضهم الحماسة الشديدة التي يظهرها المثقفون المستعمرون في الدفاع عن وجود حضارة قومية . ولكن الذين يستنكرون هذه الحماسة المتأججة ينسون أن نفسيتهم ، ان ذواتهم تعتصم مرتاحة وراء حضارة فرنسية أو ألمانية برهنت على نفسها ولا يستطيع احد أن يجحدها .

واني لأسلم بأن وجود حضارة أزتكية قديمة ليس له ، على صعيد الحياة ، كبير شأن ، فهو لا يبدل شيئا من النظام الغذائي الذي يعيش عليه الفلاح المكسيكي اليوم . واني لأسلم ايضا بأن جميع البراهين التي يمكن الاتيان بها على أن حضارة سونغائية رائعة قد قامت في الماضي لا تبدل شيئا من الواقع الذي يعيشه شعب سونغاي اليوم ، وهو ان أفراد هذا الشعب لا ينالون نصيبهم من الغذاء ، ولا يعرفون القراءة والكتابة ، وانهم مقيمون بين السماء والماء قد فرغت رؤوسهم وفرغت أعينهم . ولكن سبق ان قلنا غير مرة ان هذا البحث المحموم عن حضارة قومية سابقة على العهد الاستعماري انما يستمد مشروعيته من حرص المثقفين المستعمرين على أن يتعدوا قلبلا الى الوراء أمام

الحضارة الغربية التي يهون ان يغوصوا فيها . ان هؤلاء الرجال يشعرون بأنهم يوشكون ان يفقدوا أنفسهم ، وأن يفقدهم شعبهم ، فتراهم يندفعون اندفاعا عنيفا ، وقد تأججت قلبوهم وطاشت عقولهم ، الى الاتصال بأقدم ينابيع شعبهم ، بأبعدها عن عهد الاستعمار .

ولنتوغل في التحليل اكثر من ذلك . ان هذه الحماسة الشديدة وهذا التأجج المحموم ربما كان يغذيهما أو يوجههما على الأقل ذلك الأمل الخفي الذي يقوم في نفوس هؤلاء المثقفين ، وهو ان يكتشفوا وراء البؤس الراهن ، وراء هذا الاحتقار للذات ، وراء هذا الانسحاب وهذا الانكار ، عصرا جميلا جدا ساطعا جدا يرد الينا الاعتبار في نظر أنفسنا وفي نظر الآخرين معا . اقول انني اردت ان اوغل في التحليل : لعل المثقفين المستعمرين قد ارادوا ، لا شعوريا ، حين رأوا أنهم يستطيعون أن يحبوا التاريخ الراهن الذي تعيشه شعوبهم المضطهدة ، ولا أن يعجبوا بتاريخ همجياتهم الحالية ، أرادوا ان يذهبوا الى أبعد من ذلك ، أن يهبطوا الى أبعد من ذلك ، ويجب ان لا نشك أبدا في أنهم حين اكتشفوا ان الماضي لم يكن عارا بل كرامة ومجدا وعظمة قد شعروا بنشوة لا تدانيها نشوة . ان البرهان على وجود حضارة قومية قديمة ، لا يرد الاعتبار فحسب ، لا يدل على أن حضارة قومية جديدة ستقوم في المستقبل فحسب ، وانما هو ايضا ، على صعيد التوازن النفسي العاطفي ، يحقق للمستعمر وثبة كبرى . لعل الباحثين لم يوضحوا توضيحا كافيا الى الآن كيف ان الاستعمار لا يكتفي بتكبيل الشعب ، ولا يكتفي بأن يفرغ عقل المستعمَر من كل شكل وكل مضمون ، بل هو يتجه ايضا الى ماضي الشعب المصطهد فيحاول بنوع من فجور المناطق أن يهدمه وأن يشوهه وأن يبيده .أن هذه المحاولة التي يحاولها الاستعمار اذا يجرد تاريخ البلاد المستعمرة ، السابق

على الاستعمار من كل قيمة ، انما تتخذ اليوم دلالتها الجدلية .

اننا اذا فكرنا في الجهود التي بذلت من أجل تحقيق الضياع الحضاري الثقافي الذي يتميز به العهد الاستعماري ، أدركنا انه ما من شيء تم مصادفه ، وان النتيجة الكلية التي ابتغتها السيطرة الاستعمارية هي ان تقنع السكان الأصليين بأن الاستعمار قد انتشلهم من الظلام . ان النتيجة التي سعى اليها الاستعمار سعيا واعيا هي ان يدخل في روع السكان الأصليين أن رحيل المستوطن الأوروبي سيردهم الى الهمجية والوحشية والحيوانية . فالاستعمار لم يكن يحاول اذن ان يجعل السكان الأصليين ينظرون اليه نظرتهم الى أم تترفق بهم وتعطف عليهم وتحاول ان تحمي أطفالها من بيئة ضارة ، بل نظرتهم الى أم تعمل بغير انقطاع على أن تمنع طفلا فاسد التكوين من ان يؤذي نفسه وأن يستطيع الانتحار ، وان ينجرف مع غرائزه الخبيثة . ان هذه الام المستعمرة تحمي الطفل من نفسه ، من ذاته ، من تكوينه الفزيولوجي ، من تكوينه البيولوجي ، من شقائه الوجودي .

وفي مثل هذا الظرف لا يكون مطمح المثقف المستعمر ترفا كماليا بل ضرورة عملية منسجمة . ان المستعمر الذي يضع معركته على مستوى المشروعية ، الذي يريد ان يأتي ببراهين ، الذي يرتضي ان يعري جسمه في سبيل ان يعرض تاريخ جسمه عرضا أصح ، انما هو محمول حملا على الغوص في اعماق شعبه .

وليس هذا الغوص قوميا فحسب . ان المثقف المستعمر الذي يقرر أن يعلن الحرب على الأكاذيب الاستعمارية ، ان يخوض المعركة على مستوى القارة كلها . انه يحاول ان يظهر قيمة الماضي بالنسبة الى جميع الشعوب الافريقية . ان الحضارة التي ينتزعها من غياهب الماضي لينشرها بكل ما فيها من روعة وسناء ، ليست حضارة وطنه وحده .

ان الاستعمار لم يفرق في جهوده التي بذلها في هذا المضمار بين بلد وبلد ، وانما أكد دائما ان الزنجي متوحش ، والزنجي عنده ليس هو الانجولي أو النيجري ، انما هو الزنجي عامة على اطلاق القول . لقد تحدث الاستعمار عن «الزنجي» . قال ان هذه القارة الواسعة هي مرعي متوحشين ، بلد موبوء بالخرافات والتعصب ، بلد منحط محتقر ملعون من السماء ، بلد يسكنه أكلة لحوم البشر ، بلد زنوج . ان الاحتقار الذي يمحضنا اياه الاستعمار يتناول القارة الافريقية كلها . ان قول الاستعمار بأن العهد السابق عليه كان ظلاما وهمجية ووحشية يشمل مجموع القارة الافريقية . فمن المنطقي والحالة هذه أن تتم الجهود التي يبذلها المستعمر في سبيل استرداد اعتباره وفي سبيل الافلات من هذا الشتم الذي يكيله له الاستعمار ، من المنطقي ان تتم هذه الجهود على النطاق الذي يتناوله الاستعمار نفسه . فالمستعمر المثقف الذي وعى ثقافة الغرب وقرر أن ينادي بوجود حضارة قومية ، لن يفعل ذلك باسم أنجولا او باسم داهومي . بل ستكون الحضارة التي يؤكد وجودها هي الحضارة الافريقية عامة . ان الزنجي الذي لم ينقطع يوما عن ان يكون زنجيا منذ تسلط عليه الابيض ، لابد أن يدرك حين يقرر أن يبرهن على ثقافة وحين يقرر أن يصنع حضارة ، لابد أن يدرك أن التاريخ يفرض عليه أفقا معينا ، ويدله على طريق معينة ، وأن عليه أن يظهر حضارة زنجية .

ولا مشاحة أن المسؤولين عن اضفاء هذا الطابع العرقي على الفكر أو على الخطوات التي خطاها الفكر انما هم الاوروبيون . ان الأوروبيين هم المسؤولين عن هذا ، وسيظلون مسؤولين عنه لأنهم هم الذين ظلوا وما يزالون يقابلون بين حضارة البيض وبين للاحضارات الأخرى . لقد رأى الاستعمار أن عليه ان لا يضيع وقته في انكار حضارات الأمم

الافريقية فرادي ، واحدة بعد أخرى ، وانما انكرها كلها دفعة واحدة ، لذلك كان رد المستعمر عليه يشمل القارة بأسرها كذلك . ان أدب البلاد المستعمرة الذي ظهر في افريقيا في السنين العشرين الأخيرة ليس ادبا قوميا بل هو أدب زنجي . وما هذا الاعتزاز بالأنتماء الى الادب الزنجي الا بالرد العاطفي ، ان لم يكن المنطقي ، على الاهانة التي يلحقها الانسان الأبيض بالانسانية . ان مثقفي غينيا أو كينيا الذين وجدوا أنفسهم عرضة لتعصب عرقي شامل ، ولاحتقار منظم يمحضهم اياه المستعمر المتسلط قد ردوا على ذلك بالزهو بأنفسهم والتغني بذواتهم . لقد تباهى الغرب بالحضارة الأوروبية بغير تحفظ ، فأعقب ذلك أن تباهى الأفريقيون بالحضارة الأفريقية بغير تحفظ أيضا فرأينا الشعراء الذين يتغنون بالانتماء الى الزنج يقابلون بين أوروبا التي دبت فيها الشيخوخة وبين افريقيا الفتية ،بين العقل المضجر وبين الشعر ، بين المنطق الخانق وبين الطبيعة المنطلقة المتدفقة ، بين التجمد والاحتفالات والبرتوكول والريبية وبين صفاء القلب والاندفاع والحرية والفيض والغزارة .

ولا يتردد المغنون بالزنوج عن تجاوز حدود القارة الافريقية . وهاهي ذي أصوات زنجية من أمريكا تتلقف النشيد وتزيده سعة وقوة . سيبزغ فجر «العالم الزنجي» . وهؤلاء هم بوزيا الغاني ، وبيراغو ديوب السنغالي ، وهامباتي السوداني ، وسان كيلر دراك الشيكاغوي ، يؤكدون في غير تردد وجود صلات مشتركة واتجاهات واحدة .

ونستطيع أن نضرب هنا مثالا بالعالم العربي ايضا . انكم تعرفون ان القسم الأكبر من الأراضي العربية قد شملته السيطرة الاستعمارية . وقد بذل الاستعمار في هذه المناطق جهودا كبيرة من أجل ان يرسخ في عقول أهلها أن تاريخهم السابق على الاستعمار تاريخ تسوده الهمجية .

فرأينا كفاح التحرير القومي مصحوبا بظاهرة ثقافية تعرف باسم يقظة الاسلام : رأينا الكتاب العرب يتحمسون أشد التحمس لتذكير شعوبهم بالصفحات الرائعة من تاريخهم ،ردا على أكاذيب المستعمرين ، فهم يستعرضون أسماء عظماء الأدب العربي ، ويشهرون تاريخ الحضارة العربية بعنف وقوة كما فعل الافريقيون بشأن الحضارات الافريقية ، ورأينا القادة العرب يحاولون بعث تلك الحضارة الشهيرة ، حضارة الاسلام ، التي سطعت سطوعا عظيما في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر .

وعلى الصعيد السياسي نرى الجامعة العربية اليوم تجسد هذه الارادة ، ارادة بعث تراث الماضي ودفعة الى الذروة ، كما نرى الأطباء العرب والشعراء العرب يتنادون عبر الحدود محاولين خلق ثقافة عربية جديدة ، وحضارة عربية جديدة . وباسم الوحدة العربية انما يجتمع اليوم هؤلاء الرجال ، وباسمها انما يحاولون ان يفكروا . على اننا نلاحظ في العالم العربي الشعور الوطني ، قد احتفظ حتى أثناء السيطرة الاستعمارية ، بقوة لا نجد مثلها في افريقيا . لذلك لا نرى في الجامعة العربية ذلك التواصل العفوي بين كل قطر وسائر الأقطار ،بل نرى كل قطر يحاول المفاخرة بما حققه . ان الظاهرة الثقافية قد خرجت من اللاتميز الذي تتصف به في العالم الأفريقي ، والعرب لا يتوصلون دائما الى التخلي عن النظرة الذاتية ازاء الواقع الموضوعي . فتراهم لا يعيشون واقعا ثقافيا وطنيا بل عربيا . والمشكلة التي يطرحها المثقفون العرب او الافريقيون على أنفسهم لم تصبح بعد مشكلة اقامة ثقافة وطنية ، لا ولا مشكلة اللحاق بحركة الأمم ، بل مشكلة تبني ثقافة عربية أو افريقية ازاء ما يعمد اليه الاستعمار من ادانة شاملة واحتقار عام . فعلى هذا الأساس نرى ، سواء لدى العرب ولدى الافريقيين ، أن مطمح المثقف في البلد المستعمَّر مطمح شامل هو لدى المثقف الافريقي يشمل القارة كلها ، وهو لدى المثقف العربي يشمل العالم العربي كله (12) .

هذه الظروف التاريخية التي اضطرت رجال الثقافة الافريقيين الى أن يضفوا على مطالبهم ومطامحهم طابعا عرقيا ، فاذا هم يتحدثون عن ثقافة افريقية اكثر مما يتحدثون عن ثقافة قومية ، ستؤدي بهم الى حرج لا يعرفون كيف يخرجون منه . انظروا مثلا الى «الجمعية الافريقية للثقافة» أن هذه الجمعية قد انشأها مثقفون افريقيون أرادوا أن يتعارفوا وأن يتبادلوا الخبرات والتجارب والبحوث . فكان هدف هذه الجمعية اذن هو أن يؤكدوا وجود ثقافة افريقية ، وان يثمنوا هذه الثقافة في اطار أمم معينة ، وأن يبرزوا الحيوية العميقة في كل ثقافة من هذه الثقافات الوطنية . ولكن هذه الجمعية كانت تلبي في الوقت نفسه مطلبا آخر ، هو أن تصطف الى جانب «الجمعية الأوروبية للثقافة» التي كانت تهدد بأن تصبح «جمعية عالمية للثقافة» . فلقد كان من البواعث التي دعت الى انشاء هذه الجمعية اذن ان تكون حاضرة في الاجتماع العالمي ، متسلحة لذلك الاجتماع بجميع ما تملك من اسلحة هي ثقافة نابعة من أرحام القارة الافريقية . والواقع ان هذه الجمعية سرعان ما بدت عاجزة عن القيام بهذه المهمات المختلفة ، فاذا هي تكتفي بتظاهرات تفاخر ، ولا تزيد على أن تبين للأوروبيين المتبجحين النرجسيين أن هناك ثقافة افريقية ، فكذلك كان السلوك المألوف لأعضاء هذه الجمعية . لقد سبق أن أوضحنا أن هذا الموقف طبيعي ،وأنه يستمد مشروعيته من الأكاذيب التي أشاعها رجال الثقافة الغربيون . ولكن انهيار أهداف هذه الجمعية قد تفاقم بنشوة فكرةالانتماء الى العرق الزنجي .ان «الجمعية الافريقية للثقافة» قد اصبحت جمعية ثقافية للعالم الأسود كله ، وأصبحت تشمل جميع الزنوج ، وضمت اليها عشرات الألوف من السود المتوزعين في القارتين الأمريكيتين .

والواقع أن الزنوج الموجودين في الولايات المتحدة وفي امريكا الوسطى وأمريكا اللاتينية كانوا في حاجة الى أن يتشبثوا باطار ثقافي . وكانت المشكلة المطروحة عليهم لا تختلف اختلافا عميقا عن المشكلة التي يواجهها الافريقيون . فان سلوك بيض أمريكا ازاءهم لا يختلف عن سلوك البيض المسيطرين على افريقيا ازاء الافريقيين . وقد سبق ان رأينا ان البيض قد اعتادوا ان ينظروا الى جميع الزنوج نظرة واحدة ، ان يضعوهم جميعا في كيس واحد . فلما عقد المؤتمر الأول «للجمعية الافريقية للثقافة» بباريز عام 1956 ، رأينا الزنوج الأمريكيين يطرحون مشكلاتهم من تلقاء انفسهم على نفس الصعيد الذي كان اخوتهم الافريقيون يطرحون مشكلاتهم عليه .

ولكن الزنوج الأمريكيين ما لبثوا أن اخذوا يدركون شيئا بعد شيء أن المشكلات الوجودية التي يعانونها لا تلتقي مع مشكلات الزنوج الافريقيين . لقد كان زنوج شيكاغو لا يشبهون النيجريين والطانغانيقيين الا من حيث أن هؤلاء واولئك جميعا كانوا يعرفون أنفسهم على أساس التعارض بينهم وبين البيض . حتى اذا انتهت المواجهات الأولى ، وهدأت الذاتية ، أدرك الزنوج الأمريكيون أن المشكلات الموضوعية مختلفة اختلافا عميقا ، وليس بينها شيء من التجانس . ان سيارات الحرية التي يطوفون عليها بيض وسود منادين بعدم التفريق العنصري لا تمت في مبدئها وفي أهدافها بصلة الى الكفاح البطولي الذي يخوض غماره شعب أنجولا ضد الاستعمار البرتغالي ، لذلك رأينا الزنوج الأمريكيين يقررون في المؤتمر الثاني «للجمعية الافريقية للثقافة» أن ينشئوا «جمعية أمريكية» لرجال الثقافة السود .

وهكذا فان فكرة الانتماء الى العرق الزنجي تصطدم أولا بالوقائع التي تفسر تاريخية الناس . لقد تفتتت فكرة الثقافة الزنجية ، فكرة الثقافة الزنجية الافريقية ، لأن الناس الذين ارادوا أن يجسدوها أدركوا ان كل ثقافة انما هي ثقافة قومية قبل كل شيء ، وان المشكلات التي أيقظت ريتشارد رايت أو لانجستون هوجز تختلف اختلافا اساسيا عن المشكلات التي ايقظت ليوبولد سنغور أو جومو كنياتا .

كذلك نرى ان المشكلة الثقافية ، على نحو ما هي مطروحة في البلدان المستعمرة ،يمكن ان تؤدي الى التباسات خطيرة . ان اتهام الاستعمار للزنوج بأنهم لا ثقافة لهم قد أدى منطقيا الى تجميد حماسي لا للظاهرات الثقافية القومية بل للظاهرات الثقافية الخاصة بالقارة كلها ، كما أدى الى اسباغ طابع عرقي على هذه الظاهرات الثقافية . ان سعى المثقف في افريقيا هو الى ثقافة زنجية افريقية لا الى ثقافة قومية خاصة . وبذلك تنقطع الثقافة عن الواقع الراهن ، وتروح تعتصم ببؤرة عاطفية متأججة ، وتعجز عن أن تشق لنفسها طرقا محسوسة هي الطرق الوحيدة التي يمكنها مع ذلك أن تهيىء لها صفات الخصوبة والتجانس والقوة .

وان كان التاريخ يحد عمل المثقف المستعمر ، فان عمل هذا المثقف المستعمر يساهم مساهمة كبيرة في دعم عمل السياسيين واظهار مشروعيته . ويجب أن نعترف بأن جهود المثقف المستعمر قد تأخذ في بعض الأحيان طابع عبادة ، طابع دين . ولكننا اذا أردنا ان نحلل هذا الموقف تحليلا عميقا ، أدركنا انه يعبر عن ادراك المستعمر لخطر انقطاع آخر روابطه بشعبه . فهذه المناداة الحماسية بوجود ثقافة قومية انما هي في واقع الأمر عودة حارة مستميتة الى أي شيء . فالمستعمر ،من أجل ان يكفل خلاصه ،من أجل ان يفلت من غلبة

ثقافة البيض ، يشعر ان عليه ان يرجع الى الجذور المجهولة ، وان يغرق في خضم هذا الشعب الهمجي مهما يكن من أمر . ان المستعمر ، اذ يحس انه بسبيل الضياع ، بسبيل ان يصبح محل تناقضات قد لا يمكن تجاوزها ، ينتزع نفسه من الغدير الذي يوشك ان يغوص فيه ، ويقرر بكل اندفاع جسمه واندفاع عقلة ان يحمل القضية ،وان يؤكد ، ويكتشف ان عليه ان يكون مسؤولا عن كل الأمور وعن جميع الناس . ولا يكتفي بعدئذ ان يكون مدافعا ، وانما يقبل ان يحشر مع سائر الآخرين ، وفي وسعه منذ ذاك ان يسمح لنفسه بالضحك على جبنه السابق .

وهذا الانتزاع الشائك المؤلم هو مع ذلك أمر ضروري . ما لم يتم فاننا نشهد انتبارات نفسية عاطفية هي على جانب كبير من الخطورة ، نشهد أناسا بلا شاطىء ولا حد ولا لون ولا وطن ولا جذور . كذلك لا نستغرب أن نسمع بعض المستعمرين يقولون : «انني أتكلم بصفتي سنغاليا وفرنسيا .. انني اتكلم بصفتي جزائريا وفرنسيا ...» . لقد كان على المثقف العربي الفرنسي ، أو النيجري الانجليزي ، حين اضطر الى حمل جنسيتين ، الى حمل صفتين ، أن يختار انكار احدى هاتين الصفتين ، اذا هو اراد ان يكون صادقا . ولكن هؤلاء المثقفين ، لأنهم في كثير جدا من الأحيان لا يريدون او لا يستطيعون ان يختاروا ، يلمون جميع الصفات التي عرضها عليهم التاريخ الذي كونهم ، فاذا هم يضعون أنفسهم رأسا في «أفق عالمي» .

ذلك أن المثقف المستعمر قد ارتمى على الثقافة الغربية في نهم شديد . وكالطفل المتبني الذي لا يكف عن تحرى الاطار العائلي الجديد الا حين يتبلور في نفسه حد أدنى من الشعور بالأمن ، ترى

المثقف المستعمر يحاول ان يجعل الثقافة الغربية ثقافته . انه لا يكتفي بأن يعرف رابليه أو ديدرو ، وشكسبير أو ادجار بو ، بل هو يشد دماغة الى أقصى حد من التشارك مع هؤلاء الناس :

ما كنت السيدة وحيدة
بل كان لها زوج
زوج ممتاز
«ما كانت السيدة وحيدة
بل كان لها زوج
زوج ممتاز
يروي راسين وكورناي
وفولتير وروسو
والاب هوجو والفتى موسية
وجيد رفاليري
وكثيرا غيرهم» (13)

ولكن حين تعبىء الأحزاب الوطنية الشعب في سبيل الاستقلال الوطني ، فان الثقف المستعمر قد يركل برجليه في بعض الأحيان هذه المكتسبات التي يحس فجأة انها تضيعه . ومع ذلك فان المناداة بالنبذ أسهل من النبذ حقا . فهذا المثقف الذي تغلغل بتحايل الثقافة الى المدنية الغربية ، ووصل الى ان يدمج جسمه في جسمها ، أي الى ان يفقد جسمه ، لا يلبث أن يلاحظ ان الثقافة التي يريد الآن أن يحملها لحرصه على الأصالة ، لا تملك وجوها كثيرة تصمد للمقارنة بينها وبين الوجوه الكثيرة المتألقة ، وجوه مدنية المستعمر المحتل .

صحيح ان التاريخ ــ وقد كتبه من جهة أخرى غربيون لغربيين ــ يمكن ان يهب قيمة لبعض عهود الماضي الافريقي من حين الى حين ،

ولكن هذا المثقف ، حين يقف أمام حاضر بلاده ، ويلاحظ ملاحظة واضحة «موضوعية» ، الواقع الراهن الذي تعيشه هذه القارة التي يريد ان يجعلها قارته ، يشعر برعب مما يرى من فراغ وهمجية وتوحش . واذ يشعر انه لابد له من مبارحة ثقافة البيض ، وان عليه ان يبحث عن غيرها في أي مكان ، واذ يعجز عن العثور على غذاء ثقافي من مستوى الثقافة التي يعرض عليه المستعمر منظرها المجيد الرائع ، تراه في كثير جدا من الأحيان يرتد الى مواقع حماسية متعصبة ، وتنمو في نفسه حساسية مفرطة شديدة التأذي سريعة الانجراح منطوية على نفسها . وهذا الانطواء الذي يتصف في آليته الداخلية وفي ملامحه الظاهرة بأنه انكفاء ، يولد حنقا وتوترا عضليا .

وهذا هو السبب فيما يتصف به أسلوب الكتاب المستعمرين الذين قرروا أن يعبروا عن هذه المرحلة من الوعي الآخذ بالانطلاق ، من انه أسلوب متصادم . مليء بالصور (ان الصورة هي الجسر الذي يتيح للطاقات اللاشعورية ان تتناثر في المراعي المجاورة) ، عصبي ، فياض بالايقاع ، تسكنه هنا وهناك حياة انفجارية ، غني بالألوان ، برونزي ، ملوح بأشعة الشمس ، عنيف هادر . ان هذا الأسلوب الذي أدهش الغربيين في حينه لا يرجع ، كما أرادوا ان يقولوا ، الى طبع عرقي ، وانما هو قبل كل شيء تعبير عن قتال . انه يكشف عن الضرورة التي وجد المستعمر فيها ، وهي ان يؤذي نفسه ، أن يفصد جسمه لينزف منه دم احمر ، أن يتحرر من جزء من كيانه الذي أصبح يضم بذور تعفن . قتال أليم مرير ، سريع ، لابد فيه حتما من ان تحل العضلات محل التصور .

ولئن بلغ هذا الجهد على مستوى الشعر ذري لا عهد بمثلها من قبل ، فان المثقف كثيرا ما يسير على صعيد الوجود في طريق مسدودة

غير نافذة . انه وقد وصل الى قمة الاندماج في شعبه مهما يكن الشعب ، لا يحمل من مغامراته حين يقرر ان يرتد الى طريق الحياة اليومية الا امورا عقيمة لا تؤتي ثمرة من الثمرات . انه يأخذ يفضل العادات والتقاليد والمظاهر ، ويتغنى بها ، ولا يزيد جهده عندئذ على التذكير بنوع رخيص من سعي الأجانب الى غرائب البلاد الأخرى . هذه هي الفترة التي يأخذ فيها المثقفون بالتغني بأيسر مشهد من مشاهد الحياة في البلاد ، يقدسون البوبو ، ويخلعون الاحذية الباريسية الايطالية لينتعلوا البابوج ، حتى أنهم ليأخذون يكرهون لغة المستعمر ويشمئزون منها . ان الرغبة في العودة الى أحضان الشعب تكون في بعض الأحيان أثناء هذه الفترة رغبة في ان نكون زنوجا ، لا زنوجا يشبهون غيرهم من الناس ، بل زنوجا زنوجا ، زنوجا كلابا كما يريد لنا البيض ان نكون .

ويقرر المثقف المستعمر أن يحصي العادات السيئة التي استمدها من العالم الاستعماري ، ويمضي يتذكر عادات الشعب الطيبة وأخلاقه الحميدة ، الشعب الذي قرر المثقف أن ينسب اليه انه مستودع كل حقيقة .

والدهشة التي يولدها هذا المسعى في صفوف الاستعماريين المقيمين بالبلاد المستعمرة يزيد المستعمر ثباتا على خطته . حتى اذا شعر الاستعماريون الذين تذوقوا لذة ظفرهم بتمثل هؤلاء الناس وامتصاصهم ، ان هؤلاء الرجال الذين ظنوا أنهم أنقذوهم ، قد عادوا الى صفوف الزنوج ، أحسوا أن عهدهم كله يهتز ويترنح . فكل مستعمر كسبوه ، كل مستعمر أنتزعوه ، انما يدلهم حين يقرر ان ينسحب ، على أن المشروع الاستعماري مخفق ، كما يرمز لهم الى أن العمل الذي قاموا به كان عبثا لا جدوى منه ، وكان سطحيا لا عمق

فيه . ان انسحاب كل مستعمر انما هو إدانة جذرية للمنهج المتبع وللنظام القائم . ويجد المستعمر في هذه الدهشة التي أثارها في صفوف الاستعماريين مسوغا لانسحابه ومشجعا على الاستمرار فيما شرح فيه .

واذا نحن أردنا ان نعرف من خلال آثار الكتاب المستعمرين المراحل المختلفة التي يقطعها هذا التطور ، رأينا أمام أعيننا مشهدا ذا ثلاثة أزمان . ففي مرحلة أولى يبرهن المثقف المستعمر على أنه قد هضم ثقافة المستعمر المحتل ، فآثاره توازي آثار أمثاله الغربيين خطوة خطوة ، والهامة أوروبي ، حتى ليمكن بسهولة ان تربط هذه الآثار بتيار معين من تيارات الأدب الغربي . هذه هي مرحلة التمثل الكامل ، وأثناء هذه المرحلة نجد بين الأدباء المستعمرين برناسيين ، ورمزيين ، وسرياليين .

وفي مرحلة ثانية يهتز المستعمر ويقرر ان يتذكر نفسه . وهذه المرحلة من الخلق تقابل على وجه التقرب خطوة الفوضى التي وصفناها منذ قليل . ولكن لما كان المثقف المستعمر غير متغلغل في شعبه ، لما كانت علاقاته بشعبه علاقات خارجية ، فانه في هذه المرحلة لا يزيد على أن يتذكر . انه الآن ينتشل من أعماق ذاكرته مشاهد قديمة من طفولته ، ويعود الى أساطير عتيقة فيحاول اعادة تأويلها على ضوء استطيقا مستعارة ، على ضوء فلسفة في العالم ووضعت تحت سماء غير هذه السماء . وهذا الأدب السابق على المعركة يكون في بعض الأحيان أدب سخرية ورمز . هذه مرحلة قلق ، مرحلة انزعاج ، مرحلة يعاني فيها الأديب تجربة الموت ، وتجربة الغثيان ايضا . انه يتقيا ، ولكن الضحك ينطلق ها هنا خفية من تحت .

وفي مرحلة ثالثة ، مرحلة أخيرة تسمى مرحلة المعركة ، نرى المثقف

المستعمر بعد ان حاول أن يغرق في الشعب ، يعمد الى عكس ذلك ، فهو الآن يهز الشعب . انه الآن بدلا من أن يغفو غفوة الشعب ، يستحيل الى موقظ للشعب . انه الآن ينتج أدب معركة ، ينتج أدبا ثوريا ، أدبا قوميا . وفي أثناء هذه المرحلة نجد عددا كبيرا من الرجال والنساء الذين لم يخطر ببالهم يوما أن ينشئوا أثرا أدبيا ، يحسون فجأة حين يوضعون في ظروف استثنائية ، حين يوضعون في السجن مثلا أو حين تقرر السلطات تنفيذ حكم الاعدام فيهم ، يحسون أن عليهم أن يعبروا عن أمتهم ، أن يكتبوا الجملة التي تفصح عن شعبهم ، أن يكونوا الناطقين بلسان واقع جديد يتحقق .

وفي أثناء ذلك يدرك المثقف عاجلا أو آجلا أن المرء لا يبرهن على وجود أمته بثقافة ، بل بخوض المعركة التي يخوضها الشعب ضد قوى الاحتلال . ما من استعمار يبرهن على مشروعيته بكون البلاد التي يحتلها ليس فيها ثقافة . انك لن تخجل الاستعمار حين تنشر أمام بصره الكنوز الثقافية المجهولة . ان المستعمر المثقف حين يهمه أن يضع اثرا أدبيا ينسى ان التكنيك الذي يستعمله ، واللغة التي يكتب بها انما هما مستعاران من المستعمر المحتمل ، ويكتفي بأن يكسو هذه الادوات بثوب يريد له أن يكون قوميا ، ولكنه كالأدب الغربي الذي يتكلم عن البلاد الأخرى . ان المثقف المستعمر الذي يعود الى شعبه بواسطة مؤلفات أدبية انما يتصرف في الواقع تصرف أجنبي . وهو في بعض الاحيان لا يتردد عن الكتابة بلهجات محلية اظهارا لرغبته في أن يكون قريبا من الشعب الى اقصى حد ممكن ، ولكن الافكار التي يعبر عنها والمشاغل التي تسكنه لا صلة بينها وبين الظرف المحسوس الذي يعيش فيه الرجال والنساء في بلاده . ان الثقافة التي يعكف عليها المثقف المستعمر ليست في اكثر الأحيان الا مجموعة من التفردات . لقد أراد

أن يلتصق بالشعب ، فأذا هو يلتصق بمظهره المنظور . وليس هذا المظهر في الواقع الا انعكاس حياة داخلية خفية كثيفة ما تنفك في حركة وتجدد . ان المظهر الموضوعي الذي يخطف البصر ويبدو مميزا للشعب ليس في حقيقة الأمر الا ثمرة جامدة منكرة منذ الآن ، لتكيفات معينة ، غير منسجمة دائما ، حققها جوهر أساسي هو الآن في حركة تجددية قومية . فالمثقف بدلا من أن يمضي باحثا عن ذلك الجوهر تراه يفتن بهذه المزق المحنطة التي كان ينبغي أن يدفعه تجمدها الى الانكار والتجاوز والابتكار . ينبغي ان تشف الثقافة عن الأعمال ، وان تبتعد عن النظرة التبسيطية . ان الثقافة هي في جوهرها نقيض العادات الجامدة التي ليست الا حطام الثقافة . فاذا أردت أن تلتصق بالتقاليد أو أن تحيي التقاليد البالية كنت تعاكس تيار التاريخ بل كنت تعاكس شعبك حين يخوض شعب من الشعوب كفاحا مسلحا ، أو حتى كفاحا سياسيا ضد استعمار غاشم ، فان التقاليد تتبدل دلالتها . وما كان اسلوبا للمقاومة يمكن الآن أن يدان ادانة جذرية . ان التقاليد في بلد متخلف مكافح ، ليست ثابتة بل متحركة ما تنفك تشقها تيارات متجهة الى المنبع . لذلك فان المثقف كثيرا ما يوشك ان يقف في وجه الزمن . ان الشعوب التي خاضت غمار الكفاح تنفر من الديماغوجية شيئا بعد شيء ، ويصبح من المستحيل ان تؤثر فيها الديماغوجية . فاذا أسرفت في ممالقتها فسرعان ما تكتشف فيك انتهازيا رخيصا بل وعائقا يعرقل تقدمها .

لننظر الى الفنون التشكيلية مثلا . ان الفنان المستعمر الذي يريد أن يصنع أثرا قوميا مهما كلف الأمر يفرض على نفسه ان ينقل التفاصيل نقلا جامدا . ان أولئك الفنانين الذين تعمقوا التكنيك الحديث وشاركوا في كبرى تيارات التصوير الحديث أو العمارة

الحديثة ، يديرون الآن ظهورهم للثقافة الاجنبية وينكرونها ، ويفضلون ، في بحثهم عن الطابع القومي الحقيقي ، ما يحسبون انه المقومات الثابتة في الفن القومي . ولكن هؤلاء الخالقين ينسون أن أشكال التفكير ، وأنواع الغذاء ، والأساليب الحديثة في الاعلام واللغة والملبس قد طورت دماغ الشعب ، وأن المقومات الثابتة التي كانت سياجا حارسا في عهد الاستعمار تعاني الآن طفرات جذرية هائلة .

ان ذلك الفنان الذي يقرر ان يصف الحقيقة القومية ، يتجه صوب الماضي ، صوب ما ليس لهو وجود راهن . والحق أن ما يصوره عندئذ انما هو فضلات الفكر ، انما هو الظاهر الخارجي ، انما هو الجثث الميتة ، إنما هو المعرفة المحنطة . يجب على المثقف المستعمر الذي يريد أن يصنع أثرا أصيلا صادقا ان يدرك أن الحقيقة القومية انما هي الواقع القومي أولا وقبل كل شيء . ان عليه أن يغوص الى المنبع الفوار الذي تتهيأ فيه صورة المعرفة الجديدة .

لقد كان المصور المستعمر لا يحس قبل الاستقلال مشهد الحياة القومية ، فكان يؤثر الفن الذي لا يمثل شيئا ، أو كان في أكثر الأحيان ينصرف الى تصوير الطبيعة الصامتة . حتى اذا جاء عهد الاستقلال ، رأينا حرصه على الالتحاق بالشعب أصبح يحمله على أن ينقل الواقع القومي نقلا دقيقا ، لا ايقاع فيه ، نقلا هادئا ، ساكنا ، جامدا . لا يذكر بالحياة بل الموت . ولئن اخذت الأوساط المثقفة تسكر أمام الحقيقة التي صورها الفنان تصويرا أمينا ، فان من حقنا أن نتساءل هل هذه الحقيقة واقعية ، أم ان الملحمة التي من خلالها يشق الشعب لنفسه طريقا نحو التاريخ قد تجاوزت تلك الحقيقة ، ونفتها ، واعادت النظر فيها .

ونستطيع أن نقول أن هذه الملاحظات نفسها بصدد الشعر . فبعد المرحلة التي تمثل فيها الشعراء الوطنيون الشعر الغربي الذي يلتزم القافية ، ظهر الايقاع الشعري الذي يستلهم الموسيقى الشعبية (تم تم) . ولكن يجب ان يفهم الشاعر ان لا شيء يمكن أن ينوب عن الانضمام الى صفوف الشعب انضماما عقليا لا ينكص . ولنستشهد مرة أخرى بالشاعر دوبستر .

«لم تكن السيدة وحيدة
كان لها زوج
زوج يعرف كل شيء
ولكنه ، ان شئت الصراحة ، لا يعرف شيئا البتة .
لأن الثقافة لا تكون بغير تنازل .
تنازل المرء عن لحمه ودمه ،
تنازله عن نفسه للآخرين .
تنازل هو خير من الكلاسيكية والرومانسية جميعا .
ومن كل ما يسقي فكرنا» (14) .

ان الشاعر المستعمر الذي يعنيه أن يصنع أثرا قوميا ، ويصر على أن يصف شعبه ، يخطىء هدفه ، لأنه لم يجعل نفسه قبل القول قادرا على أن يحقق ذلك التنازل الأساسي الذي يحدثنا عنه دوبستر . لقد فهم الشاعر الفرنسي رونيه شار هذا الأمر حق الفهم حين قال : «ان القصيدة تنبع من فرض ذاتي واختيار موضوعي . القصيدة جملة متحركة من قيم أصلية محددة هي على صلات معاصرة بشخص يجعله هذا الظرف أول» . (15) .

نعم ان أول واجب يقع على عاتق الشاعر المستعمر هو أن يحدد ، بوضوح ، الشعب الذي هو موضوع ابداعه ، وليس في وسعه ان

يتقدم في عزم الا اذا وعى أولا ضياعه . لقد أخذنا كل شيء عن الجهة الاخرى . ومن المحقق أن هذه الجهة الأخرى لا تعطينا شيئا الا اذا استطاعت بألف حيلة أن تعطفنا الى اتجاهها ، الا اذا استطاعت بألف مخاتلة ، بمائة ألف مراوغة ، أن تجذبنا ، أن تفتنا ، أن تسجننا . متى أخذنا فقد أصبحنا مأخوذين ، على مستويات كثيرة . فليس يكفي اذن أن نفك انفسنا بالمطالبة تلو المطالبة والانكار بعد الانكار . ليس يكفي ان نلحق بركب الشعب في ذلك الماضي الذي لم يبق له وجود بل ينبغي أن نلحق بركب الشعب في هذه الحركة المقاتلة التي شرع يقوم بها ، والتي ستفضي فجأة الى اعادة النظر في كل شيء . الى ذلك الموضع من التحرك المختبىء ، الى ذلك الموضع الذي يقوم فيه الشعب ، انما يجب ان ننتقل ،فهنالك ولا شك انما تتكون روح الشعب ويضيء ادراكه ويتوهج الهامه .

ان كيتا فوديبا ، وهو الآن وزير داخلية جمهورية غينيا ، لم يخاتل واقع شعب غينيا ، حين كان مدير «الباليه الأفريقي» . لقد أبرز جميع الصور الايقاعية لشعبه وأوضحها واولها على اساس ثوري . ولكنه فعل أكثر من ذلك أيضا . اننا نجد في مؤلفاته الشعرية ، غير المعروفة كثيرا ، حرصا دائما على ابراز اللحظة التاريخية التي يجتازها الكفاح القومي ،وعلى تحديد الميدان الذي يتحقق فيه العمل ، والأفكار التي تتبلور حولها الارادة الشعبية . استمعوا معي الى هذه القصيدة التي نظمها كيتا فوديبا ، والتي هي اهابة صادقة الى التفكير ، الى التخلص من التضليل ، الى خوض المعركة .

فجر افريقي

(موسيقى قيثارة)

كان ذلك عن طلوع الفجر . القرية الصغيرة التي رقصت طوال نصف الليل على اصوات الطبل ، أخذت تستيقظ شيئا فشيئا . الرعاة الذين يرتدون أسمالا بالية وينفخون في الناي ، يسوقون قطعانهم في الوادي . الصبايا اللواتي يتسلحن بطيور الكناري يدلف بعضهن وراء بعض في الممر المتعرج الذي يفضي الى النبع . وفي فناء بيت الشيخ ترتل طائفة من الصبية آيات من القرآن .

(موسيقى قيثارة)

كان ذلك عند الفجر . النهار صارع الليل . ولكن الليل قد نضبت قواه ، فهو ينسحب على هون . أشعة قليلة من الشمس تظهر في الأفق طلائع لهذا النصر الذي يفوز به النهار ، طلائع بطيئة وجلى شاحبه ، والنجوم الأخيرة تنسحب في رفق وراء الغيوم أشبه بشعل ملتهبة من ازهار .

(موسيقى قيثارة)

كان ذلك عند طلوع الفجر . هناك في آخر السهل الواسع ، الذي يحف به الارجوان ، كان رجل منحنيا على الأض يعزقها : انه نعمان ، الفلاح ، فكلما هوى بفأسه على التراب طارت العصافير مذعورة ، ومضت تحط بخفق الجناح على الضفاف الهادئة من نهر

نيجر العظيم . سروال نعمان ، المنسوج من قطن ، المخضل بالندى ، يصفع العشب على الجانبين . ونعمان يتصبب عرقه ، لكنه لا يتعب ، لا يعرف التعب سبيلا اليه ، وما ينفك يقوم وينحني ، هاويا بفأسه على الأرض في حذق ومهارة . ذلك ان عليه أن يدفن بذوره في التراب قبل ان تمطر السماء من جديد .

(موسيقى بوق)

كان ذلك عند طلوع الفجر . الطيور تتواثب بين اوراق الشجر مؤذنة بالنهار . وعلى السهل المبتل كان يركض طفل صغير ، معلقا جعبة سهامه على كتفيه ، متجها الى نعمان ، لاهثا ، ينادي : «ايها الاخ نعمان . رئيس الضيعة يطلب أن يجتمع بك تحت الشجرة» .

(موسيقى بوق)

دهش الفلاح من استدعائه في الصباح المبكر . ووضع فاسه على الأرض ثم مضى الى القرية التي تتلألأ الآن بأشعة الشمس الطالعة . كان «المحاربون القدماء» قد بدأوا اجتماعاتهم وظهرت في وجوههم امارات الجد والوقار . والى جانبهم رجل يرتدي ملابس عسكرية قد جلس هادئا يدخن غليونه .

(موسيقى بوق)

جلس نعمان على جلد خروف . ونهض رئيس القرية ليبلغ المجلس إرداة المحاربين القدماء : «لقد ارسل البيض رسولا يطلب بلسانهم أن يمضي رجل من رجال القرية الى الحرب في بلادهم . وتشاور وجوه القرية في الأمر فاستقر رأيهم على أن يختاروا لهذه المهمة فتى هو بين فتيان بلادهم أشجعهم ، حتى يبرهن في معركة البيض على ما امتاز به رجالنا دائمامن بسأله واقدام» .

(موسيقى قيثارة)

ان نعمان الذي تشيد الفيات كل ليلة بقوامه المهيب وعضلاته القوية هو الفتى الذي وقع عليه الاختيار ، واضطربت زوجته الحلوة ، قاضية ، أشد الاضطراب ، فانقطعت عن الدق ، ووضعت جرنها تحت النير ، ولزمت حجرتها تبكي شقاءها نشيجا مخنوقا . لقد خطف زوجها الاول ، وهي لا تستطيع ان تتصور ان يخطف البيض زوجها الثاني الذي تستريح عليه جميع آمالها الجديدة .

(موسيقى قيثارة)

في الغداة ، رغم دموعها وآهاتها ، قرعت طبول الحرب تشيع نعمان الى مرفأ القرية الصغير ، حيث استقل قاربا الى مركز المنطقة . فلما جاء الليل لم ترقص الصبايا في ساحة القرية على عادتهن ، بل جئن الى كوخ نعمان يتجاذبن أطراف القصص حتى الصباح حول نار الحطب .

(موسيقى قيثارة)

انقضت عدة شهور ولا نبأ من نعمان . بلغ القلق بقاضية الصغيرة أنها لجأت الى ساحر القرية المجاورة تستفتيه . وتحدث الشيوخ أنفسهم في الامر حديثا قصيرا لم يتسرب منه الى احد شيء .

(موسيقى بوق)

ووصلت اخيرا الى القرية رسالة من نعمان بعثها الى قاضية .فما كان من قاضية التي كان مصير زوجها يؤرقها ، الا أن ذهبت في تلك الليلة نفسها الى مركز المنطقة ، بعد ساعات شاقة من السير على الأقدام ، ومضت الى مترجم ليقرأ لها الرسالة .

كان نعمان في افريقيا الشمالية . ان صحته جيدة وهو يسأل ان يوافوه بأنباء الحصاد ، والاحتفالات ، والرقصات ، والشجرة التي تنعقد في ظلها الاجتماعات ، والقرية ...

(نقرات دف)

في تلك الليلة أهدت النساء الى قاضية حق حضور أحاديثهن المألوفة عند المساء في بيت كبراهن . وسر رئيس القرية بالنبأ ، فأولم وليمة لجميع شحاذي القرى المجاورة .

(نقرات دف)

انقضت عدة أشهر اخرى ، وعاد الناس جميعا يقلقون على مصير نعمان ، لانهم لا يعرفون عنه شيئا . وكانت قاضية قد عقدت نيتها على الذهاب الى الساحر مرة أخرى تستفتيه ، حين وصلت اليها رسالة ثانية . ان نعمان ، بعد ان ذهب الى كورسيكا ثم الى ايطاليا ، أصبح الآن في المانيا . وهو يهنىء نفسه بحصوله منذ الآن على أوسمة .

(نقرات دف)

ومرة أخرى وصلت بطاقة تقول ان نعمان قد اسره الالمان . ثقل النبأ على صدر القرية . وعقد «القدماء» مجلسهم ، فقرروا ان يكون لنعمان ، بعذ الآن ، حق الاشتراك في رقصة الدوجا ، رقصة العقاب المقدسة التي لا يجوز لاحد ان يرقصها ما لم يقم بعمل باهر ، رقصة الاباطرة الماليين التي تلخص كل خطوة من خطواتها مرحلة من مراحل تاريخ مالي . كان ذلك عزاء للصغيرة قاضية ... لقد واساها ان يرتفع زوجها الى منزلة الابطال من رجال البلاد .

(موسيقى قيثارة)

الزمان ينقضي ... سنتان تمضيان ... ونعمان ما يزال في المانيا . ماله لا يكتب .

(موسيقى قيثارة)

في ذات صباح تلقى رئيس القرية من داكار بضع كلمات تقول ان نعمان واصل الى القرية قريبا . فما ان ذاع النبأ في القرية حتى قرعت

الطبول ، واخذ الناس يرقصون ويغنون حتى مطلع الفجر . وألفت الصبايا الحانا جديدة لاستقبال العائد ، لأن الالحان القديمة لم تتحدث عن رقصة الدوجا ، عن رقصة العقاب الشهيرة .

(قرع طبول)

ولكن بعد شهر ارسل العريف موسى وهو صديق عزيز من اصدقاء نعمان هذه الرسالة الفاجعة الى قاضية : «كان ذلك عند طلوع الفجر . كنا في «تياروي على البحر» ففي أثناء مشاجرة كبيرة قامت بيننا وبين رؤسائنا البيض اخترقت رصاصة قلب نعمان . انه الآن رقد في ارض سنغالية» .

(موسيقى قيثارة)

حقا لقد كان ذلك عند طلوع الفجر . كانت اولى اشعة الشمس التي لا تكاد تلامس سطح البحر تذهب امواجه الصغيرة المتجدة . وكانت اشجار النخيل التي تهب عليها انسام خفيفة تحني جذوعها نحو البحر في رفق وحنان ، كأنما هدتها هذه المعركة الصباحية والغربان تتوافد على القرية اسرابا صاخبة تحمل بنعيقها نبأ المأساة التي ادمت فجر تياري . وفي الأفق المحترق ، فوق جثمان نعمان تماما ، كان ثمة عقاب ضخم يحلق في ثقل ،كأنه يقول له «يا نعمان انك لم ترقص هذه الرقصة التي تحمل اسمي . لسوف يرقصها آخرون» .

(موسيقى بوق)

لئن اخترت هذه القصيدة الطويلة فذلك لما لها من قيمة تربوية لا سبيل الى جحودها . الأمور هنا واضحة . الشاعر يعرض الأمور عرضا دقيقا متدرجا . ان فهم هذه القصيدة ليس مسيرا عقليا فحسب ، بل هو مسير سياسي أيضا . من فهم هذه القصيدة فقد فهم الدور الذي يجب عليه أن يقوم به ، وادرك المهمة التي يجب عليه ان ينهض بها ،

وأخذ يشحذ سلاحه . ان نعمان الذي كان بطل ساحات معركة اروروبا ، نعمان الذي كفل القوة والاستمرار للعاصمة التي تستعمر بلاده ، نعمان الذي اخترقت قلبه رصاصة من رصاصات قوى الشرطة في اللحظة التي يرجع فيها الى أرض آبائه وأجداده ، ان نعمان هذا هو صطيف 1945 ، هو فور دى فرانس ، هو سايجون ، هو داكار ، هو لاجوس . ان جميع أولئك الزنوج الذين قاتلوا دفاعا عن حرية فرنسا أو عن حضارة بريطانيا موجودون في هذه القصيدة التي نظمها كيتا فوديبا .

ولكن كيتا فوديبا ينظر الى أبعد من ذلك ايضا . فالاستعمار بعد أن يستعمل أهل البلاد المستعمرة في ساحات القتال ، يستعملهم كمحاربين قدماء في تحطيم حركات الاستقلال . ان جمعيات المحاربين القدماء هي في المستعمرات احدى القوى التي يستعملها الاستعمار في محاربة الحركة القومية . وقد أعد الشاعر كيتا فوديبا وزارة الداخلية في جمهورية غينيا لاحباط المؤامرات التي يحركها الاستعمار الفرنسي . فبواسطة المحاربين القدماء وغيرهم انما كانت تنوي الدوائر الفرنسية السرية تحطيم الاستقلال الغيني الناشيء .

ان الانسان المستعمر الذي يكتب لشعبه بوصف الماضي انما يجب عليه أن يفعل ذلك بغية أن يفتح المستقبل ،وأن يهيب الى العمل ، وأن يعزز الأمل . ولكنك لا تستطيع أن تقوى الأمل وان تهب له عمقا وكثافة ما لم تشارك في العمل ، ما لم تنخرط في المعركة القومية جسما وروحا . ان في وسعك أن تتكلم عن أي شيء ،ولكن متى قررت أن تتكلم عن فتح الأفق ، عن ادخال النور الى ديارك ، عن وقوفك وقوف شعبك ، فقد وجب عليك أن تشارك في المعركة بعضلاتك .

ان مسؤولية المثقف المستعمر ليست مسؤولية عن الثقافة القومية ،

بل مسؤولية كلية شاملة عن الأمة بأسرها التي ليست الثقافة الا جانبا من جوانبها ما ينبغي للمثقف المستعمر أن يهمه اختيار المستوى الذي يخوض فيه المعركة . فالكفاح في سبيل الثقافة القومية انما هو كفاح في سبيل الحرية القومية ، الرحم الذي يكون نشوء الثقافة فيه ممكنا . ليس هناك معركة ثقافية تقوم على موازاة المعركة الشعبية . ان أولئك الرجال والنساء الذين يقاتلون الاستعمار الفرنسي في الجزائر بقبضات أيديهم العزلاء انما يقاتلون جميعا في سبيل الثقافة القومية الجزائرية . ان الثقافة القومية الجزائرية تنشأ اثناء هذه المعارك ، في السجن ، أمام المقصلة ، في المراكز العسكرية الفرنسية التي تطوق وتهدم .

ليس يكفي ان نغوص في ماضي الشعب ننتشل منه عناصر منسجمة ونجابه بها محاولات التزييف والاحتقار التي يقوم بها الاستعمار . وانما يجب علينا ان نعمل ، ان نناضل مع الشعب ، من اجل ان نوضح المستقبل ، من أجل ان نعد الأرض التي أخذت تتفتح فيها منذ الآن براعم قوية . ليست الثقافة القومية ذلك الفوكلور الذي حسب من ينظرون الى الأمور نظرة مجردة أنهم يكتشفون فيه حقيقة الشعب . ليست الثقافة القومية تلك الكتلة المتجمدة من الحركات الصرفة التي أصبح ارتباطها بالواقع الراهن يضعف شيئا بعد شيء . وانما الثقافة القومية مجموعة الجهود التي يبذلها شعب من الشعوب على صعيد الفكر من أجل ان يصف وأن يبرر وأن يغني النضال الذي به يتكون الشعب ويبقى . يجب على الثقافة القومية في البلدان المتخلفة ان تضع نفسها في القلب من كفاح التحرير الذي تخوض هذه البلدان معاركه . ينبغي لرجال الثقافة الافريقيين الذين ما يزالون يناضلون باسم الثقافة «الزنجية الافريقية» ، والذين عقدوا المؤتمرات تلو المؤتمرات باسم وحدة هذه الثقافة ، أن يدركوا الآن أن نشاطهم أصبح لا يزيد على

المقارنة بين جثث او المضاهات بين توابيت .

ليس هناك مصير مشترك بين الثقافتين القوميتين ، السنغالية والغينية ، بل هناك وحدة في المصير بين الامتين الغينية والسنغالية اللتين يسيطر عليهما استعمار واحد هو الاستعمار الفرنسي . واذا شئتم أن تكون الثقافة القومية السنغالية مشابهة للثقافة القومية الغينية ، فليس يكفي أن يقرر قادة الشعبين ان يطرحوا المشكلات على أسس متقاربة : مشكلة التحرير ، المشكلات النقابية ، المشكلات الاقتصادية . فحتى في هذه الحالة لا يمكن أن يكون ثمة تماثل مطلق ، لأن ايقاع مسير القادة ليسا ايقاعا واحدا .

لا يمكن أن يكون ثمة ثقافات متماثلة تماثلا دقيقا . واذا تخيلت أنك صانع ثقافة زنجية ، فقد نسيت أن تمييز الزنوج عن غيرهم هو فكرة آخذة بالزوال لأن الذين أوجدوها يشهدون الآن انحلال تفوقهم الاقتصادي والثقافي (16) . لن يكون هناك ثقافة زنجية ، لأنه ما من رجل من رجال السياسة يتصور أن رسالته هي أن يخلق جمهوريات زنجية . انما المشكلة هي أن نعرف المكانة التي يريد هؤلاء الرجال أن ينزلوها شعوبهم ، ونوع العلاقات الاجتماعية التي يقررون أن ينشئوها ومفهومهم عن مستقبل الانسانية . ذلك هو الأمر المهم . وكل ما عداه كلام مزوق وتضليل .

ان المثقفين الافريقيين الذين اجتمعوا في روما 1959 لم يكفوا عن الكلام عن الوحدة . ولكن واحدا من كبار المتغنين بهذه الوحدة الثقافية ، أعني جاك راب مانانجارا ، يشغل الآن منصب وزير في حكومة مدغشقر ، وبهذه الصفة التي له الآن قرر مع حكومته أن يقفوا ضد الشعب الجزائري في اجتماع الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة . فلو كان راب أمينا لفكرته وفيا لنفسه لاستقلال من تلك

الحكومة ،وراح يفضح أولئك الرجال الذين يدعون انهم يجسدون ارادة شعب مدغشقر . ان التسعين ألفا من شهداء مدغشقر لم يكلفوا راب بأن يحارب مطامح الشعب الجزائري في الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة .

ان الثقافة الزنجية الافريقية انما تقوى وتشتد حول كفاح الشعوب لا حول الأغاني أو القصائد أو الفولكلور . وهذا سنغور الذي هو ايضا عضو في «الجمعية الافريقية للثقافة» والذي عمل معنا في مسألة الثقافة الافريقية هذه ، لم يتورع ، هو ايضا ، ان يصدر اوامره الى وفده بتأييد وجهات النظر الفرنسية في قضية الجزائر . ان المناداة بثقافة زنجية افريقية ، ان وحدة الثقافة الافريقية انما تمر اولا وقبل كل شيء بدعم كفاح التحرير الذي تخوضه الشعوب دعما غير مشروط . وليس يريد ازدهار الثقافة الافريقية واشعاعها من لا يساهم مساهمة محسوسة في توفير الظروف التي يتحقق فيها هذا الازدهار وهذا الاشعاع ، أعني تحرير القارة الافريقية .

أقول : ما من خطاب ولا نداء حول الثقافة ، ينبغي أن يصرفنا عن مهماتنا الأساسية التي هي تحرير أرض الوطن بكفاح نخوضه في كل لحظة ضد الأشكال الجديدة التي يتخذها الاستعمار ، ونصر فيه اصرارا عنيدا على أن لا نفتن وأن لا نضلل .

الاسس المشتركة بين الثقافة الوطنية وكفاح التحرر

ان السيطرة الاستعمارية التي تتصف بأنها شاملة كلية لم تلبث أن هدمت الوجود الثقافي للشعب المستعمر . فانكار الواقع القومي ، واقامة علاقات حقوقية جديدة ، ونبذ السكان الأصليين وعاداتهم ، وتجريد الأهالي من أملاكهم ، واستعباد الرجال والنساء استعبادا منظما ، هذه الأمور كلها التي عمد اليها الاستعمار قد أتاحت ذلك الامحاء الثقافي شيئا بعد شيء .

لقد أوضحت ، منذ ثلاث سنين ، أمام مؤتمرنا الأول ، أن الظرف الاستعماري سرعان ما أحل محل الحيوية والحركة مواقف تمجيدية . فنرى البلاد المستعمرة تحيط مجالها الثقافي بأسيجة واوتاد . وهذا النوع بدائي من الدفاع عن النفس يشبه منعكسات غريزة البقاء في كثير من الوجوه . وترجع أهمية هذه المرحلة الى أن المستعمر المضطهد يبلغ في تماديه أنه لا يكتفي بأن يلغي الوجود الموضوعي للأمة وللثقافة المضطهدتين ، وانما يبذل جميع الجهود اللازمة من اجل ان يحمل المستعمر على الاعتراف بتخلف ثقافته التي استحالت الى تصرفات غريزية ، وعلى الاعتراف بأن أمته لا وجود لها ، بل وعلى الاعتراف بأن تكوينه البيولوجي نفسه غير منظم وغير كامل .

ولم يكن رد المستعمر على هذا الوضع ردا وحيد الاتجاه ، فبينما رأينا

الجماهير تتمسك بالتقاليد التي لا تماشي الظرف الاستعماري ، وبينما رأينا اسلوب الحرفة يتقوى حتى ليجمد على شكل ثابت ، رأينا المثقف يرتمي ارتماء محموما على تحصيل ثقافة المستعمر ، فاما ان يستخف بثقافته القومية ،واما أن يأخذ يشيد بهذه الثقافة اشادة تفصيلية منهجية فياضة بالحماسة عقيمة .

وتتصف هاتان المحاولتان بصفة مشتركة ، هي أنهما كلتاهما تدخلان في تناقضات لا يمكن احتمالها . ان المستعمر ، سواء أهرب من الثقافة القومية أم أخذ يمجدها ، يظل عاجزا عن احداث أي تأثير ، لأنه لم يحلل الوضع الاستعماري تحليلا صحيحا دقيقا . ان الوضع الاستعماري الذي يكاد يتناول كل شيء ، يوقف الثقافة القومية . فليس هناك ولا يمكن أن يكون هناك ثقافة قومية ، أو حياة ثقافية قومية . أو ابتكارات ثقافية قومية أو تبدلات ثقافية قومية ،ما دامت السيطرة الاستعمارية قائمة . وتنبجس في بعض الأحيان هنا وهناك محاولات جريئة لاستئناف الحيوية الثقافية ، واعادة توجيه الموضوعات والأشكال والأنغام . وأنت اذا بحثت عن أهمية مباشرة محسوسة لهذه الانتفاضات لم تجد شيئا . ولكنك اذا تتبعت نتائجها الى حدودها القصوى أدركت أنها تهيىء لنزع الغشاوة عن وعي الشعب ، وللتنديد بالاضطهاد ، ولفتح باب كفاح التحرير .

ان الثقافة الوطنية هي في ظل السيطرة الاستعمارية ثقافة مجمدة تابع الاستعمار تحطيمها متابعة منظمة . وسرعان ما تصبح مضطرة الى التخفي والسرية ، حتى لنلاحظ معنى السرية هذه في ردود الغاصب المحتل الذي يرى في كل مجاراة للتقاليد ثباتا على الروح القومية ورفضا للخضوع ، فالمستعمر يرى في الاستمرار على الاشكال الثقافية التي يستنكرها مظهرا قوميا عليه أن يحاربه . غير أن هذا المظهر انما يرد الى

قوانين العطالة والجمود ، فليس ثمة هجوم ولا اعادة تحديد للعلاقات ، بل انكماش على نواة ما تنفك تزداد ضيقا وعطالة وفراغا .

وما هو الا قرن أو قرنان من الزمان حتى نرى الثقافة الوطنية قد هزلت ويبست حقا ، فاذا هي مجموعة من العادات الحركية والتقاليد المتعلقة بالملابس ، والنظم المجزأة المفتتة ، فليس فيها حركة ولا ابداع حتى ولا فوران . ان افقار الشعب ، واضطهاد الأمة ، ومنع الثقافة ، شيء واحد . اننا لا نرى ، بعد قرن من السيطرة الاستعمارية ، الا ثقافة متيبسة مجمدة متحجرة . ان بين نضوب الواقع القومي واحتضار الثقافة علاقات ارتباط متبادل . فكيف تتطور هذه العلاقات في أثناء كفاح التحرير ؟ ان ما يعمد اليه المستعمر من انكار للثقافة القومية ، واحتقار لكافة المظاهر القومية أو الحركية أو الانفعالية ، وتحريم لكل تخصص في التنظيم ، يساهم في توليد سلوك هجومي لدى المستعمر . ولكن هذا السلوك هو من نوع المنعكسات الغريزية التي تتصف باللاتمييز وبالفوضوية ، وليس فيه جدوى . ويستمر الاستغلال الاستعماري ، ويستمر بؤس الشعب وجوعه ، فيضطر المستعمر شيئا بعد شيء الى خوض كفاح صريح منظم . وتشعر أكثرية الشعب تدريجيا أنه لابد من معركة حاسمة . وتكثر التوترات التي لم يكن لها وجود قبل ذلك . وتأتي الأحداث الدولية وانهيارات الأمبراطوريات الاستعمارية والتناقضات القائمة في قلب النظام الأستعماري ، يأتي ذلك كله فيغذى روح القتال ويرقى بالوعي الشعبي ويقويه .

هذه التوترات الجديدة التي تنشأ على جميع مستويات الواقع الاستعماري تترجع أصداؤها على المستوى الثقافي . ففي الأدب مثلا نرى زيادة نسبية في الانتاج . ونرى الانتاج الأدبي القومي يتميز عن الانتاج الأدبي الغربي . وتتجلى فيه ارادة خاصة ، بعد أن كان محاكتة

لذلك الانتاج الغربي . وينحصر هذا الانتاج أول الأمر في النطاق الشعري والتراجيدي ، ثم يتناول الرواية والقصة والبحث . فكأن هناك نوعا من التنظيم الداخلي ، كأن هناك قانونا من قوانين التعبير يلزم بالاقلال من التجليات الشعرية كلما توضحت أهداف كفاح التحرير وطرائقه . وتندر شيئا بعد شيء تلك الصرخات المرة اليائسة ، وتلك الاندفاعات العنيفة المدوية المجلجلة التي لا يخاف منها المحتل في حقيقة الأمر ، بل تطمئنه . والواقع أن الأستعماريين قد شجعوا هذه المحاولات في الفترة السابقة وسهلوا وجودها . فحرارة التنديد والتشهير ، ووصف البؤس ، والتعبير عن الانفعال الجامح ، ذلك كله انما يشبه المستعمر بعملية تفريغ ، فاذا هو شجع عليه كان بمعنى من المعاني يتحاشى تحول الأمر الى كارثة ، ويساعد على شيء من انفراج الجو .

غير أن هذا الظرف لا يمكن الا أن يكون مرحلة مؤقتة ، والحق أن تقدم الوعي القومي لدى الشعب يبدل ويوضح التعبير الأدبي الذي يتولاه المثقف المستعمر . ان استمرار اتحاد الشعب يهيب بالمثقف أن يتجاوز مرحلة الصراخ . فاذا الشكوى تصبح نداء ، ثم اذا النداء يصبح في مرحلة ثانية شعارا . ان تبلور الوعي القومي يقلب الأنواع الأدبية والموضوعات الأدبية رأسا على عقب ، فاذا المثقف المستعمر الذي كان أول الأمر ينتج أدبه للقارىء المستعمر وحده ، سواء للحظوة باعجابه أو للتنديد به من خلال الاطار العرقي أو الذاتي ، اذا هو بعد ذلك يتعود أن يتجه بانتاجه اى شعبه شيئا بعد شيء .

وابتداء من هذه اللحظة انما نستطيع أن نتحدث عن أدب قومي . ذلك أننا نرى ، على مستوى الخلق الأدبي ، استئنافا وتوضيحا للموضوعات القومية الحقيقية . نحن ها هنا أمام أدب كفاح بالمعنى الأصلي للكلمة ، لأنه أدب يحدو شعبا بأسره الى النضال في سبيل

الوجود القومي . هو أدب كفاح لأنه يحمل تبعه ، لأنه ارادة تحقيق في الزمان .

وعلى المستوى آخر نرى أدب الرواية ، والحكايات ، والملاحم ، والأغاني الشعبية ، التي كانت قبل ذلك تستمد من المخزون المجمد ، نرى ذلك كله يأخذ بالتجدد . ان الرواة الذين كانوا يقصون على جمهورهم حكايات ميتة ، يبثون الآن في هذه الحكايات حياة . ويبدلونها تبديلا أساسيا . انهم يحاولون أن يجعلوا أقاصيص القتال التي يروونها حكايات راهنة ، ويحاولون أن يسبغوا عليها أشكالا معاصرة ، ويستمدون أسماء الأبطال وأنواع الاسلحة من الزمان الحاضر . كانوا قبل ذلك يبدأون حكاياتهم بقولهم : «كان في القديم ...» أما الآن فهم يبدأونها بقولهم : «ما سأقصه عليكم قد حدث في مكان ما ، ولكن يمكن أن يحدث هنا ، اليوم أو غدا .» . ومثال الجزائر بليغ الدلالة بهذا الصدد . أن الرواة قد أخذوا منذ 1952 — 1953 يقلبون طرائقهم في قص حكاياتهم ، وأخذوا يقلبون مضمون هذه الحكايات رأسا على عقب ، بعد أن كانت أقاصيصهم قبل ذلك جامدة مملة . فاذا الجمهور الذي يستمع اليهم يكثر عدده وتتراصّ صفوفه ، بعد أن كان قليلا مبعثرا . وعادت الملحمة الى الظهور ، وأخذت تصور أبطالا نموذجيين . هذا انبثاق ثقافي . ولم يغفل الاستعمار عن ذلك ، فاذا هو يعمد منذ عام 1955 الى اعتقال جميع الرواة الذين يتحلق حولهم الناس ليستمعوا الى قصص البطولة .

ان اتصال الشعب بالحركة الجديدة يجعل للأنفاس المترجعة في الصدرو ايقاعا جديدا ، ويوقظ العضلات النائمة من سباتها ، ويطلق الخيال من عقاله . فكلما قص الراوي على جمهوره مرحلة جديدة من مراحل حكاياته ، كان يناديهم ويهيب بهم ويحدوهم . انه يكشف

للجمهور عن نموذج انسان جديد . فما يبقى الحاضر مغلقا على نفسه بل ينشق عن آفاق جديدة . ان الراوية يرد لخياله الآن حريته ، ويجدد ، ويخلق . حتى ليتفق له أن يعمد الى وجوه أناس من قطاع الطرق أو من المتشردين الخارجين على قوانين المجتمع ، فاذا هو يقدم منها وجوها جديدة يجعلها وجوه أبطال ، مع أن ذلك ليس بالأمر اليسير . ليتكم تتبعون في بلد مستعمر انبجاس الخيال والخلق في الأغاني وفي الحكايات البطولية الشعبية ، خطوة خطوة . اذن لرأيتم أن الراوية انما يستجيب بخطوات متعاقبة لارادة الشعب ، ويمضي باحثا عن نماذج جديدة ، عن نماذج قومية قد نظن أنه يسعى اليها وحده ، ولكن في حقيقة الأمر يستحثه اليها جمهوره الذي يصغي اليه . وتختفي الكوميديا أو تفقد جاذبيتها . أما المأساة فما تظل قابعة في ضمير المثقف أزمة تعذبه ، بل تفقد طابع اليأس والتمرد وتصبح من نصيب الشعب كله ، جزءا من عمل يتهيأ أو من عمل قد انطلق .

وعلى مستوى الحرفة نجد الأشكال المترسبة المتجمدة تتحرك شيئا بعد شيء . فأعمال الخشب مثلا ، التي كانت تنسخ وجوها معينة أو أوضاعا معينة بآلاف النسخ ، تتنوع الآن وتتميز . القناع الذي لا يعبر ، أو كان يعبر عن التعب والارهاق ، ينتعش الآن ، والذراعان تهمان أن تتركا الجسم وأن تندفعا في فعل . وظهر الجمع بين شخصيتين أو ثلاث أو خمس . أصبحت المدارس التقليدية مدعوة الى الابداع بظهور موجات كبيرة من الهواة أو المنشقين . ان هذه القوة الجديدة في هذا القطاع من الحياة الثقافية تتحقق في كثير من الأحيان دون أن يلاحظها أحد . ولكن مساهمتها في الكفاح الوطني مساهمة كبيرة . فحين يحرك الفنان الوجوه والاجسام وحين يجعل موضوع ابداعه جماعة متراصة من الناس على قاعدة واحدة ، فانه يدعو الى

الحركة المنظمة .

واذا نحن درسنا أصداء يقظة الوعي القومي في مجال القيشاني والفخار ، كان في وسعنا أن نذكر هذه الملاحظات نفسها . ان المبدعات في هذا المجال تهجر أشكالها القديمة : الجرار والخوابي والأطباق تتبدل ، تتبدل في أول الأمر تبدلا طفيفا تدريجيا ، ثم تتبدل بعد ذلك تبدلا قويا جارفا . والتلوينات التي كانت في أول الأمر محدودة خاضعة لقوانين تقليدية في الانسجام تتكاثر وتترجع فيها الاندفاعية الثورية . ان بعض ألوان الأحمر وبعض ألوان الأزرق ، التي كانت محرمة منذ الأزل ، كما يبدو ، في مجال ثقافي معين ، تفرض الآن نفسها دون أن تثير الاستهجان . وكذلك نرى «اللاتعبيرية» في الوجه الانساني ، وهي صفة تتميز بها في رأي علماء الاجتماع المناطق الموصدة تماما ، تخف وطأتها . وسرعان ما يلاحظ الاختصاصي من أبناء البلاد المستعمرة هذه الطفرات ، فتراه على وجه الاجمال يستنكرها باسم أسلوب فني له قواعده ، باسم حياة ثقافية نشأت في جو الوضع الاستعماري . ان الاختصاصيين الاستعماريين ينكرون هذ الشكل الجديد ، ويروحون يستنجدون بتقاليد المجتمع المستعمر في التشهير به . ان الاستعماريين هم الذين يصبحون الآن مدافعين عن الأسلوب المحلي . انكم تتذرون كل التذكر «ولهذا المثال أهمية خاصة لأن الأمر فيه ليس أمراً واقعاً قومياً تماما» كيف كان موقف الاختصاصيين الاستعماريين في الجاز حين رأوا عقب الحرب العالمية الثانية تبلور واستقرار أساليب جديدة مثل ال «بيبوب» . ذلك أن الجاز ليس الا حنين المنكسر اليائس الذي يحسه زنجي هرم أحاطت به خمس كؤوس الويسكي مع اللعنة والاحتقار والحقد العرقي الذي يحمله له البيض . فاذا أدرك نفسه ادراكا جديدا ، واذا أدرك العالم على نحو مختلف ، فانبعث الأمل في نفسه وفرض على

العالم العرقي أن يتراجع ، فلا بد أن يميل بوقه الى الأنطلاق ، ولابد أن يجنح صوته الى التحرر من بحَّته . ان الأساليب الجديدة في الجاز لم تنشأ من التنافس الاقتصادي فحسب ، بل هي ولاشك نتيجة من نتائج انهزام العالم الجنوبي في الولايات المتحدة انهزاما لامناص منه وان يكن بطيئا . وليس من قبيل الخيال أن نفترض أن يدافع البيض وحدهم بعد خمسين عاما عن نوع «الجاز الصراخ» الذي يتقيؤه زنجي مسكين ملعون ، لحرصهم على صورة مجمدة لنموذج من الصلات وشكل من الزنجية .

وفي وسعنا أيضا ، على مستوى الرقص والغناء الميلودي والطقوس والاحتفالات التقليدية ، أن نجد هذه الانطلاقة نفسها وأن نكشف عن هذه الطفرات نفسها ، وعن هذا التحرق نفسه الى الانطلاق . ومعنى ذلك كله أن القارىء الفطن المنتبه يستطيع ، قبل مرحلة التحرير ، السياسية أو المسلحة ، أن يحس وان يرى ظهور القوة الجديدة والمعركة المقبلة . فثمة أشكال من التعبير لا عهد بها من قبل ، وثمة موضوعات جديدة لم يسبق أن طرقت ، موضوعات مزودة لا بقدرة على الاهانة فحسب ، بل أيضا على تجميع الصفوف ، وتحريضها «في سبيل هدف» . هذا كله يساهم في ايقاظ حساسية المستعمر ، وفي جعل مواقف التأمل ومشاعر الاخفاق شيئا مضى زمانه لا يقبل . ان المستعمر حين يجدد اغراض وحركة الحرفة والرقص والموسيقى والأدب وحكايات البطولة انما يعيد بناء اراكه للعالم ، فيفقد العالم في نظره طابع اللعنة ، وتتجمع عندئذ الشروط لخوض المعركة التي لابد من خوضها .

لقد شهدنا تحرك التجليات الثقافية ، رأينا أن هذا التحرك ، أن هذه الأشكال الجديدة مرتبطة بنضج الوعي القومي . وهذا التحرك يريد أن يتحقق في واقع موضوعي ، يريد أن يصير الى مؤسسة قائمة ،

لذلك كان لا بد من وجود قومي مهما كلف الأمر .

ان من الأخطاء الفادحة ، التي يصعب الدفاع عنها من جهة أخرى ، أن نحاول تحقيق تجديدات ثقافية ، وأن نحاول رد الاعتبار والقيمة الى الثقافة الوطنية ، ونحن ما نزال في ظل السيطرة الاستعمارية . واني لأنتهي من هذا الى تقدير نتيجة قد تبدو غريبة مفارقة هي أن أقوى دفاع وأجدى دفاع عن الثقافة القومية انما يكون بالأخذ بالعقيدة القومية ولو في أبسط أشكالها وفي أكثر هذه الأشكال بدائية وفجاجة . ان الثقافة هي أولا وقبل كل شيء تعبير عن أمة ، عن مفضلات هذه الأمة وعن محرماتها وعن نماذجها . وعلى كافة مستويات المجتمع بأسره انما تتكون محرمات أخرى وقيم أخرى ونماذج أخرى . فالثقافة القومية هي مجموع هذه التقديرات كلها ، هي محصلة التوترات الداخلية والخارجية في المجتمع برمته وفي مختلف طبقات هذا المجتمع . فما دام الوضع الاستعماري قائما فالثقافة تنصب وتحتضر لأنها تكون محرومة من ركيزتيها ، الأمة والدولة . وعلى ذلك فان التحرير القومي وانبعاث الدولة شرط لوجود الثقافة .

واذا كانت الأمة هي الشرط اللازم لقيام الثقافة وازدهارها وتجددها المتصل وعمقها ، فهي أيضا حاجة وضرورة . ان الكفاح الذي تخوضه الأمة هو الذي يطلق الثقافة من عقالها ويفتح لها أبواب الابداع ، كما ان الأمة في مرحلة ثانية ، هي التي توفر للثقافة ظروف نمائها واطار تعبيرها . ان الأمة هي التي تهيىء للثقافة شتى العناصر الضرورية التي تستطيع وحدها أن تهب للثقافة أمانة وصدقا ونشاطا وابداعا . وكون الثقافة قومية هو الذي يجعلها قادرة على أن تنفذ اليها الثقافات الأخرى ، وعلى أن تنفذ الى الثقافات الأخرى وتؤثر فيها . فمالا وجود له لا يمكن أن يفعل في الواقع ، ولا أن يؤثر في هذا الواقع . فلا بد أولا

من أن تقوم الأمة ، فاذا قيامها يهب الحياة للثقافة ، بالمعنى البيولوجي لهذه الكلمة . هكذا تابعنا تكسر التحجرات الثقافية شيئا بعد شيء ، وشهدنا تجدد التعبير وانطلاق الخيال قبل المعركة الحاسمة في سبيل التحرير القومي . ويبقى بعد ذلك أن هناك مسألة أساسية تطرح : ماهي العلاقات القائمة بين الكفاح أو الصراع ـــ سواء أكان أساسيا أم مسلحا ـــ وبين الثقافة ؟ هل تعاني الثقافة توقفا أثناء الصراع ؟ هل الصراع القومي مظهر ثقافي ؟ هل نقول ان الكفاح التحريري ، وان يكن خصبا فيما بعد ، هو في ذاته انكار للثقافة ؟ هل كفاح التحرير ظاهرة ثقافية ؟

اننا نعتقد أن الكفاح المنظم الواعي الذي يخوضه شعب من الشعوب لاسترداد سيادة الأمة هو أكمل مظهر ثقافي ممكن . ليس نجاح الكفاح وحده هو الذي يهب للثقافة قيمة وصدقا وقوة ، بل ان معارك الكفاح نفسها تنميء ، في أثناء انطلاقها ، مختلف الاتجاهات الثقافية وتخلق اتجاهات ثقافية جديدة ، فالكفاح لا ينيم الثقافة أثناء اندفاعه . وكفاح التحرير لا يرد الى الثقافة الوطنية قيمتها القديمة وأطرها القديمة ، ولا يمكن ما دام يهدف الى اعادة تنظيم العلاقات بين البشر الا أن يبدل الأشكال والمضامين الثقافية للشعب . ان التحرر بالكفاح لا يزيل الاستعمار فحسب ، بل يزيل المستعمر أيضا .

فهذه الانسانية الجديدة ، الجديدة لذاتها وللآخرين ، لا يمكنها الا ان تنسيء نظرة انسانية جديدة ، بل ان هذه النظرة الانسانية الجديدة قائمة مقدما في أهداف ومناهج الكفاح ان المعركة التي تعبيء جميع طبقات الشعب ، التي تعبر عن صبوات الشعب وعن أشواقه المتحرقة ، التي لا تخشى أن تعتمد على الشعب وحده تقريبا ، أن هذه المعركة ظافرة لا محالة . وقيمة هذا النوع من القتال انما تقوم على كونه

يحقق الحد الاقصى من الشروط اللازمة للنمو الثقافي والابداع الثقافي . وبعد التحرير الذي يتم في هذه الشروط ، لا يكون ثمة ذلك النوع من الحيرة الثقافية المريرة التي نراها الآن في بعض البلدان المستقلة حديثا . ذلك أن الأمة ، في صورة دخولها الى العالم ، وفي أشكال وجودها ، تؤثر في الثقافة تأثيرا أساسيا . ان أمة تنشأ من خوض الشعب نضالا منسجما موحدا ، ان أمة تجسد أشواق الشعب الواقعية ، ان أمة تبدل الدولة ، لا يمكن أن توجد الا في صور من خصوبة ثقافية فذة .

والمستعمرون الذين تهمهم ثقافة بلادهم ويريدون أن تكون لها أبعاد عالمية ، يجب عليهم اذن أن لا يتكلوا في تحقيق هذه المهمة على مجرد مبدأ الاستقلال الذي لابد منه ، دون نفاذ الى وعي الشعب . فشتان بين التحرير القومي من حيث هو هدف وبين مناهج المعركة ومضمونها الشعبي . ويخيل الي أن مستقبل الثقافة وغنى الثقافة القومية متوقفان على القيم التي لازمت معركة التحرير .

وهنا تحين لحظة فضح النفاق الذي نراه لدى بعضهم . يقول بعضهم هنا وهناك ان القومية مرحلة قد تجاوزتها الانسانية ، وان الزمان الحاضر هو زمان التجمعات الكبيرة ، وان على المتأخرين الذين ما زالوا يؤمنون بالقومية أن يصححوا أخطاءهم . ونحن نرى على خلاف ذلك ، أن الخطأ الفادح ، الخطأ المثقل بالنتائج الخطيرة ، هو أن نحاول القفز فوق المرحلة القومية . واذا كانت الثقافة هي التعبير عن الوعي القومي ، فانني لا أتردد عن القول ، في الحالة التي نحن بصددها الآن ، ان الوعي القومي هو أنضج شكل من أشكال الثقافة .

ليس وعي الذات انغلاقا دون التواصل . حتى لقد علمنا التفكير الفلسفي أن وعي الذات هو ضمانة التواصل . ان الوعي القومي ، ان الشعور القومي ، الذي ليس تعصبا قوميا ، هو الأمر الوحيد الذي

يهب لنا بعدا عالميا . ومشكلة الشعور القومي هذه ، مشكلة الثقافة القومية هذه تأخذ في افريقيا أبعادا خاصة . ان نشوء الشعور القومي في افريقيا يتصل بالشعور الافريقي اتصال تعاصر . فمسؤولية الافريقي تجاه ثقافته القومية هي أيضا مسؤولية تجاه الثقافة الزنجية الافريقية . وهذه المسؤولية المنضمة ليست ثمرة مبدأ ميتافزيقي بل هي ثمرة ادراك لقانون معروف يقول بأن كل أمة مستقلة في افريقيا ستظل مطوقة تتربص بها الأخطار في كل لحظة ، الى أن تحرر افريقيا كلها من الاستعمار .

اذا كان الانسان هو ما يفعله هذا الانسان فاننا نستطيع أن نقول أن الشيء الملح المستعجل اليوم ، بالنسبة الى المثقف الافريقي ، هو بناء أمته . فاذا جاء هذا البناء صادقا ، أي اذا عبر عن ارادة الشعب الواضحة ، اذا كشف عن تحرق الشعوب الافريقية ، كان لا محالة مصحوبا باكتشاف قيم انسانية شاملة ، وكان يرتقي بهذه القيم الانسانية الشاملة . ان التحرر القومي لا يبتعد بنا عن الأمم الأخرى ، بل انه هو الذي يجعل الأمة حاضرة على مسرح التاريخ . ففي قلب الوعي القومى انما ينهض الوعي العالمي ويحيا . وليس هذا البزوغ المزدوج ، في آخر الأمر ، الا بؤرة كل ثقافة .

الحرب الاستعمارية والاضطرابات النفسية

ولكن الحرب مستمرة . وعلينا ان نظل سنين طويلة نضمد الجراح الكثيرة ، التي لا تشفى في بعض الأحيان ، الجراح التي أحدثها في شعوبنا الاندفاع الاستعماري .

ان الاستعمار الذي يحارب الآن تحرير البشر ، يدع هنا وهناك بذور تفسخ علينا أن نكتشفها وأن نستأصلها من أراضينا ومن أدمغتنا .

ونحن باحثون هنا مشكلة الاضطرابات العقلية الناشئة عن حرب التحرير الوطني التي يخوضها الشعب الجزائري .

قد يرى بعض الناس ان هذه الملاحظات التي تتصل بالطب العقلي ليست مناسبة ، وأن هذا الكتاب خاصة ليس مكانها . ولكن لا حيلة لنا في الأمر .

ان لم يكن أمرا مرهونا بنا أن أمراضا عقلية واضطرابات في السلوك قد ازدادت لدى الذين «يفرضون السلم» أو لدى الذين يفرض عليهم هذا «السلم» . والحقيقة أن الاستعمار في جوهره كان قبل الآن يصدر لمستشفيات الأمراض العقلية كثيرا من زبائنها . وقد لفتنا نظر علماء الطب العقلي الفرنسيين والعالميين ، منذ عام 1954 ، في بحوث علمية مختلفة ، الى صعوبة «شفاء» مريض من المستعمرين شفاء

سليما ، أي جعله متجانسا تجانسا تاما مع بيئة اجتماعية من الطراز الاستعماري .

ان الاستعمار ، من حيث هو نفي منظم للآخر ، من حيث هو قرار صارم بانكار كل صفة انسانية على الآخر ، يحمل الشعب المستعمر على أن يتساءل دائما هذا التساؤل : «من أنا في الواقع ؟» .

والمواقف الدفاعية الناشئة عن هذه المواجهة العنيفة للمستعمر وعن النظام الاستعماري ، تنتظم في بنيان يكشف عندئذ عن شخصية المستعمر . ويكفي من أجل أن نفهم هذه «الحساسية» أن ندرس وأن نقدر عدد وعمق الجراح التي تصيب المستعمر خلال يوم واحد من أيام حياته في ظل النظام الاستعماري . ويجب أن نتذكر على كل حال أن الشعب المستعمر ليس شعبا مسيطرا عليه فحسب . لقد ظل الفرنسيون في عهد الاحتلال الالماني بشرا ، وظل الألمان في عهد الاحتلال الفرنسي بشرا . أما في الجزائر فليس هناك سيطرة فحسب ، وانما هناك عزم على ان لا يتناول الاحتلال في آخر الأمر الا أرضا . فالجزائريون ، والنساء المرتديات ملاءاتهن («الحايك») ، وكروم البلح ، والجمال ، ليست عند المستعمرين الا الصورة الاجمالية أو الأرضية الطبيعية التي يبرز عليها الوجود الانساني الفرنسي .

فالطبيعة المعادية ، العصية ، المتمردة ، انما هي في المستعمرات : الفيافي ، والبعوض ، «والسكان الاصليون» وأمراض الحمى . والاستعمار ينجح حين يفلح أخيرا في اخضاع هذه الطبيعة العصية كلها . ان مد الخطوط الحديدية في الفيافي ، وتجفيف المستشفيات ، وازالة «السكان الأصليين ، من الوجود السياسي والاقتصادي ، كل ذلك انما هو شيء واحد .

وفي مرحلة الاستعمار الذي لا يستنكره نضال مسلح ، حين

يتجاوز مجموع التهيجات الضارة حدا معينا ، تنهار المواقف الدفاعية للمستعمرين ، فنجد عددا كبيرا من هؤلاء المستعمرين في مستشفيات الأمراض العقلية . ففي هذه المرحلة من الاستعمار المنتصر ، نرى مقدارا مطردا كبيرا من الأمراض يحدثه الاضطهاد احداثا مباشرا .

واليوم أصبحت حرب التحرير الوطني التي يخوضها الشعب الجزائري منذ سبع سنين ، لأنها حرب كلية لدى الشعب ، أصبحت هذه الحرب تربة صالحة لانطلاق الاضطرابات العقلية (17) . ونحن ذاكرون هنا عددا من الحالات هي حالات مرضى جزائريين وفرنسيين عالجناهم ، وهي حالات تبدو لنا ناطقة . ومن نافل القول أن نذكر أننا لا نقدم الآن عملا علميا . فنحن نتحاشى كل مناقشة في الأعراض أو التصنيف أو العلاج . وليس المقصود من بعض المصطلحات الطبية الا أن تكون نقاط استناد . ومع ذلك يجب علينا أن نلح على الأمرين التاليين :

ان الطب العقلي العيادي ، بوجه عام ، يصنف مختلف الاضطرابات التي لاحظناها في مرضانا في باب «أمراض الذهان الاستجابي» . وعلى هذا الأساس ننظر بعين الاعتبار خاصة الى الحادث الذي أطلق المرض ، وان كنا نشير هنا وهناك الى دور التربة المؤهبة للمرض «التاريخ النفسي والعاطفي والجسمي للمريض» والى دور البيئة ، ويبدو لنا أن الحادث الذي اطلق المرض في الحالات التي نعرضها هنا هو في الدرجة الأولى ذلك الجو الدامي الذي لا يرحم ، هو تلك الأعمال التي لا تعرف الروح الانسانية والتي أصبحت عاملة شاملة ، هو هذا الشعور الدائم الذي لا يبرح نفوس الناس بأنهم يشهدون قيام الساعة .

ان الحالة رقم 2 ، من السلسلة «أ» هي حالة ذهان استجابي

نموذجي ، ولكن الحالات 1 ، 2 ، 3 ، 4 من السلسلة «ب» تحتمل تعليلا أكثر تعددا ، ولا يمكن ان نتحدث فيها عن حادث بعينه هو الذي اطلق المرض . فها هنا نقول ان الحرب ، هذه الحرب الاستعمارية التي تكتسي في كثير جدا من الأحيان صورة ابادة جماعية للنوع الانساني ، هذه الحرب التي تقلب العالم رأسا على عقب وتحطمه ، هي الحادث الذي يطلق المرض . ان في وسعنا أن نسمي المرض هنا ذهانا استجابيا اذا نحن حرصنا على استعمال اصطلاح موجود . ولكن يجب عندئذ ان نؤكد تأكيدا خاصا على ما تتصف به هذه الحرب في جملتها وفي تفاصيلها من أنها حرب استعمارية . ان المؤلفات التي ظهرت بعد الحربين العالميتين عن الأمراض النفسية بين العسكريين الذين يخوضون غمار الحرب وبين المدنيين الذين يرحلون عن ديارهم ويقاسون القصف بالقنابل ، ليست قليلة . ولكن الطابع الجديد في بعض اللوحات المرضية التي نعرضها هنا يؤكد ، اذا كان ثمة حاجة الى تأكيد ، ان هذه الحرب الاستعمارية تختلف عن غيرها حتى في الأمراض التي تفرزها .

وهناك فكرة أخرى يقررها الباحثون جازمين ، وتحتاج في رأينا الى شيء من التلطيف . هذه الفكرة هي قولهم ان هذه الاضطرابات الاستجابية ليست بالخطيرة خطرا فادحا . ولئن كان صحيحا أنهم وصفوا حالات ذات مضاعفات ذهانية ثانوية ، أي حالات تفككت فيها الشخصية تفككا نهائيا ، فان تلك الحالات التي وصفوها كانت حالات استثنائية دائما . ونحن نرى ، على خلاف ذلك ، أن القاعدة هنا أن هذه الاصابات المرضية اصابات خطيرة خبيثة . انها اضطرابات تدوم اشهرا برمتها ، تهاجم الأنا هجوما قويا وتكاد تترك في جميع الأحوال صدعا يجعل الشخص مهيئا للمرض بسرعة ، صدعا

يمكن أن يلاحظ عمليا بالنظر . ولاشك أن مستقبل هؤلاء المرضى غير مكفول . وهذا مثال يوضح ذلك :

في أحد البلاد الأفريقية التي فازت باستقلالها منذ عدة سنين ، صادف ان استقبلنا رجلا من وطننا كان من المناضلين القدماء . لقد جاء هذا الرجل الذي يبلغ من العمر نحو ثلاثين عاما يسألنا النصح والمعالجة ، فانه متى اقترب موعد معين من السنة استبد به أرق مصحوب بقلق وبأفكار ثابتة تهيب به الى تدمير نفسه . وهذا الموعد الحرج من السنة هو الموعد الذي وضع فيه قنبلة في أحد الأماكن العامة عملا بتعليمات صدرت اليه من شبكته . فقتل في الحادث عشرة أشخاص (18) .

السلسلة أ

نجمع هنا خمس حالات هي حالات جزائريين أو أوروبيين ظهرت فيهم ، على أثر حوادث معينة تماما ، اضطرابات عقلية من النموذج الاستجابي .

الحالة 1 ــ عجز جنسي عند جزائري على أثر اغتصاب زوجته :

ب ... رجل في السادسة والعشرين من عمره . أرسلته الينا «الدائرة الصحية لجبهة التحرير الوطني» لأوجاع في الرأس وأرق . كان سائقا لسيارة تاكسي ، وانخرط في النضال منذ السنة الثامنة عشرة من عمره في صفوف الأحزاب الوطنية . وأصبح منذ عام 1955 عضوا في خلية من خلايا جبهة التحرير الوطني . وقد استعمل سيارته التاكسي عدة مرات في نقل منشورات وفي نقل مسؤولين سياسيين . إزاء تفاقم أعمال القمع قررت جبهة التحرير الوطني أنتنقل الحرب الى مراكز في المدن ، فأصبح ب ... يكلف بأن ينقل الفدائيين الى مقربة من

أماكن الهجوم ، وبأن ينتظرهم في كثير من الأحيان .

وفي ذات يوم ، في قلب مدينة أوروبية ، بعد القيام بعمل كبير بعض الشيء ، اضطرته محاصرة شديدة غاية الشدة ، الى ان يترك سيارته التاكسي ، وتبعثرت فرقة الفدائيين . ولجأ (ب) ... الذي أفلح في النجاة من حصار العدو ، الى بيت صديق له . وبعد بضعة أيام صدر اليه الأمر من المسؤولين ، قبل أن يستطيع العودة الى بيته ، أن يلتحق بأقرب مركز من مراكز المجاهدين .

وظل عدة أشهر لا يتلقى أي نبأ عن زوجته وعن أبنته الصغيرة التي تبلغ من العمر عشرين شهرا . وعلم أيضا أن الشرطة ظلت تبحث عنه في المدينة طوال أسابيع كاملة . وبعد سنتين من الاقامة في ذلك المركز من مراكز المجاهدين تلقى رسالة من امرأته تطلب اليه فيها أن ينساها . لقد تلطخت بالعار . وعليه ان لا يفكر بعد اليوم في استئناف حياتهما المشتركة . فقلق ب ... من ذلك قلقا فظيعا ، وسأل قائده أن يسمح له بالذهاب الى منزله خفية ، فرفض القائد ذلك . واتخذت الاجراءات اللازمة من أجل ان يتصل أحد اعضاء جبهة التحرير بزوجة الرجل وأبويه .

وبعد أسبوعين وصل الى قائد الفرقة التي يعمل فيها ب ... تقرير مفصل .

ما ان وجدت سيارته متروكة «وقد عثروا فيها على ذخيرة» حتى ذهب عدد من الجنود الفرنسيين ومن الشرطة الى بيته . فلما لم يجدوه اعتقلوا زوجته واحتفظوا بها أكثر من اسبوع .

وقد سألوها عن الأشخاص الذين يعاشرهم زوجها ، وظلوا يضربونها ضربا وحشيا مبرحا طوال يومين . ولكن في اليوم الثالث أخرج أحد العسكريين الفرنسيين «لا تستطيع ان تذكر هل هو ضابط أم جندي»

رفاقه الآخرين ، واغتصبها . وبعد قليل اغتصبها شخص آخر ، بحضور الآخرين في هذه المرة ، وقال لها : «اذا رأيت صعلوكك مرة أخرى ذات يوم ، فلا تنسي أن تذكري له ما فعل بك» . ولبثت بعد ذلك أسبوعا دون أن تستجوب مرة أخرى . ثم أعادوها الى بيتها . فلما قصت على أمها قصتها ، أقنعتها أمها بأن تروي لزوجها كل شيء ... ولذلك ما أن استطاعت ان تتصل بزوجها حتى أفضت اليه بالعار الذي لطخها .

واستطاع ب ... أن يتغلب على نفسه بعد انقضاء الصدمة الأولى ، لانخراطه في العمل في كل لحظة . وقد ظل يسمع خلال عدة أشهر حكايات عن نساء جزائريات اغتصبن أو عذبن . وأتيح له أن يرى أزواج نساء مغتصبات ، فكان ينزل مصائبه الشخصية وكرامته الجريحة في المنزلة الثانية من الأهمية .

وفي عام 1958 كلف بمهمة في الخارج . حتى اذا هم ان يعود الى وحدته بعد مدة ، ظهرت فيه أعراض فتور عن العمل وأصبح يعاني أرقا شديدا ، فقلق من ذلك رفاقه ورؤساؤه ، فأجل سفره . وفي هذه اللحظة انما رأيناه . الاتصال الأول جيد . وجه متحرك ، ربما كان كثير الحركة . ابتسامات مبالغ فيها . مرح سطحي : «تحسنت ... تحسنت ... أشعر الآن بتحسن . اعطني بعض المقويات ، اعطني فيتامينات ، ودعني أعود الى العمل ... وكان يظهر وراء ذلك كله قلق أساسي . وأدخل المستشفى .

انهار التفاؤل الظاهري منذ اليوم الثاني ، وأصبحنا ازاء شخص مهدد القوى ، غارق في التأمل لا يأكل ، ولا يبارح سريره . انه يهرب من المناقشات السياسية ، ويظهر عدم الاكتراث بكل ما يتصل بالكفاح الوطني ، ويتحاشى سماع الأنباء الخاصة بحرب التحرير .

كانت مواجهة مشكلاته أمرا شاقا جدا ولكننا استطعنا بعد بضعة أيام أن نؤلف قصته :

لقد قام خلال أقامته في الخارج بمغامرة جنسية أخفقت . فظن أن مرد هذا الأخفاق الى التعب ، وأنه أمر طبيعي بعد المشي المرهق الذي قام به . وبعد فترات سوء التغذية التي مر بها ، واستأنف المحاولة بعد اسبوعين ، فأخفق مرة ثانية . أسر بأمره الى رفيق له ، فنصحه هذا الرفيق بتجرع فيتامين ب 12 ، فتجرع منه أقراصا ، ثم حاول محاولة جديدة ، فأخفق ايضا . وأكثر من ذلك أنه قبل الفعل ببضع لحظات رغب رغبة لا تقاوم في أن يمزق صورة فوتوغرافية لابنته الصغيرة . ان مثل هذا الارتباط الرمزي كان يمكن ان يبعثنا على تصور وجود اندفاعات لاشعورية تحض على الخيانة الزوجية . غير أن عددا من الأحاديث التي أجريناها معه ، بالاضافة الى حلم من احلام المريض «رأي في منامه تفسخ قطة صغيرة مع انتشار روائح لا تطاق» قد قادتنا الى اتجاه آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف . لقد قال لنا في ذات يوم «والحديث عن ابنته الصغيرة» : «ان في هذه البنت شيئا متفسخا» . ومنذ تلك الفترة اصبح أرقه مؤلما أشد الايلام ، ورغم اسعافه بمقادير كبيرة من المهدئات فقد نشأ لديه حالة من فرط التهيج الخائف ، أقلقتنا قلقا شديدا . وحدثنا عندئذ عن امرأته لأول مرة قائلا : «لقد داقت الفرنسيين» . وفي هذه اللحظة انما تصورنا القصة كلها . لقد برزت لحمة الحوادث . وعلمنا منه انه قبل كل محاولة جنسية كان يفكر في امرأته . وكل ما أفضى به الينا بدا لناذا أهمية اساسية .

لقد تزوجت هذه الفتاة بينما كنت أحب ابنة عمي . ولكن أهلها زوجوها من شخص آخر . فقبلت عندئذ الفتاة الأولى التي اقترحها

علي أبواي . كانت لطيفة مهذبة ، لكنني لم أكن أحبها . وكنت أقول لنفسي دائما ، ما زلت شابا . فلأصبر قليلا ،حتى اذا وجدت ما يناسب ، طلقت وتزوجت زواجا سعيدا . لذلك كنت قليل الارتباط بزوجتي . وجاءت الحوادث فأبعدتني عنها مزيدا من الابعاد . وفي نهاية الأمر كنت اجيء الى البيت للطعام ، وأنام دون ان أكلمها تقريبا .

«وفي المعسكر ، حين علمت ان فرنسيين اغتصبوها شعرت أول الأمر بحقد على هؤلاء الأنذال . ثم قلت : «بسيطة . انها لم تقتل . وستستطيع ان تستأنف حياتها» . وبعد بضعة أسابيع أدركت أنهم أغتصبوها لانهم كانوا يبحثون عني . والواقع أنهم اغتصبوها معاقبة لها على صمتها . لقد كان في وسعها أن تذكر لهم اسم واحد على الأقل من المناضلين ، فيهتدوا الى الشبكة ويحطموها ، وربما استطاعوا ان يقتلوني أنا . فالأمر لم يكن اذن مجرد اغتصاب شجع عليه التعطل أن دفعت اليه السادية ، كما أتيح لي أن أرى مثل ذلك في بعض القرى ، وانما هو اغتصاب امرأة عنيدة تحملت كل شيء الا ان تبيع زوجها . وهذا الزوج هو أنا لقد أنقذت هذه المرأة حياتي ، وحمت الشبكة كلها . وبسببين . ولكنها لم تقل لي «هذا قاسيته في سبيلك» ،وانما قالت : «عليك أن تنساني ، وأن تجدد حياتك ، فقد تلطخت أنا بالعار» .

ومنذ تلك اللحظة انما عزمت في قرارة نفسي على ان استرد زوجتي بعد الحرب ، الا يجب ان أقول لك انني رأيت فلاحين يكفكفون دموع زوجاتهم اللواتي اغتصبن على مرأى منهم . لقد هزني ذلك كثيرا . ويجب أن أعترف لك من جهة أخرى أنني لم استطع في أول الأمر ان أفهم موقفهم هذا . ولكننا صرنا ، شيئا بعد شيء ، نتدخل في هذه الأمور ونشرحها للمدنيين . حتى لقد قابلت مدنيين متطوعين

من اجل تزويج فتاة اغتصبها عسكريون فرنسيون وأصبحت حاملا . وذلك كله أعادني إلى التفكير في مشكلة أمراتي .

لقد عزمت على أن استردها ، لكنني لا أعرف بعد كيف يكون سلوكي حين أراها . وحين أنظر الى صورة ابنتي أشعر في كثير من الاحيان أن شرفها ملطخ هي ايضا ، كان كل ما يصدر عن أمراتي فاسد نتن . لو انهم عذبوها ، لو أنهم حطموا جميع اسنانها ، لو أنهم كسروا ذراعها ، لما أثر في ذلك . ولكن هذا الأمر ، هل يستطيع المرء ان ينساه ؟ وهل كانت مضطرة أن تطلعني على ذلك كله ؟» .

وسألني عندئذ هل مرد ضعفه الجنسي الى همومه .

فأجبته : «جائز» .

فجلس على سريره وقال :

ــ ما عساك تفعل لو حدث لك هذا ؟

ــ لا أدري .

ــ هل تسترد امرأتك ؟

ــ أظن .

ــ ها .. اذن أنت لست واثقا كل الثقة من انك تستردها .

وأمسك رأسه بيديه ، ثم ترك الغرفة بعد بضع لحظات .

ومنذ ذلك اليوم أصبح يرضى شيئا بعد شيء ان يسمع مناقشات سياسية ، بينما أخذت اوجاع الرأس تتراجع كثيرا ، وأصبح يقبل ان يأكل .

وبعد اسبوعين التحق بوحدته ، وهو يقول لي :«الى اللقاء بعد الاستقلال . سأسترد زوجتي . واذا انتكست صحبتي فسأجيء لأراك بمدينة الجزائر» .

الحالة ط ـ اندفاعات الى القتل غير متميزة لدى شخص نجا من الموت أثناء ابادة جماعية :

س ... عمره 37 سنة . فلاح . يسكن في قرية من مقاطعة قسنطينة . لم يهتم بالسياسة في يوم من الأيام . أصبحت منطقته منذ بداية الحرب ميدان معارك عنيفة بين القوى الجزائرية والجيش الفرنسي . وبذلك أتيح له أن يرى قتلى وجرحى . ولكنه ظل بعيدا . وكان الفلاحون في قريته يساعدون المقاتلين الجزائريين المارين ، من حين الى حين ، كما يساعدهم سائر الشعب . ولكن في ذات يوم من أوائل عام 1958 أقيم كمين في مكان غير بعيد عن القرية ، نشأ عنه سقوط قتلى . فقامت القوى العدوة بحملة عسكرية وحاصرت القرية . وكانت القرية خالية من الجنود . وجمع سكان القرية جميعا وأستجوبوا ، فلم يجب منهم أحد بشيء . ووصل أحد الضباط الفرنسيين بعد بضع ساعات على طائرة هليوكوبتر ، وقال : «ان هذه القرية سيئة السمعة ، فهدموها !» فأخذ الجنود يحرقون البيوت ، ويضربون بأعقاب البنادق النساء اللواتي يحاولن التقاط بعض الملابس أو انقاذ بعض المؤن . وانتهز بعض الفلاحين هذا الاضطراب ، ففروا . وأصدر الضابط أمره بجمع الباقين من الرجال ، وقادهم الى قرب مجرى من مجاري السيول ، وبدأ هناك قتلهم . فمات تسعة وعشرون . وجرح س برصاصتين اجتازت أحداهما فخذه اليمنى واجتازت الثانية ذراعه اليسرى ، وسبب له هذا الجرح الثاني كسرا في عظم العضد .

وقد أغمى على س .. فلما أفاق من اغمائه وجد نفسه وسط جماعة من جيش التحرير الوطني . وعالجته مصلحة الصحة ، ثم أجلي حين أصبح في الامكان نقله . ففي أثناء الطريق كان سلوكه يزداد

شذوذا شيئا بعد شيء ، حتى أصبح يقلق حرسه . كان يطالببندقية ، في حين انه مدني وعاجز ، وكان يرفض أن يسير أمام أي شخص كان ، انه لا يريد ان يسير أحد وراءه . وفي ذات ليلة استولى على سلاح أحد المقاتلين ، وأخذ يطلق الرصاص في خراقة ، على الجنود النائمين ، فلم يلبث أن جرد من سلاحه بقسوة . وكبلت يداه منذ تلك اللحظة . ثم ظلت مكبلة ، وعلى هذه الحال انما وصل الى المركز .

بدأ بأن قال لنا انه لم يمت ، وانه دبر «مقلبا» للآخرين . واستطعنا شيئا فشيئا ان نتصور قصة اخفاق قتله . ان س .. لا يعاني حالة خوف ، وانما هو مفرط في التهيج ، مع فترات من اضطراب شديد مصحوب بعويل . انه لا يكسر كثيرا ، ولكنه يزعج جميع الناس بثرثرته التي لا تنقطع وكانت المصلحة في حالة يقظة دائمة بسبب عزمه الأكيد على أن «يقتل جميع الناس» . وفي وجوده في المستشفى هاجم نحوا من ثمانية مرضى بأسلحة عثر عليها مصادفة . وهو لا يستثنى الممرضين والأطباء . حتى لقد تساءلنا أليس من الجائز أن نكون ازاء شكل من تلك الأشكال المقنعة من مرض الصرع الذي يتميز بعدوانية شاملة متوترة في كل لحظة تقريبا .

وشرعنا في معالجته بالنوم . وابتداء من اليوم الثالث استطعنا بمحادثات يومية أن نزداد فهما لحالته المرضية . اختفت الفوضى العقلية شيئا بعد شيء . اليكم هذه الفقرات من تصريحات المريض :

«ان الله معي ... ولكنه ليس اذن مع اولئك الذين ماتوا ... لقد خصني الله بعنايته ... على المرء في هذه الحياة أن يقتل حتى لا يقتل ... كنت أجاهد لأخفي عنهم كل شيء . ان بيننا فرنسيين . ولكنهم فرنسيون متخفون يتظاهرون بأنهم عرب . يجب قتلهم جميعا . أعطني مدفعا رشاشا . جميع هؤلاء الذين يظنون جزائريين انما هم

فرنسيون . وهم لا يدعونني وشأني . كلما أردت أن أنام دخلوا الى غرفتي . لكنني الآن أعرفهم . جميع الناس يريدون ان يقتلوني . ولكنني سأدافع عن نفسي . لسوف أقتلهم جميعا بغير استثناء . لسوف أذبحهم بعضا وراء بعض . وسوف أذبحك أنت أيضا . انك تريد أن تقتلني . ولكن يجب ان تتبع غير هذه الطريقة . لن يكلفني شيئا ان أصرعك . الصغار ، والكبار ، والنساء والأطفال ، والطيور ، والحمير ، هؤلاء جميعا سيلقون نفس المصير . وبعدئذ استطيع أن أنام هادئا مطمئنا ...» .

قال س ... ذلك كله بلغة مقطعة ، وظل وضعه أثناء ذلك يعبر عن العداوة والغطرسة والاحتقار .

وزال الاهتياج بعد بضعة أسابيع ، غير ان ما لاحظناه فيه من تكتم وميل الى العزلة جعلنا نخشى تطورا أخطر . ومع ذلك طلب بعد شهر ان يخرج ليتعلم مهنة تناسب عاهته ، فعهد به عندئذ الى الدائرة الاجتماعية من جبهة التحرير الوطني . ورأيناه بعد ستة أشهر ، فكانت حالته حسنة .

الحالة 3 : ذهان خائف خطير من نموذج الشخصية بعد قتل امرأة في حالة خروج عن الطور .

ج ... طالب سابقا . عسكري في جيش التحرير الوطني . العمر 19 عاما . حين وصل الى «المركز» كان مريضا منذ بضعة أشهر . هيئة متميزة : سوداوية قوية ، شفتان جافتان ، يدان مبتلتان دائما . تنهدات لا تنقطع ، يرتفع لها صدره . محاولة انتحار منذ أول الاضطرابات . أثناء الحديث ، يبدو مصغيا الى هلوسات . وفي بعض الأحيان يحدق الى نقطة من المكان بضع لحظات ، بينما ينتعش وجهه ، فيتصور من يراه أنه يشهد منظرا . أفكار غائمة . بضع

ظاهرات تعرف في الطب العقلي باسم السد : يبدأ حركة أو جملة ثم يقطعها على حين فجأة لغير سبب ظاهر . غير أن هناك عنصرا لفت نظرنا خاصة : ان المريض يحدثنا عن دمه الذي يسفح ، عن شرايينه التي تفرغ ، عن قلبه الذي فيه رصاصات . انه يتوسل الينا ان نوقف النزيف ، وأن لا نسمح بأن يلاحق حتى المستشفى لامتصاص دمه . وكان من حين الى حين يعجز عن الاستمرار في الكلام ، فيطلب قلما ، ويكتب : «لم يبق لي صوت . حياتي كلها تذهب» وجعلنا هذا التفكك في الشخصية نعتقد ان مرضه سيتطور تطورا أخطر .

وأشار المريض عدة مرات أثناء أحاديثنا معه الى امرة توافيه عند هبوط الليل وتندبه . واذ انني علمت قبل ذلك ان أمه ميته ، وأنه كان يحبها كثيرا ، وأنه ما من شيء أمكن ان يعزيه عن فقدها «لقد اختنق صوته اختناقا شديدا في تلك اللحظة ، وترقرقت في عينيه دموع» ، فقد وجهت بحثي نحو ضرورة الأم . فلما سألته أن يصف لي تلك المرأة التي تلاحقه ، وتعذبه ، صرح لي بأن هذه المرأة ليست مجهولة له ، وبأنه يعرفها حق المعرفة ، لأنه هو الذي قتلها . فأصبح علينا أن نعرف هل نحن ازاء عقدة الذنب اللاشعورية التي تنشأ بعد موت الأم ، كما وصف ذلك فرويد في كتابه «الحداد والكآبة» . فطلبنا الى المريض أن يحدثنا عن هذه المرأة حديثا أطول ، ما دام يعرفها حق المعرفة ، وما دام هو الذي قتلها ايضا . وعلى هذا النحو عرفنا القصة التالية :

«من المدينة التي كنت فيها طالبا التحقت بمربض المجاهدين . وبعد بضعة أشهر جاءتني أخبار عن أسرتي . فعلمت ان أمي قد قتلها جندي فرنسي منذ قليل ، وأن أختي اقتيدتا الى بيوت العسكرين . وأنا

أجهل حتى الآن ما صارتا اليه . وقد هزني موت أمي هزا قويا . ان أبي مات منذ بضع سنينجد الرجل . ولم يكن في البيت الا زوجته . فلما رأتنا أخذت تتضرع الينا ن ، واصبحت الرجل الوحيد في الأسرة ،وكان مطمعي الوحيد دائما هو ان أصل الى ما يحسن حياة أمي وأختي . وفي ذات يوم ذهبنا الى مزارع المستوطنين . كان صاحبها — وهو استعماري فعال — قد قتل اثنين من المدنيين الجزائريين . وصلنا الى المزرعة ليلا . ولكننا لم ان لا نقتلها . قالت : «أعرف انكم جئتم من أجل زوجي ، ولكنه ليس هنا . كم مرة قلت له ان لا يتدخل في السياسة . وتقرر ان ننتظر زوجها . ولكنني كنت أنظر الى المرأة فأتذكر أمي . كانت جالسة على مقعد وكأنها في غيبوبة . وتساءلت : لماذا لا نقتلها . وأدركت هي في لحظة من اللحظات أنني أنظر اليها ، فارتمت علي وهي تصرخ : «لا تقتلني .. أرجوك .. عندي أطفال ..» فما هي الا لحظة حتى كانت ميتة . قتلتها بسكيني . جردني الرئيس من سلاحي وأمرني بالانصراف . واستجوبني قائد القطاع بعد بضعة أيام . واعتقدت أنني سأعدم ، ولكنني لم أعبأ (19) . وبعد ذلك أصبحت اتقيأ بعد الطعام ، وساء نومي . ثم أصبحت هذه المرأة توافيني في كل مساء تطلب دمي . ودم أمي اين هو ؟

متى هبط الليل ، ورقد المريض في فراشه ، «امتلأت غرفته بنساء» لا يتغيرن . انهن جميعا نسخ واحدة لامرأة واحدة . في بطونهن جميعا طعنة فاغرة . والدم ينزف منهن جميعا ، وقد اصفرت وجوههن ، ونحلن نحولا رهيبا . وكانت هذه النساء تلاحق المريض وتطالبه أن يرد اليها دمها المسفوح . فاذا بالمريض يسمع في هذه اللحظة خرير ماء يجري ، ويتسع الخرير حتى يصبح كهدير شلال ، ثم اذا به يرى أرض الغرفة

يمتلىء بدم هو دمه ، بينما النساء تتورد وجوهها شيئا فشيئا وتأخذ جروحها بالاندمال . فيستيقظ المريض وقد بلله العرق واستبد به خوف رهيب ، ويظل مضطربا حتى طلوع الفجر .

عولج المريض الشاب بضعة أسابيع ، فزالت هذه الكوابيس الليلية ولكن ظل في شخصيته صدع كبير . فانه ما ان يتذكر أمه حتى تتراءى له هذه المرأة المبقورة المرعبة الى جانبها . وقدرنا أن الزمن وحده يمكن أن يحمل بعض التحسن الى شخصية هذا المريض الشاب المفككة .

الحالة 4 ـــ شرطي اوروبي مصاب بهبوط نفسي يلتقي في بيئة المستشفى باحد ضحاياه ، هو مواطن جزائري مصاب بخبل :

آ...عمره 28 سنة . متزوج ، وليس له أولاد .علمنا انه يعالج نفسه وزوجته منذ بضع سنين من أجل أن ينجبا أولادا ، ولكن دون طائل للأسف . وقد أرسله الينا رؤساؤه لاضطرابات في سلوكه .

الاحتكاك المباشر جيد . وقد حدثنا المريض عن صعوباته من تلقاء نفسه .انه على تفاهم تام مع زوجته ، ومع أهلها . علاقاته برفاقه في العمل علاقات طيبة . وهو يحظى عدا ذلك بتقدير رؤسائه . والأمر الذي يزعجه هو أنه يسمع في الليل صرخات تمنعه من النوم . وقد ذكر لنا فعلا ،أنه منذ عدة أسابيع أخذ يغلق النوافذ قبل النوم «نحن في الصيف» ، فيزعج بذلك زوجته التي تختنق من شدة الحر اختناقا . واكثر من ذلك انه يضع في اذنيه قطنا حتى يخفف حدة الصرخات التي يسمعها . بل انه في بعض الأحيان يفتح جهاز الراديو ليلا ،أو يصغي الى موسيقى ، حتى لا يسمع تلك الصرخات التي تخترق سمعه في الليل .

ثم اخذ آ ... يعرض لنا قصته في كثير من الافاضة :

لقد الحق منذ بضعة أشهر بفرقة لملاحقة جبهة التحرير الوطني ، فكلف في أول الأمر بمراقبة بعض المؤسسات أو لمقاهي ، ولكنه أصبح بعد بضعة أسابيع يعمل في مفوضيه الشرطة باستمرار تقريبا . وعندئذ انما أتيح له أن يمارس أعمال الاستجواب ، وهي أعمال لا تخلو من «ازعاجات» ، لأنهم «لا يريدون أن يعترفوا بشيء» .

وشرح آ .. يقول : «ان المرء ليتمنى أن يقول لهم : لو كان فيهم شيء من رحمة ربنا لتكلموا ، دون أن يضطر الى قضاء ساعات في انتزاع المعلومات منهم كلمة كلمة . ولكناني لك أن تشرح لهم ذلك ! انهم يجيبون على جميع الاسئلة بقولهم : لا أعرف . اذا سألتهم عن أسمائهم قالوا : لا أعرف ، واذا سألتهم اين يسكنون قالوا : لا اعرف .وطبعا ... لابد لنا عندئذ من العمل ... ولكنهم يصرخون كثيرا . وكان هذا يضحكني في أول الأمر . غير انه أخذ بعد ذلك يهزني . وأصبحت اليوم أستطيع من مجرد سماع صراخ أحدهم ان اعرف اين هو من الاستجواب ، وأي مرحلة من مراحلة يقطع . فالفتى الذي لطم لطمتين وضرب بالمطرقة وراء أذنه ، له طريقة خاصة في الكلام والصراخ وفي قوله انه بريء . حتى اذا ظل ساعتين معلقا من قبضته أصبح صوته صوتا آخر . وبعد المغطس يكون له صوت ثالث ، وهكذا دواليك . ولكن بعد الكهرباء خاصة انما يصبح الامر لا يطاق . يخيل الى المرء في كل لحظة أن الرجل مائت لا محالة . هناك طبعا أشخاص لا يصرخون : هؤلاء هم القساة . ولكنهم يتخيلون انهم سيقيلون فورا . ونحن لا يهمنا أن نقتلهم ، وانما يهمنا ان نحصل منهم على معلومات . لذلك فان أول ما نقتلهم ، وانما يهمنا ان نحصل منهم سيقتلون فورا . يصلون اليه آجلا . هذا وحده نصر . ثم نستمر . لاحظ اننا نتمنى لو نتفادى ذلك كله . ولكنهم لا يسهلون مهمتنا .

وقد اصبحت الآن اسمع هذا الصراخ حتى في بيتي . وخاصة صراخ عدد منهم ماتوا في المفوضية . لقد اشمأزت من هذا العمل يا دكتور . فاذا شفيتني طلبت نقلي الى فرنسا ، فان رفضوا نقلي استقلت» .

وازاء هذا امرت للمريض احازة مرضية . واذ رفض دخول المستشفى ، أخذت أعالجه في بيتي . وفي ذات يوم ،قبل حلول موعد جلسة معالجته بقليل ، استدعيت الى الدائرة استدعاء مستعجلا .فلما وصل آ ... الى بيتي ، طلبت اليه زوجتي أن ينتظرني ، ولكنه آثر ان يمضي يجول جولة في المستشفى فيلقاني هنالك . وبعد بضع دقائق ، بينما كنت عائدا الى البيت وجدته في الطريق ، مستندا الى شجرة ،مرهقا ارهاقا واضحا ، مرتجفا مبللا بالعرق ، يعاني نوبة قلق قوي . فأركبته سيارتي ونقلته الى بيتي . فلما استقر على الديوان روى لي انه التقى في المستشفى بواحد من مرضاي سبق ان استجوب في مراكز الشرطة «هو مواطن جزائري» وهو يعالج الآن من «اضطرابات سلوكية من نوع الخبل» . فعلمت عندئذ أن هذا الشرطي قد اشترك فعلا في أنواع التعذيب التى أوقعوها في ذلك المريض . ووصفت للمريض آ ... بعض المسكنات التي من شأنها أن تخفف قلقه . وعدت بعد انصرافه الى الجناح الذي يستشفى فيه المواطن ان الموظفين في المستشفى لم يلاحظوا شيئا . ولكن المريض كان قد اختفى . واكتشفوه أخيرا في المرحاض يحاول الانتحار «لقد عرف المواطن الشرطي ايضا ، واعتقد أنه جاء يقبض عليه ليقوده مرة أخرى الى مراكز الشرطة» .

وقد جاءني آ ... بعد ذلك عدة مرات ، حتى اذا تحسنت صحته تحسنا واضحا ، استطاع أن يحصل على أمر بترحيله الى بلاده لأسباب صحية . أما المواطن الجزائري فقد جهد الموظفون في المستشفى أن

يقنعوه بأنه واهم ، وبأن رجال الشرطة لا يمكن أن يأتوا الى المستشفى ، وبأنه متعب ، وبأنه جيء به الى هنا للمعالجة ، الخ .

الحالة 5 : مفتش أوروبي يعذب امراته واولاده :

ر ... العمر ثلاثون عاما . جاء يستشيرنا من تلقاء نفسه . انه مفتش في الشرطة ، وهو يلاحظ منذ بضعة أسابيع أن حالته ليست طبيعيه . متزوج له ثلاثة أولاد . يدخن كثيرا : مائة سيجارة في اليوم . فقد شهوة الطعام ، وأصبح نومه مليئا بأحلام مزعجة «كوابيس» . وليس لهذه الكوابيس خصائص معينة . الذي يضايقه أكثر من أي شيء آخر هو ما يسميه «نوبات الجنون» .

من ذلك أولا أنه لا يجب أن يعارض . قال «فسر لي هذا الأمر يا ذكتور . انني متى صادفت معارضة ما أحسست برغبة في الضرب . حتى في خارج عملي أتمنى أن أعذب من يعترض طريقي . أي شيء تافه يثير في نفسي هذه الرغبة . خذ هذا المثال : ذهبت مرة الى بائع الجرائد لأخذ جرائدي . كان هنالك ناس كثير . لابد اذن من الانتظار . مددت ذراعي لأخذ جرائدي «بائع الجرائد صديق لي» فاذا بأحد الواقفين في طابور الانتظار يقول لي بشيء من التحدي : «انتظر دورك» . فشعرت برغبة في أن الطمه ، وقلت بيني وبين نفسي : «لو أقفتك بضع ساعات يا عزيزي ، لأقللت من المشاغبة بعد ذلك» . وهو لا يحب الضجة . وفي البيت يتمنى لو يضرب جميع من في البيت ، طوال الوقت . بل هو يضرب أولاده فعلا ، حتى ابنه الصغير الذي لا يزيد عمره على عشرين شهرا ، يضربهم بوحشية نادرة .

غير أن الأمر الذي أخافه «هو أن امراته انتقدته في ذات مساء ، لأنه ضرب أولاده» حتى لقد قالت له «يمينا لقد جننت» فما كان منه الا أن ارتمى عليها ،وأخذ يضربها ، ثم أوثقها على كرسي وهو يقول لها

«سأعلمك الى الأبد أنني أنا السيد في هذا البيت» .

ومن حسن الحظ ان أولاده أخذوا يبكون ويصرخون . فأدرك عندئذ خطورة ما جنت يداه ، فحل وثاق ارمرأته ، وقرر في الغداة ان يستشير طبيبا «اخصائيا في الأعصاب» . قال لنا : «انه لم يكن من قبل كما هو الآن ، وانه كان لا يعاقب أولاده الا نادرا ، ولا يتشاجر مع زوجته أبدا على كل حال وأن سلوكه الحالي انما ظهرت أعراضه عند قيام «الاحداث» الجارية . وشرح ذلك بقوله : «اننا نقوم الآن بأعمال سلاح المشاة . في الاسبوع الماضي مثلا خضنا معركة كما او كنا ننتمي الى الجيش . ان هؤلاء السادة ، رجال الحكومة ، يدعون انه ليس في الجزائر حرب ، وان على قوى الأمن ، أي الشرطة ، ان يعيدوا الهدوء الى نصابه . غير أن في الجزائر حربا ، وحين سيدركون ذلك ، سيكون الأوان قد فات . والشيء الذي يقلقني خاصة انما هو التعذيب . اهذا لا يهمك أنت ؟ ... انني أظل اعذب في بعض الآحيان عشر ساعات ...؟

ــ ما الذي يحدثه التعذيب في نفسك ...

ــ أتعب . صحيح ان هناك فترات راحة للمعذبين . ولكن أحدا لا يعرف متى يعهد باتمام العمل الى زميله . ذلك ان المسألة عندنا ما يلي : هل تستطيع ان تحمل هذا الرجل على أن يتكلم ؟ انها مسألة انتصار شخصي . نحن نتنافس . وتتحطم قبضات أيدينا آخر الأمر . وقد أصبحوا يستعينون بالسنغاليين . ولكن هؤلاء السنغاليين اما ان يضربوا ضربا مسرفا في الشدة فيهدموا الرجل في نصف ساعة ، واما ان يضربوا ضربا مسرفا في اللين لا يؤدي الى نتيجة . الواقع ان على المرء أن يكون ذكيا حتى ينجح في هذا العمل . يجب ان يعرف متى يشتد ومتى يلين . المسألة مسالة حذق . ولذلك لابد أن يتولى المرء العمل

بنفسه ، لأنه يستطيع عندئذ أن يراقب تقدم الاستجواب مراقبة أكمل . أنا أخالف أولئك الذين يعهدون بتحضير الشخص الى آخرين ، ولا يزيدون على أن يجيئوا كل ساعة ليروا ما وصل اليه الأمر . ويجب خاصة ان لا يشعر الشخص المعذب بأنه لن يخرج من بين أيدينا حيا ، والا قال لنفسه : فيم أتكلم ما دام الكلام لا ينقذ حياتي ! وفي هذه الحالة لا يمكن أن نعرف أي شيء . يجب أن نترك للشخص المعذب أملا : الأمل الذي هو الذي ينطقه .

«غير ان ما يزعجني اكثر من أي شيء آخر هو قصة امرأتي . انه لأكيد ان لي شيئا من جنون يجب ان تشفيني منه يا دكتور» .

واذ رفضت السلطات التي يتبعها هذا المريض ان تمنحه اجازة راحة ، واذ كان هو نفسه من جهة أخرى لا يريد أن يحصل على شهادة من طبيب أمراض عقلية ، فقد بدأنا بمعالجته وهو «يقوم بعمله» . واضح ان مثل هذا الاجراء ضعيف . فلقد كان الرجل يعلم حق العلم ان اضطراباته ناشئة مباشرة عن نوع العمل الذي يقوم به في قاعات الاستجواب ، وان يكن قد حاول ان يلقي التبعة بوجه اجمالي على «الاحداث» الخارجية . ولما كان لا يفكر في التوقف عن القيام بأعمال التعذيب (اذ ان معنى ذلك ان يستقيل) ، فقد طلب الي ، من غير لف ولا دوران ، ان أساعده على أن يعذب المواطنين الجزائريين دون ان يصاب من ذلك باضطراب في السلوك ، أي ان يعذبهم بهدوء وجأش رابط (20) .

السلسلة ب

جميعنا هنا حالات أو فئات حالات كان فيها الحادث الذي أطلق المرض هو أولا وقبل كل شيء جو الحرب الشاملة ، الذي يرين على الجزائر .

الحالة 1 ـــ اثنان من الفتيان الجزائريين عمرهما 13 سنة و 14 سنة ، يقتلان رفيقا أوروبيا من رفاقهما في اللعب :

نحن هنا ازاء تقرير من تقرير الطب الشرعي . صبيان جزائريان عمرهما 13 و 14 سنة ، تلميذان في مدرسة ابتدائية ، اتهما بقتل أحد رفاقهما الأوروبيين . وقد اعترف الصبيان بأنهما ارتكبا هذا الفعل . وأعيد تمثيل الجريمة . وضمت الصور الفوتوغرافية الى اضبارتهما . ففي هذه الصور نرى أحد الصبيّيْن يمسك الضحية ، بينما يطعنها الثاني بسكين . لم يتراجع المتهمان الصغيران عن اعترافاتهما . وقد أجرينا معهما محادثات طويلة . ونحن ننقل الى القارىء فيما يلي أقوالهما التي لها صفة مميزة :

أ ـــ الصبي الذي عمره 13 سنة :

«لم نكن غاضبين منه . كنا نذهب في جميع ايام الخميس معا الى الصيد بالنقافة ، على الرابية التي تعلو القرية . وكان رفيقا لنا طيبا . وكان قد انقطع عن الذهاب الى المدرسة ، لأنه كان يريد ان يصبح بناء كأبيه . وفي ذات يوم قررنا ان نقتله ، لأن الأوروبيين يريدون أن يقتلوا جميع العرب . ونحن لا نستطيع ان نقتل «الكبار» ، ولكننا نستطيع أن نقتله هو ، لأنه في مثل سننا . وكنا لا نعرف كيف نقتله . أردنا ان نرميه في حفرة ، ولكن لو رميناه في حفرة لجرح فقط . لذلك أخذنا سكينا من البيت وقتلناه .

ـــ ولكن لماذا وقع اختياركما عليه هو ؟

ـــ لأنه يلعب معنا وما كان لولد آخر أن يصعد معنا الى الرابية .

ـــ ولكنه رفيق لكما ؟

ـــ ولماذا يريدون هم أيضا أن يقتلونا ؟ ان أباه منخرط في الملیشیا ، ويقول : انه يجب ذبحنا .

ــ ولكن هل قال هو لك شيئا من هذا القبيل ؟
ــ هو ؟ لا ...
ــ هل تعلم أنه الآن ميت ؟
ــ نعم ...
ــ ما هو الموت ؟
ــ هو ان ينتهي الأمر ، ويذهب الشخص الى السماء .
ــ أأنت الذي قتلته ؟
ــ نعم ...
ــ هل تشعر بندامة على أنك قتلت أحدا ؟
ــ لا ، ما داموا يريدون أن يقتلونا ...
ــ هل يزعجك انك في السجن ؟
ــ لا ...

ان هذا الفتى المتهم يختلف عن رفيقه اختلافا واضحا . ان ب ــ الصبي الذي عمره 14 سنة : يوشك أن يكون رجلا من الآن ، يوشك أن يكون راشدا بحركات جسمه ، وشكل وجهه ، ولهجة كلامه ، ومضمون أجوبته . هو أيضا لا ينكر أنه قتل . فلما سألته لماذا قتل ، لم يجبني ، بل سألني هل رأيت في حياتي أوروبيا في السجن ، فأجبته بأنني حقا لم أر في حياتي أوروبيين سجناء .

ــ ومع ذلك هناك جزائريون يقتلون كل يوم ، أليس هذا صحيحا ؟
ــ صحيح ...
ــ اذن لماذا لا نجد في السجون الا جزائريين ؟ هل تستطيع أن تفسر لي هذا الأمر ؟

ـــ لا ... ولكن قل لي لماذا قتلت ذلك الصبي الذي كان رفيقا لك ؟

ـــ سأشرح لك ... هل سمعت بقضية ريفية (21) ؟

ـــ نعم ...

ـــ لقد قتل اثنان من اقربائي في ذلك اليوم . وقيل يومئذ عندنا ان الفرنسيين حلفوا ليقتلننا جميعا بعضا في اثر بعض . فهل اعتقل فرنسي واحد بسبب مقتل جميع هؤلاء الجزائريين ؟

ـــ لا أعلم .

ـــ فاعلم اذن انه لم يعتقل أحد . وقد أردت أنا أن أصعد الى الجبال ، لكني صغير . فقررت مع س ... أن من الواجب أن نقتل أوروبيا .

ـــ ولماذا ؟

ـــ وما الذي كان يجب أن نفعله في رأيك ؟

ـــ لا أدري . ولكنك طفل ، وهذه الأمور التي تحدث انما هي من شأن الكبار .

ـــ ولكنهم يقتلون أطفالا أيضا ...

ـــ ولكن هذا لا يبرر قتلك رفيقك .

ـــ قتلته . وافعلوا الآن ما تشاؤون .

ـــ هل اساء اليك هذا الرفيق اساءة ما ؟

ـــ لم يسيء الي .

ـــ اذن ؟

ـــ هذا ما حصل ...

الحالة 2 : شاب جزائري عمره 22 عاما يهذي هذيان اتهام ، ويسلك سلوكا انتحاريا مقنعا بانه يقوم «بعمل ارهابي» :

أرسل هذا المريض الى المستشفى من قبل السلطة القضائية الفرنسية . وقد اتخذ هذا الاجراء بعد شهادة طبية شرعية قدمها أطباء فرنسيون يمارسون مهنة الطب العقلي في الجزائر .

رجل ناحل ، يعاني حالة خلط شديد . جسمه مغطي بكدمات . وفي فكه كسران يجعلان أي ابتلاع للأطعمة مستحيلا . ولذلك ظل المريض خلال أكثر من اسبوعين يغذي بحقن مختلفة .

بعد انقضاء اسبوعين خفت حالة الفراغ الفكري ، وأمكننا أن نحقق بعض الاتصال به ، أوصلنا الى تصور القصة الدرامية التي عاشها هذا الشاب :

كان في فتوته يمارس الكشفية بحماسة نادرة ، حتى أصبح من المسئولين الرئيسيين في الحركة الكشفية الاسلامية . ولكنه حين بلغ التاسعة عشرة من عمره أهمل الكشفية إهمالا تاما ، وأصبح لا يعنى الا بمهنته . فكان يدأب على الدروس دأبا شديدا ويحلم أن يصبح اخصائيا ممتازا في حرفته التي انقطع لها ، وهي حرفة ميكانوغراف . فلما انطلقت الثورة يوم أول تشرين الثاني من عام 1954 ، كان هو غارقا في مشكلات مهنية صرفة ، فلم يستجب أية استجابة لحركة التحرير الوطني . وكان قد انقطع عن رفاقه القدامى قبل ذلك . وقال عن نفسه يومئذ انه «مجند لتحسين قدراته التكنيكية» .

ومع ذلك ففي منتصف عام 1955 ، اثناء سهرة عائلية ، احس فجأة ان أهله يعدونه خائنا . وامحى هذا الاحساس بعد بضعة أيام ، ولكن بقي له منه شيء من القلق أو شيء من الانزعاج لم يستطع أن يفهمه .

أصبح يتناول طعامه بسرعة ، ويهرب من البيئة العائلية ، ويعتزل في غرفته . انه يتحاشى أي اتصال بأحد . وفي هذه الظروف انما وقعت

كارثته . ففي ذات يوم ، بينما كان سائرا في الشارع ، في نحو الساعة الثانية عشرة والنصف ، سمع صوتا واضحا يصفه بأنه خائن . فالتفت الى وراء ولكنه لم ير أحدا . فحث الخطى وقرر أن لا يذهب الى عمله بعد اليوم . ولبث في غرفته ولم يتناول طعام العشاء . وفي أثناء الليل وافته النوبة ، فكان خلال ساعات ثلاث يسمع جميع أنواع الشتائم ، أصواتا في رأسه وفي الليل : يا خائن ، يا جبان .. أخوتك جميعا يموتون ... خائن .. خائن ....» .

استولى عليه قلق لا سبيل الى وصفه : «ظل قلبي ، خلال ثماني عشرة ساعة ، يخفق 130 خفقة في الدقيقة . واعتقدت أنني مائت» .

ومنذ ذلك اليوم اصبح المريض لا يستطيع أن يبلع شيئا . فنحل نحولا ظاهرا ، وانزوى في ظلام مطبق ، واصبح يرفض ان يفتح الباب لأبويه . وفي اليوم الثالث ارتمى يصلي ، فكان يظل ساجدا مدة 17 — 18 ساعة كل يوم ، كما قال . وبعد أربعة أيام رأى نفسه يندفع الى الشارع «كالمجنون» ، «بلحية كان من شأنها أيضا ان تحمل من يراه على ان يحسب انه مجموم» فلما اصبح في الشارع لم يعرف اين يذهب . ولكنه ظل يسير ، بعد زمن في المدينة الأوروبية . وكانت سحنته «يلاحظ انه يشبه ان يكون أوروبيا» تحميه من استيقافات الدوريات الفرنسية ومراقباتها ، على حين أن جزائريين وجزائريات كانوا حواليه يوقفون ويضربون ويشتمون ويفتشون .. ومن الصدف أنه لم يكن يحمل أية ورقة . فكان من شأن هذه اللباقة العفوية من جانب الدوريات العدوة ان عززت هذيانه : «جميع الناس يعلمون أنه مع الفرنسيين . حتى الجنود لديهم تعليمات بأن لا يتعرضوا له» .

وأكثر من ذلك ان نظرات الجزائريين المستوقفين الذين رفعوا يديهم

وراء النقرة ينتظرون تفتيشهم ، بدت له مليئة بالاحتقار . فاضطرب اضطرابا شديدا ، وأسرع يبتعد . وفي تلك اللحظة وصل الى العمارة التي فيها قيادة الجيش الفرنشي . فرأى على الباب الحديدي عددا من العسكريين يحملون مدافع رشاشة . فتقدم نحو الجنود وهجم على أحدهم يحاول ان ينتزع منه مدفعه وهو يقول : «أنا جزائري» .

فسرعان ما قبضوا عليه ، وقادوه الى مراكز الشرطة ، حيث أصر المستجوبون على أن يعترف لهم بأسماء رؤسائه ، وبأسماء مختلف أعضاء الشبكة التي ينتمي اليها . وأدرك رجال الشرطة والعسكريون بعد بضعة أيام أن الرجل مريض . فقرروا احالته الى الطبيب الشرعي الذي شهد بأنه يشكو من اضطرابات عقلية ، ونصح بادخاله المستشفى . قال لنا : «ان ما كنت أريده هو أن أموت . وحتى عند الشرطة كنت اعتقد وآمل ان يقتلوني بعد التعذيب . كنت سعيدا بالضرب ، لأنه يبرهن لي على أنهم يعدونني انا عدوا لهم . لقد أصبحت لا أطيق ان أسمع تلك الاتهامات دون ان ارد عليها . لست جبانا . لست امرأة . لست خائنا» (22) .

الحالة 3 : حالة عصابية لدى شابة فرنسية قتل ابوها ، الموظف الكبير ، أثناء كمين :

ان هذه الفتاة ، وهي طالبة في العام الحادي والعشرين من عمرها ، قد استشارتني في أمر ظاهرات صغيرة من نوع القلق تضايقها في دراستها وفي علاقتها الاجتماعية . راحتا كفيها مخضلتان دائما ، حتى لقد تمر فترات مقلقة حقا «يسيل فيها الماء من يديها سيلانا» تشعر بانقباضات صدرية مصحوبة بصداع في الليل وهي تقضم أظافرها . غير ان الشيء الذي يخطف البصر خاصة هو سهولة الاتصال بها اتصالا سريعا جدا ، في حين يلاحظ أن وراء ذلك قلقا كبيرا . وحين

أشارت المريضة الى موت أبيها الذي لم يمض على موته زمن طويل ، أشارت الى ذلك بخفة كبيرة جعلتنا نوجه بحوثنا نحو علاقاتها بأبيها . ان الكلام الذي قالته لنا ، وهو كلام واضح ، صاح كل الصحو ، صاح صحوا يقارب فقدان العاطفة ، هو الذي كشف لنا بطابعه العقلي نفسه ، عن الاضطراب الذي تعانيه هذه الفتاة ، وعن طبيعة الصراع الذي يقوم في نفسها وعن أصل هذا الصراع .

«كان أبي موظفا من كبار الموظفين . كانت منطقة ريفية واسعة تحت امرته . ومنذ بدأت الأحداث أخذ يطارد الجزائريين بحنق مسعور ، حتى أصبح لا يأكل ولا ينام من فرط ما كان يهتاج في سبيل قمع العصيان . لقد شهدت التحول البطيء الذي عاناه أبي ، دون أن استطيع أن أفعل شيئا البتة . وقررت أخيرا أن أزوره ، وأن أبقى في المدينة . ذلك أنني كلما ذهبت الى البيت كنت أظل مستيقظة ليالي برمتها ، لأن أصواتا صاعدة من أسفل كانت تظل تقرع سمعي : ففي القبو وفي الحجرات التي أصبحت أمكنة للتعذيب ، كان يعذب جزائريون بغية الحصول منهم على معلومات . انك لا تستطيع ان تتصور فظاعة ما يحدثه هذا الصراخ طوال الليل في النفس . وقد تساءلت في بعض الأحيان كيف يطيق كائن انساني ان يسمع صراخ الألم هذا ، ناهيك عن القيام بالتعذيب . وكان ذلك يستمر . وانقطعت آخر الأمر عن المجيء الى البيت . وفي المرات النادرة التي جاء فيها أبي الى المدينة كنت لا أستطيع أن أنظر الى وجهه الا وأشعر بانزعاج شديد ورعب فظيع . وأصبح يشق على نفسي أن أقبله .

«ذلك انني أقمت في القرية زمنا طويلا . حتى لأكاد أعرف جميع أسرها . وما أكثر ما لعبنا معاً . أنا وهؤلاء الشبان الجزائريون الذين هم في سني ، حين كنا صغارا . وكلما جئت الى البيت أنبأني أبي ان

اشخاصا آخرين اعتقلوا . وأصبحت في آخر الأمر لا أجرؤ أن أسير في الشارع ليقيني بأنني سألقي الكره أني ذهبت . وفي قرارة نفسي كنت أرى ان هؤلاء الجزائريين على حق . فلو كنت جزائرية لالتحقت بالمقاتلين» .

وفي ذات يوم أثناء ذلك تلقت برقية تنبئها ان اباها قد اصيب بجراح خطيرة . فذهبت الى المستشفى فوجدته غائبا عن وعيه . ومات بعد ذلك بقليل . لقد جرح أبوها اثناء حملة تفتيشية قام بها مع فصيل عسكري ، فوقعت الدورية في كمين أعده الجيش الوطني الجزائري .

قالت الفتاة : «لقد قززني الدفن . ان جميع اولئك الضباط الذين جاءوا يبكون ابي الذي «جعلته مزاياه الأخلاقية الرفيعة يغزو قلوب سكان البلاد» قد أثاروا في نفسي الغثيان . لقد كانوا يعلمون جميعا ان ذلك كذب . وما من أحد يجهل ان ابي كان يدير مراكز الاستجواب في المنطقة كلها . انهم يعلمون ان قتلى التعذيب كان يبلغ عددهم عشرة في اليوم ، وها هم أولا يرددون الأكاذيب عن الأخلاص والتضحية وحب الوطن وما الى ذلك .. يجب ان أقول ان الألفاظ لم يبق لها في نظري قيمة ، أو لم يبق لها قيمة كبيرة على كل حال . وعدت الى المدينة فورا ، وتهربت من جميع السلطات . عرضوا علي مساعدات مالية ، ولكنني رفضت . لا أريد مالهم . انه ثمن الدم الذي سفحه ابي . لا اريده . سوف أعمل» .

الحالة 4 : اضطرابات في السلوك لدى صبيان جزائريين ، عمرهم اقل من 10 سنين :

هم أطفال لاجئون . أبناء مجاهدين أو مدنيين قتلهم الفرنسيون ، فرحلوا الى مراكز مختلفة بتونس والمغرب . لقد ادخل هؤلاء الأطفال المدارس . ويشرف عليهم بعض الأطباء اشرافا منتظما . وبذلك انما اتيح

لنا ان نرى عددا منهم :

أ) ان لدى هؤلاء الأطفال المختلفين حبا قويا جدا للصور التي تمثل الأبوين . فهم يسعون سعيا حثيثا الى كل ما يشبه أبا أو أما ، ويحرصون على المحافظة عليه أشد الحرص .

ب) يلاحظ فيهم عامة أنهم يخافون الضجة خوفا شديدا ، ويتأثرون تأثرا قويا حين يؤنبون . انهم في ظمأ شديد الى الهدوء والعطف .

ج) كثير منهم يعانون الأرق ويسيرون اثناء النوم .

د) يبللون الفراش من حين الى حين .

ه) ميل سادي . هذه لعبة بينهم : قطعة من الورق يشدونها ويأخذون يثقبونها بالدبوس في كثير من الحنق . يعضون جميعا أقلامهم . يقضمون أظافرهم بدأب لا ينفع فيه نصح . يتشاجرون كثيرا رغم ما بينهم من عاطفة قوية .

الحالة 5 : حالات ذهان الولادة لدى اللاجئات :

يطلق اسم ذهان الولادة على الاضطرابات العقلية التي تظهر في المرأة عند الأمومة . وهذه الاضطرابات يمكن ان تظهر قبل الولادة رأسا أو بعد الولادة ببعضة أسابيع . وأسباب هذه الأمراض معقدة جدا . ولكن يقدر الباحثون أن السببين الأساسيين هما البلبلة التي تطرأ على عمل الغدد الصماء ، ووجود «صدمة عاطفية» . وهذا العامل الأخير ، وان يكن غامضا ، يشمل كل ما تسميه العامة «انفعالا كبيرا» .

فمنذ القرار الذي اتخذته الحكومة الفرنسية بأن تتبع سياسة الأرض المحروقة على مئات الكيلومترات . أصبح يوجد على الحدود التونسية والمغربية ما يقرب من 300000 لاجيء . ويعرف المطلعون حالة العوز

الشديد التي يعيش فيها هؤلاء اللاجئون . لقد انتقلت الى هذه الاماكن بعثات من الصليب الأحمر الدولي ، فلما اطلعت على البؤس الشديد وعلى الظروف القلقة التي تكتنف معيشة هؤلاء التعساء أوصت المنظمات الدولية بزيادة المساعدات التي تقدم اليهم زيادة كبيرة جدا . فمن المتوقع اذن ، بسبب سوء التغذية في هذه المعسكرات ، أن تكون النساء الحوامل متأهبات تأهبا خاصا لانطلاق أمراض ذهان الولادة فيهن .

ان الغزوات المتكررة التي تقوم بها القطاعات الفرنسية ، مطبقة «حق التتبع والمطاردة» ، وكذلك الحملات الجوية وعمليات القصف بالقنابل ــ من المعلوم ان عمليات قصف الأراضي المغربية والتونسية بالقنابل من قبل الجيش الفرنسي أصبحت لا يحصى عددها ، وبعد قصف ساقية سيدي يوسف ، القرية التونسية الشهيرة ، أدماها ــ وأيضا تبعثر أفراد العائلة نتيجة لظروف الرحيل . ذلك كله يحيط هؤلاء اللاجئين بجو دائم من الشعور بعدم الأمان . ويجب أن نعلن أن اللاجئات الجزائريات اللواتي لم تظهر فيهن اضطرابات عقلية قلة قليلة .

وهذه الاضطرابات تكتسي أشكالا عدة . فهي تارة هيجانات يمكن أن تتجلى في سورات عنيفة من الحنق ، وهي تارة حالات هبوط نفسي شديد يتميز بالسكون مع محاولات انتحار متكررة ، وهي تارة حالات خوف مصحوب ببكاء وانتحاب واستغاثة وما الى ذلك . وكذلك يتنوع مضمون الهذيانات التي تلاحظ فيهن . فهو تارة هذيان اضطهاد مبهم يتناول أي شخص من الأشخاص ، وهو تارة هجوم هذياني على الفرنسيين الذين يريدون الطفل الذي سيولد أو الذي ولد منذ قليل ، وهو تارة شعور بأن الموت وشيك ، والمريضات في هذه الحالة الأخيرة يضرعن الى جلادين لا يرون ان لا يقتلوا أولادهن .

ويجب أن نذكر هنا أيضا أن المضامين الأساسية للهذيان لا يطردها تطامن المرضى وتراجع الاضطرابات ، فان الظروف التي تعيشها المريضة بعد الشفاء تظل تغذي فيها هذه العقد المريضة .

السلسلة ج : تبدلات عاطفية عقلية ، واضطرابات نفسية بعد التعذيب .

نجمع في هذه السلسلة المرضى الذين ظهرت اضطراباتهم ، الخطيرة كثير أو قليلا ، بعد التعذيب رأسا أو أثناء التعذيب ، وسنصف فئات فرعية منهم ، اذ لقد أدركنا ان كل طريقة من طرق التعذيب نماذج مرضية خاصة ، بغض النظر عن كون اصابة الشخصية قوية أو عميقة .

الفئة 1 : بعد التعذيب العام الذي يسمونه تعذيبا وقائيا :

نشير هنا الى الطرائق الوحشية التي لا يقصد منها ان تكون تعذيبا بقدر ما يقصد منها ان تجبر المعذب على الكلام . والمبدأ الذي يقول ان الألم حين يبلغ حدا معينا يصبح الما لا يطاق ، هذا المبدأ له هنا أهمية خاصة ، فالغاية اذن هي الوصول الى هذا الحد الذي لا يطاق ، بأقصى سرعة ممكنة . ان التعذيب المحكم لا يستعمل في هذه الحالة ، وانما يعمد المعذبون الى هجوم كبير متعدد الأشكال : فيكون هنالك عدد من رجال الشرطة يضربون السجين في آن واحد ، يطوقه أربعة منهم ويأخذون يتراشقونه بالضرب ، بينما يحرق واحد صدره بسيجارة ويضرب آخر راحتي قدميه بعصا ... بعض طرائق التعذيب المستعملة في الجزائر قاسية قسوة خاصة ، وقد حدثنا عنها أشخاص استعملت في تعذيبهم :

أ ــ حقن الشخص بماء عن طريق الفم ، مع غسل بماء قوي الضغط فيه الصابون . ب ــ ادخال زجاجة في الشرج .

وهناك شكلان من التعذيب يقال لهما التعذيب «بالسكون» :

ج ـــ يركع السجين على ركبتيه ، ويرفع ذراعيه موازيتين للأرض ، موجها راحتيهما الى السماء . جاعلا صدره ورأسه منتصبتين . ولا يسمح له بالقيام بأية حركة . وراءه يجلس شرطي على كرسي ، فاذا تحرك ردة الى السكون يضربان من عصا ذات عقد .

د ـــ يقف السجين جاعلا وجهه الى الجدار ، رافعا ذراعيه ، لاصقا يديه بالحائط . وهنا أيضا لا يجوز له ان يتحرك ، حتى اذا استرخى أي استرخاء انهالت عليه الضربات .

ولنذكر هنا أن ثمة نوعين من المعذبين :

1 ـــ أولئك الذين يعرفون شيئا ما .

2 ـــ اولئك الذين لا يعرفون شيئا .

1 ـــ فأما الذين يعرفون شيئا ما فقلما يجيئون الى المؤسسات الصحية . انه يعرف طبعا ان فلانا من المواطنين قد عذب في السجون الفرنسية ولكن لا يرى كمريض .

2 ـــ وأما الذي لا يعرفون شيئا فانهم كثيرا ما يجيئون يستشيروننا . ولسنا نتحدث هنا عن الجزائريين الذين يضربون اثناء حملة تطهيرية . فهؤلاء ايضا لا يجيئون الينا مرضى . وانما نحن نتكلم عن اولئك الجزائريين غير المنخرطين في منظمات ، الذين يعتقلون ويقادون الى مراكز الشرطة أو مزارع الاستجواب ليستنطقوا .

الأمراض النفسية المشاهدة

أ) حالات هبوط مضطرب : 4 حالات .

هم مرضى يبدو عليهم الحزن ، من غير خوف حقيقي ، يعانون هبوطا شديدا ، فلا يبارحون أسرتهم ، ولا يتصلون أي اتصال بالناس ،

ثم يظهر فيهم على حين فجأة اضطراب عنيف أشد العنف يصعب دائما ان تفهم دلالته .

ب) فقدان القدرة على تناول الطعام : 5 حالات .

ان مشكلات هؤلاء المرضى خطيرة ، اذ ان فقدانهم قدرتهم على تناول الطعام لأسباب نفسية ، مصحوب بخوف شديد من أية ملامسة جسمية ، فاذا اقترب الممرض من المريض وحاول ان يلمسه ، ان يتناول يده مثلا ، رده المريض عنه في قسوة . فليس من الممكن امداد هؤلاء المرضى بتغذية اصطناعية أو تجريعهم أدوية (23) .

ج) فقدان الاستقرار الحركي : 11 حالة .

نحن هنا ازاء مرضى لا يستقرون في مكان . وهم منزوون دائما ويصعب ان يقبلوا الانحباس مع الطبيب في مكتبه .

ان هناك شعورين ظهرا لنا شائعين لدى هذه الفئة الأولى من الذين نالهم التعذيب :

أولهما الشعور بالظلم . كأن شيئا لدى هؤلاء الرجال قد انكسر بعد أن عذبوا ليالي وأياما من أجل لا شيء . وقد عانى أحد هؤلاء المعذبين تجربة مؤلمة خاصة : فبعد أن عذب أياما برمتها من غير طائل ، اقتنع رجال الشرطة أنهم ازاء شخص مسالم ، غريب تماما عن تلك الشبكة من شبكات جبهة التحرير الوطني . ولكن مفتش الشرطة قال لهم رغم ذلك الاقتناع : «لا تتركوه هكذا . شدوا عليه أيضا . فبذلك يبقى هادئا بعد أن يخرج.» (24) .

والثاني عدم الاكتراث بأي حجة أخلاقية . فهؤلاء الرضى يعتقدون أنه ليس هناك قضية عادلة ، ان القضية المعذبة قضية ضعيفة . وعلى المرء اذن قبل كل شيء أن يهتم بزيادة قوته ، وأن لا يتساءل عن عدالة قضية من القضايا . فلا قيمة للقوة .

الفئة 2 : بعد التعذيب بالكهرباء :

أدرجنا في هذه الفئة الوطنيين الجزائريين الذين عذبوا خاصة بالكهرباء والواقع أن الكهرباء كانت في السابق وسيلة من جملة وسائل التعذيب ثم أصبحت ابتداء من شهر أيلول 1956 الوسيلة الوحيدة في بعض الاستجوابات .

الأمراض النفسية المشاهدة

أ) أمراض في الاحساسات تتناول أجزاء معينة من الجسم أو تشمل الجسم كله : 3 حالات .

هم مرضى يشعرون بتنميل في الجسم ، بأن اليد تقلع ، بأن الرأس ينفجر ، بأن اللسان يبلع .

ب) فقدان العاطفة ، فقدان الارادة ، فقدان الاهتمام : 7 حالات .

هم مرضى ساكنون لا يتحركون ، ليس لهم هدف ، ليس فيهم دافع ، يعيشون حياتهم يوما يوما .

ج) ذعر فظيع من الكهرباء : خوف من ملامسة مفتاح كهرباءي ، خوف من اشعال جهاز الراديو ، خوف من التلفون . يستحيل على الطبيب استحالة مطلقة أن يذكر لهم ، ذكرا عارضا ، أن من الممكن أن يعالجوا بصدمة كهربائية .

الفئة 4 : بعد «مصل الحقيقة» :

مبدأ هذه المعالجة معروف . فالمريض الذي يبدو أنه يشكو من صراع نفسي لاشعوري تعجز المحادثة عن ابرأزه الى الخارج ، يلجأ معه الى طرائق كيماوية . ومادة البانتوتال التي تحقن في الوريد هي المادة المستعملة أكثر من غيرها بغية تحرير المريض من صراع يبدو أنه يفوق قدرته على التلاؤم .

فمن أجل تخليص المريض من هذا «الجسم الأجنبي» انما يتدخل

الطبيب (25). وقد لوحظ مع ذلك أن من الصعب أن نتحكم بالانحلال التدريجي للالحاحات النفسية . ولم يكن أمرا نادرا أن نشهد تفاقمات خطيرة ، أو ظهور صفات مرضية جديدة لا سبيل الى تعليلها اطلاقا . ولذلك عمد الاطباء عامة الى هجر هذه الطريقة بعض الشيء .

وفي الجزائر وجد الأطباء العسكريون وأطباء الأمراض العقلية أن في قاعات الشرطة مجالا كبيرا للتجريب . فاذا كانت مادة البانتوتال تزيل ، لدى المصابين بأمراض العصاب ، الحواجز التي تحول دون خروج الصراع النفسي الى النور ، فلا بد ان تستطيع هذه المادة أن تحطم لدى الوطنيين الجزائريين الحاجز السياسي وأن تسهل حمل السجين على الادلاء باعترافات ، دونما حاجة الى استعمال الكهرباء «ان التقاليد الطبية تريد تفادي الالم» . ذلك هو الشكل الطبي من أشكال «الحرب المخربة» .

واليكم السيناريو : أولا : «أنا طبيب ، ولست شرطيا . أنا هنا لمساعدتك» : وبذلك يحصلون بعد بضعة أيام على ثقة السجين . ثانيا : «ساحقنك ببعض الأدوية ، لأنك متعب كثيرا» . ويحقن السجين خلال بضعة أيام بأية مادة فيتامينات ، مقويات مصول مسكرة ، وبعد اربعة أيام أو خمسة يبدأ حقن الوريد بمادة البانتوتال . ويبدأ الاستجواب .

الحالات المرضية المشاهدة

أ) تجمد كلامي :

يكرر المريض بغير انقطاع جملا من هذا النوع : «لم أقل شيئا ، صدقوني ، لم أتكلم» . ويصحب هذا التكرار المتجمد بخوف دائم . والمريض في كثير من الاحيان لا يعرف حقا هل استطاعوا أن ينتزعوا منه

بعض المعلومات . ولكنه يشعر أنه أثم في حق القضية التي يدافع عنها ، وفي حق الاخوة الذين افضى بأسمائهم وعناوينهم ، وذلك يؤثر في نفسه تأثيرا فاجعا . وما من تطمين يمكن أن يرد الهدوء الى هذه الضمائر التي خربت تخريبا .

ب) الادراك العقلي أو الحسي يصبح كتيما :

المريض لا يستطيع أن يؤكد وجود الشيء الذي يبصره . وهو يفهم أستدلالا ما ، ولكن على نحو غير متميز . انه عاجز عجزا أساسيا عن تمييز الحق من الباطل . كل شيء حق وباطل في آن واحد .

ج) خوف مرضي من كل انفراد مع شخص من الأشخاص :

ويرجع هذا الخوف الى شعور المريض بأن من الممكن في كل لحظة أن يستجوب مرة أخرى .

د) كف :

المريض محاذر : يدقق في السؤال المطروح كلمة كلمة ، ويهيء الجواب كلمة كلمة . ومن ثم شعور بما يشبه الكف والمنع ، مع بطء نفسي ، وبتر للجمل وعودة الى الوراء ، الخ .

واضح ان هؤلاء المرضى يرفضون باصرار شديد أي حقن في الوريد .

الفئة 4 : بعد غسل الدماغ

لقد تحدث الناس كثيرا في هذه الفترة الاخيرة عن «التأثير السيكولوجي» الذي تعمد اليه السلطات الفرنسية في الجزائر . ولا نريد هنا أن ندرس هذه الطرائق دراسة نقدية . وانما نكتفي بالاشارة الى نتائجها من ناحية الأمراض العقلية . ان هناك فئتين من مراكز التعذيب بواسطة غسل الدماغ في الجزائر ، فئة للمثقفين وفئة لغير المثقفين .

1 ــ للمثقفين

المبدأ هنا هو حمل السجين على أن يلعب دورا . ويدرك القارىء الى أية مدرسة «نفسية اجتماعية» ترجع هذه الطريقة (6ط) .

أ) يطلب الى السجين أن يمثل دور المتعاون مع الفرنسيين . مبررا هذا التعاون . وبذلك يضطر الى أن يعيش حياة مزدوجة لأنه وطني معروف بأنه كذلك ، ولكنه سحب من التجول على سبيل الوقاية . ان الهدف من هذا هو أن يهاجموا عناصر الشعور القومي من داخل . فالسجين ليس عليه أن يتعاون مع الفرنسيين فحسب ، وأنما يطلب منه أن يناقش المعارضين أو المترددين «بحرية» . وتلك طريقة أنيقة لجعله يدل على الوطنيين ، أي لحمله على أن يكون واشيا . فاذا قال انه لا يجد معارضين ، سموا له هؤلاء المعارضين أو طلبوا اليه أن يعمل كما لو كان يناقش المعارضين .

ب) يطلب الى السجين ان يكتب دراسات عن قيمة المهمة التي تحققها فرنسا ، وعن ان الاستعمار يقوم على أسس صحيحة .

ولكي يقوم السجين بهذا العمل على اكمل وجه ، يحاط بعدد كبير من المستشارين السياسيين : ضباط لشؤون السكان الأصليين ، ويحاط ، أيضا ، باخصائيين في علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعي ، وغير ذلك .

د) يطلب الى السجين أن يتناول حجج «الثورة الجزائرية» بالتنفيذ والنقص واحدة واحدة .

الجزائر ليست أمة ، ولم تكن في يوم من الأيام أمة ، ولن تكون في يوم من الأيام أمة ..

ليس هناك «شعب جزائري» .

الوطنية الجزائرية سخف .

«الفلاحون» أناس طماعون ، مجرمون ، ومساكين مضللون .

ان على كل واحد من هؤلاء المثقفين ان يلقي حديثا في هذه الموضوعات ، وعلى الحديث الذي يلقيه ان يكون مقنعا ، وتقدر لهذه الأحاديث علامات «هي» مكافآت» ، وتجمع العلامات في نهاية كل شهر ، وتعتبر هذه العلامات أساسا في تقدير استحقاق المثقف للخروج من السجن أو عدم استحقاقه .

ه) يفرض على السجين ان يعيش حياة مشتركة مرضية تماما :

لأن يعيش وحيدا فذلك عصيان وتمرد . لذلك يجب أن يكون في كل لحظة مع شخص آخر . والصمت أيضا محظور . ان عليه ان يفكر بصوت عال .

شهادة

جامعي اعتقل وأخضع لعملية غسل الدماغ طوال أشهر . وفي ذات يوم هنأه المسؤولون عن المعتقل على التقدم الذي حققه ، وبشروه بأن اطلاق سراحه قريب .

وإذا كان يعرف مناورات العدو ، فقد حاذر ان يأخذ النبأ مأخذ الجد . ذلك ان الخطة المتبعة هي ان يبشر السجناء باطلاق سراحهم ، قبل الموعد المضروب لعقد جلسة نقد مشترك . حتى اذا عقدت الجلسة كان القرار الذي يتخذ في كثير من الأحيان هو تأجيل اطلاق سراح السجين ، بحجة انه لم يظهر جميع الدلائل التي تشير الى أنه شفي شفاء تاما . ويقول الاختصاصيون في علم النفس الذين حضروا الجلسة ، يقولون عندئذ : لقد دلت هذه الجلسة على أن جرثومة النزعة القومية ما تزال موجودة .

على أن الأمر في هذه المرة لم يكن أمر خدعة . فقد أطلق سراح السجين فعلا . حتى اذا خرج من السجن ، وصار في المدينة مع

أسرته ، هنأ نفسه على أنه أجاد تمثيل الدور ، وأسعده أنه أصبح يستطيع الآن ان يستأنف مكانه في المعركة الوطنية ، وحاول أن يعاود الاتصال برؤسائه المسؤولين . فاذا بفكرة مباغتة رهيبة تثب الى ذهنه : لعله لم يخدع أحدا ، لا رجال السجن ، ولا المعتقلين معه ، ولا نفسه .

ما هو العلاج ؟

هنا أيضا يجب التطمين ، وانتزاع وهم الوقوع في الاثم .

الحالات المرضية المشاهدة

أ) خوف مرضي من كل مناقشة مشتركة . متى كان لقاء مع ثلاثة أشخاص أو أربعة عاد الكف الى الظهور ، واشتد الشك والتردد اشتدادا قويا .

ب) عجز عن تفسير وضع معين والدفاع عنه .

تظهر الفكرة زوجين متعارضين . كل ما يكده المريض يمكن أن ينكره في الوقت نفسه بقدر واحد من القوة . لاشك ان هذا آلم نتيجة مرضية من النتائج التي صادفناها في هذه الحرب . ان «العمل السيكولوجي» الذي وضع في خدمة الاستعمار في الجزائر قد أثمر شخصية حصارية .

2 ــ لغير المثقفين

في مراكز مثل برواغيا ، لا يبدأون بالذاتية من أجل تغيير اتجاهات الفرد ، وانما يعتمدون على الجسم ، يكسرونه املين ان يتهدم الشعور القومي . نوع من الترويض الحقيقي . والكافاة التي ينالها السجين هي الانقطاع عن تعذيبة أو السماح له بأن يأكل .

1) عليه أن يعترف بأنه ليس من جبهة التحرير الوطني .

عليه أن يهتف بهذا على ملأ ، وأن يردده طوال ساعات .

ب) عليه بعد ذلك أن يعترف أنه كان من جبهة التحرير الوطني ثم أدرك أن ذلك كان شرا . اذن : لتسقط جبهة التحرير الوطني .

بعد هذه المرحلة تأتي مرحلة اخرى : مستقبل الجزائر فرنسي ، ولا يمكن أن يكون الا فرنسيا .

بدون فرنسا تعود الجزائر الى القرون الوسطى . نحن فرنسيون . عاشت فرنسا .

ان الاضطرابات التي تشاهد هنا ليست فادحة . والجسم المتوجع المتألم هو الذي يحتاج الى راحة وتسكين .

السلسلة د : اضطرابات نفسية جسيمة

ان الحرب الاستعمارية في الجزائر لم تكثر الاضطرابات العقلية فحسب ، ولا سهلت نشوء ظاهرات مرضية خاصة فحسب ، وانما هنالك عدا الأمراض التي تصيب المعذب والأمراض التي تصيب المعذب ، هنالك أمراض كثيرة ناشئة عن الجو العام ، تجعل الأطباء عامة يقولون حين يرون مريضا لا يفلحون في فهمه : «كل هذا سينتهي بانتهاء هذه الحرب المقدسة» .

ونحن نقترح أن تدرج ، في هذه السلسلة الرابعة ، الأمراض التي نلاحظ لدى الجزائريين الذين سجن بعضهم في معسكرات الاعتقال . ان الطابع الذي يميز هذه الأمراض هو أنها من النوع النفسي الجسمي .

يطلق أسم الأمراض النفسية الجسمية على مجموعة الاختلالات العضوية التي ساعد على نشوئها ظرف صراعي (27) . وهي نفسية جسمية لأنها ترجع في أصلها الى أسباب نفسية . وهذه الأمراض تعد طريقة في لجواب يعمد اليها الجسم ، أى طريقة في التلاؤم مع الصراع الذي يتعرض له ، فكأن المرض مرض وشفاء في آن واحد . ويجمع

الباحثون على القول بصورة أدق ان الجسم «والمقصود ايضا هو الوحدة اللحائية الحشوية ، الوحدة الجسمية على حد تعبير الأقدمين» يتغلب على الصراع هنا بطرق سيئة ، ولكنها طرق اقتصادية على كل حال . فهو يختار أهون الشرين من اجل أن يتحاشي الكارثة .

ولقد أصبحت هذه الأمراض معروفة معرفة جيدة جدا بوجه الاجمال ، وان تكن الطرائق العلاجية المختلفة «كالاسترخاء ، والايحاء» تبدو لنا خاضعة للصدفة . ان البحوث التي تصف الاضطرابات التي نشأت أثناء الحرب العالمية الثانية في انجلترا ابان قصفها بالقنابل وفي الاتحاد السوفياتي لدى السكان المحاصرين وخاصة في ستالينجراد ، بحوث كثيرة . ولقد أصبحنا نعرف الآن حق المعرفة أنه لا حاجة لأن يصاب المرء برصاصة حتى يقاسي جسمه ويقاسي دماغة من وجود الحرب . وقد أوجدت حرب الجزائر ، ككل حرب أخرى ، نصيبها من الأمراض اللحائية الحشوية . واذا استثنينا الفئة «ز» التي سنذكرها بعد قليل ، لاحظنا أن جميع الاضطرابات التي تشاهد في الجزائر قد سبق أن شوهدت في حروب «كلاسيكية» . أما الفئة «ز» فتبدو خاصة بالحرب الاستعمارية الناشبة في الجزائر . وهذه الصورة الخاصة من المرض «وهي التقبض العضلي الذي يعم الجسم كله ، كانت قد لفتت الانتباه قبل انطلاق الثورة . غير أن الأطباء الذين وصفوها قد عدوها آفة ولادية في «السكان الأصليين» ، وصفة تتفرد بها «؟» جملتهم العصبية ، وتبرهن على ان المستعمر تسيطر عليه الجملة «الفوق هرمية» . والواقع أن هذا التقبض العضلي لا يزيد على أن يكون موافقا جسميا عضليا لما يشعر به المستعمر ازاء السلطة الاستعمارية من صلابة ، وحذر ، ورفض .

حالات مرضية مشاهدة

أ) قرحات في المعدة :

حالات كثيرة جدا . تتفاقم الآلام في الليل ، مع تقبؤ شديد ونحول ، وحزن ، وتجهم ، أما سرعة التهيج فاستثناء . يجب أن نشير الى أن أكثر هؤلاء المرضى شباب في ريعان الصبا : من 12 الى 25 عاما . ونحن لا ننصح ، على وجه الاجمال ، باجراء عملية جراحية . لقد أجريت عملية استئصال في المعدة مرتين ، وفي كلتا المرتين اضطروا الى اجراء عملية جراحية ثانية في السنة نفسها .

ب) أوجاع في الحالبين :

هنا أيضا نجد آلاما تشتد في الليل . وليس ثمة حصى طبعا . ويمكن ان تظهر هذه الأوجاع لدى فتية صغار ـــ من 14 الى 16 ـــ وذلك نادر .

ج) اضطرابات الطمث لدى النساء :

هذه الحالات المرضية معروفة جدا ، ولن نتلبث عندها ، فتارة تظل المرأة ثلاثة أشهر أو أربعة بغير حيض ، وتارة تعاني آلاما شديدة تترجع آثارها في المزاج في السلوك المصاحب لهذا الحيض .

د) حالات ارتعاشات قائمة بذاتها :

المرضى شباب ، لا يعرفون الراحة ، بسبب ارتعاش يشمل الجسم كله ، ارتعاش خفيف يشبه شكلا كاملا من أشكال مرض باركنسون . هنا أيضا يستطيع «رجال العلم !» أن يرجعوا المرض الى أسباب تتعلق بالجملة العصبية الفوق هرمية !...

ه) حالات ابيضاض في الشعر في سن مبكرة :

لدي الذين يخرجون من مراكز الاستجواب سالمين ، يشيب الشعر فجأة : تشيب خصل منه ، أو مناطق ، أو يشيب كله ، ويصاحب

هذه الاضطرابات في كثير من الاحيان وهن شديد ، وضعف في الاهتمام ، وعجز جنسي .

و) نوبات تسارع مفاجىء في خفقات القلب :

يزداد عدد خفقات القلب على حين فجأة : 120 ، 130 ، 140 في الدقيقة . ويصاحب هذا التزايد خوف ، وشعور باقتراب الموت ، وتتميز نهاية النوبة بتعرق شديد .

ز) تقبض عام ، تصلب عضلي :

هم مرضى ذكور يشعرون تدريجيا«وفي حالتين كان ظهور الحالة فجائيا» بصعوبة القيام ببعض الحركات . صعود سلم ، مشي سريع ،ركض ومرد هذه الصعوبة إلى تصلب خاص يذكر حتما باصابة بعض مناطق الدماغ «النوى السنجابية المركزية» . وهو تصلب آخذ بالاتساع ، بخطى صغيرة ، يكاد يستحيل على المريض أن يثنى رجليه . ولا يمكنه الحصول على أى استرخاء . المريض متقبض كله ، عاجز عن أي ارخاء ارادى ، فكأنه قطعة واحدة . الوجه ثابت ، ولكنه يعبر عن حيرة كبيرة .

ان المريض لا يبدو قادرا على أن «يخلص أعصابه من هذا التوتر» . انه متوتر دائما ، مترقب ، بين الحياة والموت . قال لنا واحد من هؤلاء المرضى : «ها أنت ذا ترى أنني متصلب منذ الآن كميت» (28) .

في الاندفاع الى الاجرام لدى أهل شمال افريقيا في حرب التحرير الوطني

ما ينبغي للمرأ ان يقاتل في سبيل حرية شعبه فحسب ، وانما ينبغي له أيضا ، ما ظلت هذه المعركة قائمة ، أن يعلم هذا الشعب مرة أخرى ، وأن يعلم نفسه مرة أخرى ، حقيقةالانسان . يجب أن يسير

حالات مرضية مشاهدة

أ) قرحات في المعدة :

حالات كثيرة جدا . تتفاقم الآلام في الليل . مع تقيؤ شديد ونحول ، وحزن ، وتجهم ، أما سرعة التهيج فاستثناء . يجب أن نشير الى أن أكثر هؤلاء المرضى شباب في ريعان الصبا : من 12 الى 25 عاما . ونحن لا ننصح ، على وجه الاجمال ، باجراء عملية جراحية . لقد أجريت عملية استئصال في المعدة مرتين ، وفي كلتا المرتين اضطروا الى اجراء عملية جراحية ثانية في السنة نفسها .

ب) أوجاع في الحالبين :

هنا أيضا نجد آلاما تشتد في الليل . وليس ثمة حصى طبعا . ويمكن ان تظهر هذه الأوجاع لدى فتية صغار — من 14 الى 16 — وذلك نادر .

ج) اضطرابات الطمث لدى النساء :

هذه الحالات المرضية معروفة جدا ، ولن نتلبث عندها ، فتارة تظل المرأة ثلاثة أشهر أو أربعة بغير حيض ، وتارة تعاني آلاما شديدة تترجع آثارها في المزاج في السلوك المصاحب لهذا الحيض .

د) حالات ارتعاشات قائمة بذاتها :

المرضى شباب ، لا يعرفون الراحة ، بسبب ارتعاش يشمل الجسم كله ، ارتعاش خفيف يشبه شكلا كاملا من أشكال مرض باركنسون . هنا أيضا يستطيع «رجال العلم !» أن يرجعوا المرض الى أسباب تتعلق بالجملة العصبية الفوق هرمية !...

ه) حالات ابيضاض في الشعر في سن مبكرة :

لدي الذين يخرجون من مراكز الاستجواب سالمين ، يشيب الشعر فجأة : تشيب خصل منه ، أو مناطق ، أو يشيب كله ، ويصاحب

كم من مرة رأينا ، في باريز أو في ايكس ، في مدينة الجزائر أو في الاراضي الواطئة ، أناسا مستعمرين يحتجون احتجاجا شديدا على الأدعاء بأن الزنجي أو الجزائري أو الفيتنامي انسان كسول . ونحن لا ندعي على كل حال ان الفلاح الذي يتحمس في العمل ، والزنجي الذي يرفض ان يستريح في ظل النظام الاستعماري ، انما هما شخصان شاذان مريضان . ولكننا نقول أن كسل المستعمر انما هو تخريب مقصود للآلة الاستعمارية . انه ، على المستوى البيولوجي ، نوع واضح من حماية الذات ، وهو على كل حاله تأخير اكيد لسيطرة المحتل على البلاد بكاملها .

أن المقاومة التي تبديها الغابات والمستنقعات ، فتحول دون التغلغل الأجنبي هي الحليف الطبيعي للمستعمر . ولقد كان للمدافعين عن المستعمر أن يفهموا هذا الأمر ، فيكفوا عن قولهم ان الزنجي عامل نشيط وحارث ممتاز . ان حقيقة الزنجي في ظل الحكم الاستعماري هي ان لا يحرك اصبعه ، هي أن لا يساعد المضطهد على مزيد من الايغال في فريسته . ان واجب المستعمر الذي ينضج وعيه السياسي بعد ، وقرر أن يرفض الاضطهاد ، هو أن لايقوم بأية حركة الا أن تنتزع منه انتزاعا . فهذا مظهر محسوس ملموس للاتعاون ، أو «للتعاون في أضيق الحدود» على كل حال .

وهذه الملاحظات التي تصدق على العلاقات بين المستعمر والعمل يمكن ان تصدق ايضا على احترام المستعمر لقوانين المستعمر المضطهد ، وعلى دفع الضرائب والرسوم بانتظام ، وعلى العلاقات بين المستعمر والنظام الاستعماري الفاظ جوفاء . لقد اتيح لي في هذه السنين الأخيرة أن أتحقق من صدق هذا الأمر الكلاسيكي جدا ، وهو : أن الشرف والكرامة والمحافظة على العهد المقطوع وما الى ذلك لا

في دروب التاريخ من جديد ، تاريخ الأنسان الذي حكم عليه البشر بالعذاب ، وأن يدعو الى التقاء شعبه بسائر البشر ، وأن يجعل هذا اللقاء ممكنا .

والواقع أن المناضل الذي زج نفسه في معركة مسلحة ، في كفاح وطني ، ينوي أن يظهر كل يوم انواع الانحطاطات التي فرضها الاضطهاد الاستعماري على الانسان . بل ان المناضل ليشعر في بعض الأحيان شعورا مضيضا بأن عليه أن ينقد كل شعبه ، أن ينشله من البئر ، من الكهف . ان المناضل ليدرك في كثير جدا من الأحيان أن عليه لا أن يقاتل القوى العدوة فحسب ، بل كذلك حبات اليأس المتبلورة في جسم المستعمر . ان فترة الاضطهاد مؤلمة ، ولكن المعركة ، اذ تعيد الى الانسان المضطهد اعتباره ، تحقق عملية تكامل ، خصبة غاية الخصوبة ، حاسمة الى أبعد حد . ان المعركة الظافرة التي يخوضها شعب من الشعوب ، لا تكفل له انتصاره في نيل حقوقه فحسب . وانما هي تهيء لهذا الشعب التماسك والانسجام والتجانس . ذلك أن الاستعمار لم يفكك شخصية المستعمر فحسب ، وانما جعل هذا التفكك واضحا أيضا على الصعيد الجماعي في مستوى البنيانات الاجتماعية ، فاذا الشعب المستعمر ليس الا مجموعة من الأفراد تستمد أساسها من وجود المستعمر لا غير .

ان المعركة التي يخوضها شعب من الشعوب في سبيل تحرره تؤدي به على حسب الظروف ، اما الى نبذ الحقائق المزعومة التي بثها في ضميره الحكم المدني الاستعماري والاحتلال العسكري والاستغلال الاقتصادي ، واما الى حطم هذه الحقائق المزعومة . وما من شيء غير القتال يستطيع حقا أن يطرد تلك الأكاذيب التي تقال في حق الانسان ، والتي تدنى أكثرنا وعيا ، بل تخرب أكثرنا وعيا .

غير شعور منها ، وجود هذه الآفات الطبيعية في الشعب الجزائري ، كما ألفت الاستعمار : كسالي بالفطرة ، كذابون بالفطرة ، لصوص بالفطرة ، مجرمون بالفطرة .

ونريد هنا أن نعرض هذه النظرية الرسمية ، وان نذكر أسسها المحسوسة وأدلتها العلمية . وسنحاول أن نفسرها تفسيرا جديدا .

الجزائري يقتل كثيرا :

يقول لك القضاة : ان من الامور الواقعة أن أربعة اخماس القضايا المرفوعة الى القضاة تتصل بطعنات وجروح ، وأن نسبة الجريمة في الجزائر هي من أعلى النسب ، هي من أضخم النسب في العالم بأسره . وليس هنالك جنح بسيطة ، فحين يخالف الجزائري القانون «ويصدق هذا على جميع أبناء شمالي افريقيا» ، فانه يمضي في هذه المخالفة الى حدها الأقصى .

الجزائري يقيل بوحشية : يلاحظ اولا ان السلاح المفضل انما هو السكين . والقضاة «الذين يعرفون هذه البلاد» ، قد أوجدوا لأنفسهم فلسفة صغيرة حول هذا الموضوع . فرجال القبائل مثلا يؤثرون المسدس أو البندقية ، أما عرب السهل فيؤثرون السكين . وتساءل بعض القضاة : ترى أليس الجزائري في حاجة شديدة الى رؤية الدم ؟ ثم قالوا ان الجزائري محتاج الى الشعور بحرارة الدم ، الى أن يستحم في دم ضحية . ويمضي هؤلاء القضاة ورجال الشرطة والأطباء يبحثون بحثا جادا في العلاقة بين روح الاسلام والدم (29) حتى ليذهب بعض القضاة الى أن قتل انسان انما يعني في نظر الجزائري ذبحه . وتظهر وحشية الجزائري خاصة في اكثار الطعنات ، حتى لتراه يطعن القتيل عدة طعنات بعد موته ، وهي طعنات لا فائدة منها . ويقرر تشريح الجثث أمرا لا سبيل الى الشك فيه هو : أن القاتل كأنما اراد أن يقتل

يمكن أن تظهر الا في اطار تجانس قومي ودولي . أما اذا كنت تصفي أنت واقرانك كالكلاب ، فليس لك الا أن تستعمل جميع الوسائل لاسترداد وزنك كأنسان . وعليك اذن ان تضايق جسم الذي يعذبك أكبر مضايقة ممكنة عسى فكره الضال في مكان ما ان يهتدي أخيرا الى حقيقته الانسانية العامة . لقد أتيح لي في هذه السنين الاخيرة أن أرى أن الشرف والتضحية بالنفس ، وحب الحياة ،وكره الموت ، ان ذلك كله يكتسي في الجزائر المقاتلة صورا فذة . ولست أتغنى هنا بالمقاتلين . ولكنها حقيقة ظاهرة لمسها اشد الاستعماريين حنقا ، وهي ان للمقاتل الجزائري طريقة فذة في القتال وفي الموت . ولا يمكن ان ترجع الى الاسلام والى الجنة الموعودة ، تلك التضحية السخية بالنفس ، التي يقدمها المقاتل الجزائري حين يكون عليه ان يحمي وطنه أو أن يفدي اخواته . وما قولك في ذلك الصمت الساحق ـــ الجسم يصرخ طبعا ! ـــ ذلك الصمت الذي يسحق المعذب سحقا ؟ اننا نرى هنا ذلك القانون القديم جدا الذي يحرم على عنصر ما من عناصر الوجود أن يظل ساكنا بينما الأمة تسير ، بينما الانسان يطالب بانسانيته اللامحدودة ويؤكد هذه الانسانية في الوقت نفسه .

من بين الخصائص التي زعم الاستعمار ان الشعب الجزائري يتصف بها ، سنتحدث الآن عن ميله المذهل الى الاجرام ، لقد أجمع القضاة ، ورجال الشرطة ، والمحامون ، والصحفيون ،والأطباء الشرعيون أجمعوا قبل عام 1954 على ان استعداد الجزائري للجريمة مشلكة من المشكلات ، حتى لقد قالوا : ان الجزائري مفطور على الجريمة ، وأنشأوا لهذا نظرية ، وجاءوا ببراهين علمية ! وظلت هذه النظرية طوال أكثر من عشرين عاما تدرس في الجامعات . وتعلم هذه النظرية شبان جزائريون من طلاب الطب ، فاذا بالصفوة تألف ، شيئا فشيئا ، على

من مدارس الطب العقلي ، هي مدرسة كلية الجزائر . ولنتذكر أن النتائج التي وصلت اليها هذه الدراسات من بحوث دامت أكثر من عشرين عاما ، أصبحت تلقى دروسا أساسية في كلية الطب — كرسي الأمراض العقلية — .

وهكذا فان الأطباء الجزائريين الحاصلين على شهاداتهم من كلية مدينة الجزائر قد حملوا على أن يسمعوا وان يتعلموا أن الجزائري مجرم بالفطرة . حتى لقد سمعت واحدا منا يعرض هذه النظريات التي تعلمها عرضا يشتمل على كثير من الجد ، ثم يضيف قوله : «حقيقة مرة ، ولكنها ثابتة علميا» .

أهل شمالي افريقيا مجرمون بالفطرة ، فغريزة الانقضاض على الفرائس معروفة فيهم ،وميلهم القوي الى العدوان واضح تراه الأعين . أهل شمالي افريقيا يحبون التطرف ، لذلك لا تستطيع يوما ان تثق بهم ثقة كاملة . ترى أحدهم صديقك اليوم ، فاذا هو عدوك غدا . أنهم لا يدركون الفروق الطفيفة ، فالروح الديكارتية غريبة عنهم غرابة اساسية . ان الاساس بالتوازن والاعتدال والقصد يخالف استعداداتهم العميقة أشد المخالفة . أهل شمالى افريقيا أناس عنيفون ، عنيفون بالوراثة . يستحيل على واحدهم أن يخضع نفسه للنظام ، وأن يضبط اندفاعاته . نعم ، ان الجزائر اندفاعي منذ الولادة .

يوضحون قائلين : ان هذه الاندفاعية عدوانية ، ميالة الى القتل . وهنا يصلون الى تعليل سلوك السوداوي الجزائري ،وهو سلوك يخرج على القاعدة . ان أخصائيي الطب العقلي الفرنسيين ، في الجزائر ، قد وجدوا أنفسهم أمام مشكلة عسيرة . فقد تعودوا ، اذا هم رأوا مريضا مصابا بالسوداوية ، أن يخافوا عليه من الانتحار ، ولكنهم رأوا ان السوداوي الجزائري يقتل . فهذا المرض الذي يصيب الضمير الأخلاقي

عددا من المرات لا حصر له ، لأن جميع الطعنات خطيرة بدرجة واحدة .

الجزائري يقتل لامر تافة : كثيرا ما يحتار القضاة ورجال الشرطة في أمر البواعث التي حملت على القتل ، حركة بسيطة ، غمزة يسيرة ،كلمة ملتبسة ، ملاسنة حول شجرة زيتون يملكها المتلاسنان ، توغل دابة في ثمن هكتار من الأرض ... انك اذا سألت عن السبب الذي دفع الى قتل هذا القتيل او هذين القتيلين او هؤلاء القتلى الثلاثة احيانا ، اذا سألت عن الباعث الذي يعلل هذا القتل ويوضح أساسه ، وجدته أمرا تافها غاية التفاهة ، فتحتار ، ولذلك تشعر في كثير من الأحيان ان هؤلاء الناس يخفون عنك البواعث الحقيقية .

ومن الملاحظ أخيرا ان السرقة التي يقوم بها جزائري هي دائما سرقة بكسر ، قد يرافقها قتل وقد لا يرافقها قتل ، ولكنها مصحوبة في جميع الأحوال بعدوان على المالك .

فهذه العناصر كلها التي تتجمع حزمة حول ميل الجزائريين الى الاجرام ، بدا أنها تميز الأمر تمييزا كافيا من أجل محاولة تنظيمها في نظرية .

واذا شوهدت حالات مماثلة في تونس ومراكش (وان تكن تلك الحالات أقل بروزا) ، أصبح المتحدثون يتحدثون شيئا فشيئا عن الميل الى الجريمة لدى سكان شمالي افريقيا عامة . وأخذت جماعات من الباحثين ، تعمل منذ اكثر من ثلاثين عاما ، تحت اشراف الاستاذ بورو ، استاذ الأمراض العقلية في كلية الطب بمدينة الجزائر ، أخذت تعمل في توضيح صور التعبير عن هذا الميل الى الأجرام ، وتعليله تعليلا سوسيولوجيا ، وظيفيا ، تشريحيا .

وسنستعمل هنا الدراسات الرئيسية التي أفردتها لهذه المألة مدرسة

الغربي من حب الاضطلاع .

ــ سهولةالاصابة بالحوادث وسهولة الاستجابات الايحائية (30) .

الجزائري لا يدرك المجموع . المسائل التي يطرحها على نفسه تتناول التفاصيل دائما ، وتستبعد كل تركيب . انه يدقق في الأمور التافهة ، ويظل لاصقا بالأشياء ، تائها في التفاصيل ، موصدا دون الفكرة ، عصا على التصورات العقلية . تعبيره بالكلام ضعيف الى آخر حدود الضعف . حركته اندفاعية عدوانية دائما . انه لعجزه عن تأويل الجزء التفصيلي على أساس المجموع الكلي ، يضفي على النصر قيمة مطلقة ،وينظر الى الجزء على أنه الكل . لذلك تراه يرد ردودا كلية على مؤثرات جزئية ، على أمور تافهة : شجرة تين ، حركة ، خروف في أرض . ان العدوانية التي يتصف بها فطرة تبحث لنفسها عن طرق انطلاق ، وتكتفي بأيسر حجة حتى تنفجر . انها عدوانية صرفة (31) .

بعد هذه المرحلة الوصفية أرادت مدرسة الجزائر أن تنتقل الى المرحلة التعليلية . وفي مؤتمر أطباء الأمراض العقلية والعصبية الذين لغتهم الفرنسية ، في هذا المؤتمر الذي عقد بمدينة بروكسل عام 1935 ، انما حدد البروفسور بورو الأسس العلمية لنظريته ، وأشار في معرض مناقشة التقرير الذي وضعه بارون عن الهستريا الى أن «السكان الأصليين بشمالي افريقيا يتصفون بأن نشاط المراكز اللحائية العليا عندهم متخلفة ، فهم أناس بدائيون يسيطر الدماغ المتوسط خاصة على حياتهم التي تقوم على الوظائف الحيوية الدنيا وعلى الغرائز» .

ومن أجل ان ندرك أهمية هذا الاكتشاف الذي جاء به البروفسور بورو يجب أن نشير الى أن ما يميز النوع الانساني ، اذا قيس

والذي يصحب دائما باتهام للذات ويميل الى تحطيم الذات يكتسي لدى الجزائريين أشكالا تميل الى تحطيم الآخرين . ان السوداوي الجزائري لا ينتحر ، بل يقتل . هذه هي السوداوية الميالة الى القتل ، التي أجاد البروفسور بورو دراستها في أطروحة تلميذة مونسيرا .

كيف تفسر المدرسة الجزائرية هذا الخروج عن القاعد ؟ انها تقول اولا ان قتل المرء نفسه معناه انه يعود الى نفسه وينظر في نفسه ، معناه انه يتعاطى تأمل حياته النفسية (الاستبطان) . ولكن الجزائري عصي على الحياة الداخلية . ليس للافريقي الشمالي حياة داخلية . الافريقي الشمالي يخلص من همومه بالارتماء على ما يحيط به . انه لا يحلل . ولما كانت السوداوية مرضا يصيب الضمير الأخلاقي ، فواضح ان الجزائري لا يمكن ان تنشأ فيه الا سوداويات كاذبة ، لأن ضعف ضميره وهزال احساسه الاخلاقي أمران معروفان حق المعرفة أيضا . وهذا العجز في الجزائري عن تحليل موقف من المواقف وعن تنظيم نظرة نفسية شاملة يصبح مفهوما فهما كاملا اذا رجعنا الى التعليلين اللذين يقدمهما هؤلاء المؤلفون الفرنسيون .

ففيما يتصل بالاستعدادات العقلية أولا ، يلاحظ هؤلاء المؤلفون أن الجزائري ضعيف العقل . واذا أردت أن تفهم ذلك حق الفهم ، وجب أن تتذكر الأعراض التي تصفها المدرسة الجزائرية . ان هذه المدرسة تذكر من خصائص السكان الأصليين المميزات التالية :

— ليس لهم انفعال ، أو لا يكاد يكون لهم انفعال .

— سريعو التصديق الى أبعد حد ، قابلون للايحاء الى أقصى درجة .

— عناد مصر .

— طفولة نفسسية ، ينقصها مع ذلك ما يلاحظ لدى الطفل

مندمجة في حركة حياته . لا سر اذن ولا عجب . واحجام المستوطن الأوروبي عن أن يكل المسؤولية الى السكان الأصليين ليس من قبيل التعصب العرقي ، ولا هو من قبيل حب الانفراد بالعمل ، وانما هو ادراك علمي لكون السكان الأصليين محدودي الامكانيات بيولوجيا» .

ولنختم هذا الاستعراض طالبين نتيجة تتناول افريقيا كلها من الدكتور كاروتر ، خبير منظمة الصحة العالمية .لقدجمع هذا الخبير الدولي في كتاب له ظهر سنة 1954 ، زبدة ملاحظاته (32) .

والدكتور كاروتر كان يمارس مهنة الطب في افريقيا الوسطى والشرقية ، غير ان النتائج التي ينتهي اليها تتفق مع نتائج مدرسة شمالي افريقيا . فهذا الخبير الدولي يرى أن «الافريقي قلما يستعمل الفصين الجبهيين من دماغه ، ويمكن أن ترد جميع خصائص الأمراض العقلية في افريقيا الى كسل في الفص الجبهي من الدماغ» (33) .

ومن أجل أن يوضح الدكتور كاروتر رأيه للقارىء ، عقد مقارنة حية جدا ، فقال ان الافريقي السوي انما هو الأوروبي استوصل جزء من دماغه . من المعروف ان المدرسة الأنجلو ساكسونية قد ظنت في ذات يوم أنها اكتشفت علاجا جذريا لبعض الأشكال الخطيرة من الأمراض العقلية ، هو استئصال جزء هام من الدماغ . ولكن ما لوحظ في الشخصية بعد الجراحة من تخريبات كبيرة جعل أصحاب هذا العلاج يعدلون عنه . ويرى الدكتور كارتر أن الشبه بين السكان الأصليين بافريقيا وبين اولئك الذين أجريت لهم تلك الجراحة شبه قوي يخطف البصر .

وبعد ان درس الدكتور كاروتر البحوث التي كتبها أطباء يتعاطون مهنة الطب في افريقيا ، طلع بنتيجة توحد بين الأفريقيين في هذا المضمار ، قال : «هذه هي أوصاف الحالات التي لا تتناول فئات

بالحيوانات الفقرية الأخرى ، هو سيطرة اللحاء .أما الدماغ المتوسط فهو جزء من اكثر اجزاء الدماغ بدائية ، والانسان انما هو ، قبل كل شيء ، الحيوان الذي يسيطر عليه اللحاء من الدماغ .

أن البروفسور بورو يرى أن حياة السكان الأصليين بشمالي افريقيا انما تسيطر عليها المطالب المتصلة بالدماغ المتوسط . فكأنه يقول أن السكان الأصليين بشمالي افريقيا محرومون من اللحاء الدماغي .
والبرفسور بورو لا يتحاشى هذا التناقض ،وها هو ذا في عام 1939 يوضح آراءه ، بالتعاون مع تلميذه سوتر الذي أصبح الآن استاذ الطب العقلي بمدينة الجزائر ، قائلا في مجلة «الجنوب الطبي الجراحي» : «ليست البدائية نقصا من النضج ، ليست توقفا ملحوظا في نمو الحياة النفسية العقلية ، انها حالة اجتماعية بلغت آخر مراحل تطورها ، حالة متلائمة تلاؤما منطقيا مع حياة مختلفة عن حياتنا» .
ويصل هذان الاستاذان أخيرا الى الأساس الذي تقوم عليه عقيدتهما ، فيقولان : «ليست هذه البدائية مجرد أسلوب ناشيء عن تربية خاصة ، وانما هي تقوم على ركائز أعمق من ذلك كثيرا ، حتى لنعتقد أن أساسها استعداد خاص في بنية المراكز الدماغية ، أو على الأقل في التنظيم الطبقي الحركي لهذه المراكز الدماغية .فمن الواضح ان اندفاعية الجزائري ، وكثرة جرائم القتل التي يرتكبها والصفات التي يتصف بها جرائم القتل هذه ، وميوله الدائمة الى اقتراف الجريمة ، وبدائيته ، كل ذلك ليس مصادفة ، فإنما نحن هنا ازاء سلوك منسجم مع نفسه ، ازاء حياة منسجمة مع نفسها يمكن تعليلها تعليلا علميا . ان الجزائري ليس له لحاء دماغي ، أو قولوا على نحو أدق ان السيطرة عنده انما هي للدماغ المتوسط . شأنه في ذلك شأن الحيوانات الفقرية الدنيا . فالوظائف اللحائية ان وجدت عنده فهي ضعيفة جدا ، وليست

كلمات : الاخضاع للنظام ، الترويض ، القمع ، وكذلك كلمة التهدئة في هذه الأيام ، هي الكلمات التي يستعملها الاستعماريون في الأراضي المحتلة أكثر ما يستعملون .

لئن أفضنا في الكلام على النظريات التي جاء بها رجال العلم الاستعماريون ، فما ذلك من أجل ان نظهر فقر هذه النظريات وسخفها ، وانما من أجل ان نعالج مشكلة نظرية وعملية هي على جانب عظيم من الخطورة . والواقع أنه من بين المسائل التي طرحت نفسها على الثورة من بين الموضوعات التي أمكن التنافس فيها على مستوى الشرح السياسي وازالة التضليل ، لم تكن مسألة انتشار الجريمةفي الجزائر الا قطاعا فرعيا . ولكن الأحاديث التي دارت حول هذا الأمر قد بلغت من الخصوبة أنها أتاحت لنا ان نتعمق فكرة التحرير الفردي والاجتماعي ، وأن نحيط بها احاطة أكمل . انك حين ترى القادة يعالجون أمام المناضلين والمقاتلين مسألة انتشار الجريمة في الجزائر ، وحين تراهم يذكرون العدد الوسطي للجرائم والجنح والسرقات التي وقعت في العهد السابق للثورة ، وحين تراهم يشرحون أن شكل الجريمة وكثرة الجنح تابعان للعلاقات القائمة بين الرجال والنساء ، وبين الرجال والدولة ، هذه العلاقات التي يفهمها كل واحد ، وحين ترى فكرة الجزائري او الافريقي الشمالي ، المجرم بالفطرة ، تتبدد من الأذهان بعد ان علقت حتى في ضمير الجزائري الذي كان يقول : نعم ، نحن أناس سريعون الى الغضب ميالون الى المشاجرة ، محبون للشر .. هكذا نحن» ، حين ترى ذلك كله ، تستطيع عندئذ أن تقول : أجل ان الثورة في تقدم .

والمسألة النظرية الخطيرة الشأن هي أن علينا في كل لحظة وفي كل مكان ، أن نشرح ، أن نبدد الأضاليل ، أن نطرد الاهانة الموجهة الى

أوروبية . وقد جمعت في مناطق شتى من افريقيا الشرقية ، وافريقيا الغربية ، وافريقيا الجنوبية . وكان كل باحث من الباحثين لا يعرف الا قليلا أو لا يعرف البتة الدراسات التي كتبها الباحثون الآخرون . ومع ذلك فان بين هذه البحوث كلها تماثلا واضحا كل الوضوح» (34) .

ولنذكر قبل الختام ان الدكتور كاروتر كان يعرف ثورة الماوماو بأنها تعبير عن عقدة حرمان لاشعورية ، وان تكررها يمكن تحاشيه علميا ، بتحقيق تلاؤمات سيكولوجية هامة .

وهكذا فان هذا السلوك غير المألوف : كثرة اقدام الجزائري على ارتكاب الجريمة ، وتفاهة البواعث الدافعة الى ذلك ، وما تتصف به المشاجرات من انها تنتهي الى القتل ،ومن أنها دامية دائما ، كل ذلك قد طرح على الملاحظتين مشكلة تحتاج الى حل . والتعليل الذي جاؤوا به وأصبح يلقى دروسا في الجامعة هو التعليل التالي في آخر الأمر : ان طبيعة البنيانات الدماغية لدى أهالى شمالي افريقيا تفسر ما يتسمون به من كسل ، ومن عجز عقلي واجتماعي ، ومن اندفاعية كاندفاعية الحيوان ، تفسر ذلك في آن واحد . فالاندفاعية الاجرامية لدى أهل شمالي افريقيا انما هي تعبير على مستوى السلوك عن نظام معين في الجملة العصبية ، هي استجابة يمكن ان تفهم نورولوجيا ، هي استجابة قائمة في طبيعة الأشياء ، في طبيعة الشيء البيولوجي . فعدم تكامل الفصين الجبهيين مع عمل الدماغ هو سبب الكسل ، والجرائم ، والسرقات ، والاعتداءات على النساء ، والكذب . ونتيجة ذلك انما أفضى الي بها ناؤب محافظ ـــ أصبح الآن محافظا ـــ وذلك بقوله : «ان هؤلاء الناس الذين هم كائنات طبيعية ، أنما يخضعون لقوانين طبيعتهم خضوعا أعمى ، فيجب أن نواجههم بموظفين صارمين لا يعرفون الهوادة ، يجب علينا أن نروض الطبيعة لا أن نقنعها» ، ان

الفرنسيين . والدوافع اليها جديدة كل الجدة . وهناك ظاهرة غريبة ساعدتنا كثيرا على تبديل الاضاليل من أذهان المناضلين : اننا نلاحظ أن جرائم الحق العام كادت تختفي منذ عام 1954 . فنحن لا نرى منذ ذلك التاريخ مشاجرات وحوادث قتل لاسباب تافهة . لا نرى رجلا ينفجر غضبه انفجارا عنيفا لان جاره لمح جبين امرأته أو لمح كتفها اليسرى . فكأن النضال القومي قد وجه الغضب كله ، وجعل جميع الحركات العاطفية أو الانفعالية قومية . وهذا أمر سبق للقضاة والمحامين الفرنسيين أن لاحظوه ، ولكن لابد للمناضل أن يصبح واعيا له ، لابد من الوصول به الى معرفة اسبابه .

ويبقى التعليل .

هل كان علينا أن نقول ان الحرب ، وهي التربة المناسبة للتعبير عن عدوانية اصبحت اجتماعية ، توجه الميول الاجرامية الوراثية نحو المحتل . ان من الأمور المعروفة أن الهزات الاجتماعية الكبرى تقلل نسبة الجنح والاضطرابات العقلية . فكان في الأمكان اذن أن نعلل نقصان انتشار الجريمة في الجزائر بوجود هذه الحرب التي تشطر الجزائر شطرين وتجعل الآلة القضائية والادارية في صف العدو .

ولكن هذه الظاهرة نفسها التي لوحظت في البلاد المغربية أثناء نضالها التحريري ، ظلت قائمة بعد تحرر تلك البلاد ونيلها استقلالها . وهذا يدل على أننا نستطيع ان نؤول انتشار الجريمة تأويلا جديدا بوجود الاستعمار ، وذلك ما فعلناه مع المناضلين ، فأصبح جميع الناس عندنا يعلمون الآن أن انتشار الجريمة في الجزائر ليس ثمرة طبع فطر عليه الجزائري ، ولا هو ثمرة بنيةالجملة العصبية لديه . ان حرب الجزائر وحروب التحرير الوطني تخلق القادة الصادقين . قالوا لهم : ان الأهالي في ظل الظرف الاستعماري يكونون منحصرين فيما بينهم ، فكل

الانسان . يجب أن لا ننتظر أن تنتج الأمة بشرا جددا . يجب أن لا ننتظر أن يتبدل البشر تبدلا تدريجيا في تجديد ثوري دائم . نعم ان هذين الأمرين هامان غير أن علينا أن نساعد الوعي . فاذا أراد العمل الثوري لنفسه أن يكون محررا تحريرا يبلغ أقصى درجات الخصوبة ، فان عليه أن لا يبقي على اي خروج عن القاعدة . اننا نشعر شعورا قويا بضرورة أن يصبح الحدث شاملا كليا ، أن يحمل المرء كل شيء ، أن يصفي كل حساب ، أن يكون مسؤولا عن كل أمر . ان الوحدة المقاتلة التي تتوغل في الأرض لا يعني انتهاؤها من القيام بكمين أن ترتاح ، وأنما يعني أن هذه هي اللحظة التي يجب فيها على الوعي أن يقطع جزءا من الطريق ، لأن الأمور كلها يجب أن تسير معا .

نعم لقد كان الجزائري يسلك من تلقاء نفسه سلوكا مصدقا لما يقوله القضاة ورجال الشرطة (35) ، فكان علينا أن ننظر الى هذه الاجرامية الجزائرية المعيشة على صعيد الزوجية من حيث أنها تجل للرجولة الحقة ، وأن نطرح المسألة طرحا جديدا على صعيد التاريخ الاستعماري . كما علينا أن نبين مثلا أن جرائم الجزائريين في فرنسا تختلف اختلافا أساسيا عن جرائم الجزائريين الخاضعين للاستغلال الاستعماري خضوعا مباشرا .

وثم أمر آخر لفت انتباهنا : في الجزائر ، يتم جرم الجزائريين عمليا ضمن دائرة مغلقة . فيسرق الجزائريون بعضهم بعضا ، ويمزق بعضهم بعضا ، ويقتل بعضهم بعضا . ان الجزائري قلما يهاجم في الجزائر الفرنسيين وهو يتحاشى المشاجرات مع الفرنسيين . ولا كذلك في فرنسا ، فالمهاجر يجعل الجريمة متبادلة بين مجتمعات ، بين طوائف اجتماعية .

ان جرائم الجزائريين في فرنسا آخذة في النقصان ، وهي تنصب على

العسكريون يرمون كسرا من الخبز لجزائريين صغار ، فراح الصغار يتشاجرون عليها في حنق وكره . ان أطباء الحيوانات الداجنة يستطيعون ان يوضحوا لنا هذه الظاهرات بتذكيرنا «بالتنافر» الذي يلاحظ في احواش الدجاج ، حيث تتنافس هذه الحيوانات على حبات الذرة تنافسا لا هوادة فيه ، فالطيور القوية تبتلع جميع الحبوب فيما الأخرى تضنو وتهزل لأنها لا تعدل الأولى هجوما وعدوانا . ان كل مستعمرة تميل الى أن تصبح حوشا كبيرا ، معسكرا من معسكرات الاعتقال ، لا سيادة فيه لغير قانون السكين .

تغير كل شيء في الجزائر منذ حرب التحرير الوطني . ان جميع ما تملكه أسرة من مؤونة يمكن ان يقدم في ليلة واحدة لجماعة مارة من جماعات المقاتلين . والحمار الوحيد الذي تملكه الأسرة يمكن ان يعار لنقل جريح . وحين يعلم صاحب الحمار بعد بضعة ايام ان حماره قد مات برصاص طائرة ، فانه لا يندفع لاعنا متوعدا ، ولايشك في أن حماره قد مات فعلا ، وانما هو يسأل قلقا : هل وصل الجريح سالما ؟

في ظل الحكم الاستعماري يمكن ان يفعل المرء كل شيء من أجل رطل خبز أو من أجل خروف هزيل ... ان علاقات الانسان بالمادة ، بالطبيعة ، بالتاريخ ، هي في العهد الاستعماري علاقات بالغذاء . ان نحيا ، فذلك لا يعني في النظام الاستعماري وفي ظروف من الاضطهاد كظروف الجزائر ، ان نجد قيما ، وان نساهم في نمو العالم نموا خصبا منسجما ، وانما يعني ان لا نموت . البقاء في هذا النظام ، معناه اقامة الأود . كل ثمرة فهي نصر . ليست ثمرة عمل ، وانما هي انتصار يحسه المرء ظفرا للحياة . لذلك فان اختلاسك الثمر ، وسماحك لخروفك بأن يرعى عشب جارك ، ليس انكارا لملكية الغير ، أو خرقا لقانون ،أو استخفافا .بل هو محاولة قتل . يجب ان يكون المرء قد رأى ، في

واحد منهم يجنح الى الاتخاذ الآخر ستارا له ، وكل واحد منهم يحجب عن الآخر عدو أمته . ان المستعمر الذي يرتمي على بساطه بعد عناء ست عشر ساعة من العمل ، فاذا بطفل من وراء الستارة يأخذ بالبكاء فيمنعه من النوم ، يقول : هذا جزائري صغير . وحين يمضي يلتمس شيئا من الدقيق أو قليلا من الزيت عند البقال الذي له عليه دين قديم يبلغ بضع مئات من الفرنكات ، فيرفض البقال ان يعطيه ما يطلب ،فان موجة كبيرة من الكره تجتاح نفسه ، حتى ليتمنى لو يقتل البقال .. والبقال جزائري . وحين يحاصره الجابي طالبا منه دفع «الضرائب» ،بعد أن تهرب أسابيع كاما ،فأنه لا يتاح له أن يصب كرهه على الحاكم الأوروبي ، لأن الجابي يمتص هذا الكره ، والجابي جزائري . وحين يكون معرضا لمحاولات قتل يومية : بالجوع ، بالطرد من الغرفة التي لم يدفع أجرها ،بجفاف ضرع الأم ،بهزال الاولاد الذين صاروا الى هياكل عظمية ، باغلاق الورشة ، بتعطله وتهويمه مع غيره من المتعطلين حول المدير كالغربان الساغبة ، فانه ينتهي من ذلك الى أن ينظر الى هؤلاء الناس من السكان الاصليين نظرته الى أعداء لا يرحمون . وحين تتمزق قدماه العاريتان بحجر كبير في وسط الطريق ، فان واحدا من هؤلاء السكان الأصليين هو الذي يكون قد وضع الحجر . والزيوتات القليلة التي كان يستعد لقطفها ، قد أكلها في الليل أبناء فلان ... نعم ان المرء في العهد الاستعماري يمكن أن يفعل أمورا كثيرة في سبيل رطل من الدقيق ، يمكن ان يقتل عدة أشخاص . ولابد لمن يريد أن يفهم هذه الأشياء ان يكون واسع الخيال أو أن يكون قوي الذاكرة . ان في معسكرات الاعتقال رجالا قتل بعضهم بعضا في سبيل كسرة من الخبز . وما زلت أتذكر مشهدا فظيعا : كان ذلك في وهران سنة 1944 . في المعسكر الذي كنا ننتظر فيه الرحيل ، أخذ

بل أثرت أيضا في الجزائري . والتحرير الشامل انما هو التحرير الذي يشمل جميع قطاعات الشخصية . ان ما يقوم به المجاهد من نصب للكمائن ومهاجمة للدوريات ، وما يلقاه اخوته من تعذيب وتقتيل ، ان ذلك كله يرسخ عزمه على الانتصار ، ويجدد لاشعوره ويغذي خياله . حين تقلع الأمة بمجموعها فان الانسان الجديد لا يكون ثمرة اقلاعها ، وانما يوجد معها ، وينمو بنموها ، وينتصر بانتصارها . هذه الضرورة الديالكتيكية تفسر لنا الاحجام عن التلاؤم مع مخلفات الاستعمار ،ورفض الاصلاحات التي تتناول المظهر وحده . ليس الاستقلال كلمة تقال ، وانما هو الشرط الذي لابد منه لوجود أولئك الرجال والنساء المتحررين حقا ، أعني المالكين جميع الوسائل المادية التي تتيح لهم ان يبدلوا المجتمع تبديلا جذريا .

مناطق القبائل ، كيف يظل الرجال والنساء أسابيع بكاملها ينقلون من قرارة الوادي الى الجبال ترابا بالسلال ، حتى يدرك أن السرقة محاولة قتل وليست عملا غير ودي ، أو غير شرعي . لذلك أن مدار الأمل كله على هذه المعدة التي ما تنفك تضيق ، وما تنفك مطالبها تقل يوما بعد يوم ، ولكن لا بد من ارضائها مع ذلك . على من تقع المسؤولية ؟ الفرنسي يقيم في السهل مع شرطته وجيشه ودباباته . الجبال ليس إلا جزائريون وفي . الجبال السماء ووعودها بخيرات الحياة الآخرة ، وفي السهول الفرنسيون ووعودهم المحسوسة الملموسة بالسجن والجلد والاعدام . حتم اذن ان ينكفيء المرء على نفسه . تلكم هي نواة ذلك الكره للذات الذي يميز الصراعات العرقية في المجتمعات المنقسمة .

ان ما يسند الى الجزائري من ميل الى الجريمة ومن عنف في القتل ، ليس اذن ثمرة بنيان جملته العصبية ، ولا هو صفة أصيلة من صفات طبعه وانما هو نتيجة مباشرة للوضع الاستعماري . لقد ناقش المناضلون الجزائريون هذه المسألة ، ولم يهابوا أن يعيدوا النظر في الاعتقادات التي ألقاها الاستعمار في روعهم ، وأدركوا كل واحد منهم كان ستارة للآخر ، وأن كل واحد منهم كان في الواقع ينتحر حين يهاجم الآخر . وهذا كله أحدث في الوعي أثرا كبيرا يحتل من الخطورة منزلة أساسية . أعود فأقول ان الهدف الأول الذي يجب أن يسعى اليه المستعمر المقاتل هو أن يقضي على السيطرة . ولكن عليه أيضا ان يحرص أشد الحرص على ازالة جميع الأكاذيب التي غرسها الاضطهاد في جسمه .

ان الأفكار التي كان يعلنها الاستعمار في ظل نظام استعماري كالنظام الذي كان قائما في الجزائر ، لم يؤثر في الأوروبيين فحسب ،

حدود المكان وحدود الفكر . ورفضت أوروبا كل مذلة وكل تواضع ، ولكنها رفضت كل حنان وكل رفق .

فيا أيها الاخوة ، كيف لا نفهم أن هناك ما هو خير لنا من اتباع هذه الاوروبا !

ان هذه الاوروبا التي لم تنقطع لحظة عن الادعاء بأنها لا تهتم الا بالانسان ، نحن نعلم اليوم كم قاست الانسانية من آلام ثمنا لكل نصر من انتصار روحها .

هيا يا رفاق ، لقد انتهت لعبة أوروبا تماما ، وعلينا أن نجد شيئا آخر . اننا نستطيع اليوم ان نفعل كل شيء ، شريطة أن لا نقلد أوروبا تقليدا أعمى وأخرق ، شريطة أن لاتحاصرنا الرغبة في اللحاق بأوروبا .

لقد بلغت أوروبا من فرط السرعة المجنونة الطائشة في سيرها أن زمامها قد أفلت اليوم من كل قيادة ومن كل عقل ، وان دوارا رهيبا يعصف برأسها ويودي بها في هوة يحسن الابتعاد عنها بأقصى سرعة ممكنة . صحيح أننا في حاجة الى نموذج ، الى مثال ، الى قدوة . وان كثيرا منا يفتنه النموذج الأوروبي أكثر من أي نموذج آخر . ولكننا رأينا في الصفحات المتقدمة أنواع الاختناق التي تقودنا اليها هذه المحاكاة . يجب أن لاتغرينا بعد الآن ولا ان تفقدنا توازننا الانجازات الأوروبية والتكنيك الأوروبي والأسلوب الأوروبي .

اني حين أبحث عن الانسان في التكنيك الأوروبي و الأسلوب الأوروبي ، لا أرى الا سلسلة من الانكارات للانسان ، الا مواكب من جرائم قتل الانسان .

ان المصير الانساني ، ومشاريع الانسان ، والتعاون بين البشر في أعمال تغني كيان الانسان ، هذه كلها مشكلات جديدة تتطلب تجديدات مبتكرة حقا .

خاتمة

هيا ، يا رفاق ، انه ليجدر بنا نقرر منذ الآن أن ننتقل الى الضفة الأخرى . الليل الطويل الذي كنا غارقين فيه ، يجب ان نهزه وأن نخرج منه . النهار الجديد الذي أخذ يطلع ، يجب ان يجدنا حازمين واعين قد عزمنا أمرنا .

ينبغي أن نترك احلامنا ، أن نترك اعتقاداتنا القديمة ، ان نترك صداقاتنا التي عقدناها قبل بزوغ الفجر . لا نضيعن وقتنا في دعوات مملة ،وتلونات تبعث على التقيؤ . لنترك هذه الأوروبا التي لا تفرغ من الكلام عن الانسان وهي تقتله حيثما وجدته ، في جميع نواصي شوارعها وفي جميع أركان العالم .

لقد انقضت قرون وأوروبا تجمد تقدم البشر الآخرين وتستعبدهم لتحقيق أهدافها وأمجادها . انقضت قرون وهي ، باسم «مغامرة روحية» مزعومة ، تخنق الانسانية كلها تقريبا . أنظروا اليها الآن وهي تسقط بين تحلل الذرة وتحلل الروح .

ومع ذلك نستطيع ان نقول انها ، في بلادها ، قد نجحت بكل شيء في مجال التحقيق .

لقد أمسكت أوروبا العالم في حماسة واستهتار وعنف ، وانظروا كم يمتد ظل مبانيها وكم يتكاثر ! ان كل حركة قامت بها أوروبا قد حطمت

ان جميع العناصر اللازمة لحل كبريات مشاكل الانسانية قد وجدت في تفكير أروبا في لحظات مختلفة . ولكن عمل البشر الأوروبيين لم يحقق الرسالة المنطوية به ، وهي ان يستند استنذا قويا الى هذه العناصر ، ان بغير ترتيبها ، أن يغير كيانها ، أن يبدلها ، ان ينقل أخيرا مشكلة الانسان الى مستوى أعلى كثيرا .

ونحن نشهد اليوم تجمد الدم في شرايين أوروبا . فلنهرب ايها الرفاق من هذه الحركة الساكنة التي استحال فيها الديالكتيك شيئا الى مناطق توازن . ولنطرح مشكلة الانسان من جديد . لنطرح مسألة الواقع الدماغي ، مسألة الكتلة الدماغية للانسانية كلها ، هذه الكتلة التي يجب علينا أن نضاعف ارتباطاتها ، وأن ننوع سبكاتها ، وان نعيد الى تواصلها طابع الانسان .

هيا يا رفاق ! ان الأعمال التي يقع على عاتقنا ان نقوم بها اكثر من ان نستطيع تضييع وقتنا في الهيات تتسلى بها المؤخرة . لقد صنعت اوروبا ما كان عليها ان تصنعه ، بل لقد أحسنت ، على وجه الاجمال ، صنع ما كان عليها ان تصنعه . فحسبنا اتهاما لها ، ولكن علينا أن نقول لها بقوة انه ما ينبغي لها بعد الآن ان تستمر في احداث هذا الضجيج كله . لقد أصبحنا اليوم لا نخشاها ، وعلينا اذن ان ننقطع عن حسدها .

ان العالم الثالث يقف الآن أمام اوروبا كتلة عظيمة تريد أن تحاول حل المسكلات التي لم تستطع اوروبا ان تأتي لها بحلول .

ولكن يجب علينا ان لا نتحدث عن وفرة الانتاج ، ان لا نتحدث عن الجهد العنيف ، أن لا نتحدث عن السرعة الكبيرة . وليس معنى هذا «ان نعود الى الطبيعة» ، وانما معناه أن لا نشد البشر الى اتجاهات تشوههم ان لا نفرض على الدماغ ايقاعا سرعان ما يفسده ويفقده

فلنقرر أن لا نقلد اوروبا ولنوجه عضلاتنا وأدمغتنا في اتجاه جديد . لنحاول أن نخلق الانسان الكلي الذي عجزت اوروبا عن تحقيق الانتصار له .

منذ قرنين قررت مستعمرة أوروبية ان تلحق بأوروبا ، وقد بلغت من النجاح في ذلك ان الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت كائنا عجيبا مشوها تضخمت فيه تضخما رهيبا عيوب أوروبا وأمراضها ولا انسانيتها .

أيها الرفاق ، أليس علينا أن نفعل شيئا آخر غير خلق أوروبا ثالثة ؟ لقد أراد الغرب ان يكون مغامرة للفكر ، وباسم هذا الفكر ، فكر اوروبا طبعا ، انما سوغت أوروبا جرائمها ، وجعلت استعبادها لأربعة أخماس الانسانية شرعيا

لقد قام الفكر الأوروبي على قواعد عجيبة ، وجرى التفكير الاوروبي كله في أمكنة ما تنفك تخلو من الانسان ، وما تنفك تزداد وعورة ، حتى ألفنا أن يختفي منه الانسان شيئا بعد شيء .

حوار مع الذات لا ينقطع ، ونرجسية ما تفتأ تزداد دعارة ، كان ذلك مهادا لما يشبه الهذيان ، هذيان يصبح فيه عمل الدماغ عذابا ، لأن الوقائع ليست فيه وقائع الانسان الحي الذي يعمل ويصنع نفسه ، بل ألفاظ ومزاوجات شتى بين ألفاظ ، وتوترات ناشئة عن الدلالات التي تتضمنها الألفاظ . على أنه قد وجد أوربيون يهيبون بالعاملين الأوروبيين ان يحطموا هذه النرجسية وان يكفوا عن تجريد الوقائع هذا التجريد .

ولكن العاملين الأوروبيين لم يستجيبوا للنداء بوجه عام ، ذلك أن العاملين قد حسبوا انهم هم أيضا مرتبطون بهذه المغامرة العظيمة التي يقوم بها الفكر الأوروبي .

أما اذا أردنا ان تتقدم الانسانية درجة ، اذا أردنا ان نحمل الانسانية الى مستوى مختلف عن المستوى الذي بلغته أوروبا ، فعندئذ يجب علينا ان نبتكر ، أن نكتشف .

اذا أردنا ان نستجيب لآمال شعوبنا علينا أن نبحث في غير أوروبا .

بل اذا نحن أردنا أن نستجيب لما يتوقعه منا الأوروبيون فيجب ان لا نرد اليهم بضاعتهم ، أن لا نرسل اليهم صورة ، ولو مثالية ، عن مجتمعهم وعن تفكيرهم بعد ان اصبحوا يشعرون نحوهما باشمئزاز شديد .

فمن أجل أوروبا ، ومن أجل أنفسنا ، من أجل الانسانية ، يجب علينا يا رفاق ، أن نلبس جلدا جديدا ، أن ننشيء فكرا جديدا ، أن نحاول خلق انسان جديد .

سلامته . يجب علينا أن لا نتذرع بحجة اللحاق فنزعزع الانسان ونتنزعه من ذاته ، من صميمه ، وأن نحطمه ، أن نقتله .

لا ، نحن لا نريد اللحاق بأحد ، ولكننا نريد ان نمشي طوال الوقت ليلا ونهارا ، في صحبة الانسان ، في صحبة جميع البشر . وعلينا ان نجعل القافلة متراصة غير متباعدة ، والا لم يستطع كل صف من الصفوف أن يرى الصف الذي تقدمه ، ولم يستطع البشر ان يعرف بعضهم بعضا ، وأصبحوا لا يلتقون الا لماما ولا يتحدث بعضهم الى بعض كثيرا .

ان على العالم الثالث ان يستأنف تاريخا للانسان يحسب حساب النظرات التي جاءت بها اوروبا وكانت في بعض الأحيان رائعة ، ولكنه يحسب أيضا حساب الجرائم التي قامت بها اوروبا في الوقت نفسه ، وأبشع هذه الجرائم أنها قد شتتت وظائف الانسان تشتيتا مرضيا ، وفتتت وحدته ، كما أوجدت في المجتمع تحطما وتكسرا وتوترات دامية تغذيها طبقات ، وكما أوجدت على مستوى الانسانية احقادا عرقية واستعبادا واستغلالا بل وقتلا هو ذلك النبذ لمليار ونصف مليار من البشر .

فيا أيها الرفاق ، يجب علينا أن لا ندفع جزية لأوروبا بخلق دول ونظم ومجتمعات تستوحي أوروبا .

ان الأنسانية تنتظر منا شيئا آخر غير هذا التقليد الكاريكاتوري . الفاجر على وجه الاجمال .

اذا أردنا أن نحيل افريقيا الى أوروبا جديدة ، وأن نحيل أمريكا الى أوروبا جديدة كان علينا أن نعهد بمصائر بلادنا الى أوروبيين ، لأنهم سيحسنون التصرف اكثر من أعظمنا موهبة .

أما اذا أردنا ان تتقدم الانسانية درجة ، اذا أردنا ان نحمل الانسانية

قد دشنت بأعمالها العدائية ضد كاسترو ، في نصف الكرة الغربي فصلا جديدا من تاريخ تحرر الانسان . يجب أن تأخذ افريقيا درسا من أمريكا اللاتينية المؤلفة من بلاد مستقلة ممثلة في هيئة الامم المتحدة . ان هذه البلاد التي كانت مستعمرة ما تزال منذ تحررها الى يومنا هذا تقاسي الارهاب والعوز من وحشية الراسمالية الغربية . ان تحرر افريقيا ونمو الوعي لدى البشر قد اتاحا لشعوب امريكا اللاتينية ان تتخلص من تلك النغمة العتيقة ، أعني تعاقب الديكتاتوريات متشابهة لا يختلف بعضها عن بعض . لقد استلم كاسترو زمام السلطة واعطاه للشعب . وشعر الامريكان بان هذا الخروج عن طاعتهم كارثة قوية ، واخدت الولايات المتحدة تنظم عصابات من المرتزقة لمحاربة الثورة ، وتختلق حكومة مؤقتة ، وتحرق محاصيل قصب السكر ، وتقرر أخيرا ان تخنق الشعب الكوبي خنقا بلا رحمة . ولكن هيهات ان تستطيع ذلك . ان الشعب الكوبي سيقاسي كثيرا من الآلام ، ولكنه سينتصر . وهذا جانيو كوادروس ، رئيس البرازيل ، يعلن في خطاب ذي قيمة تاريخية ان بلاده ستدافع عن الثورة الكوبية بجميع ما تملك من وسائل . لعل الولايات المتحدة ستتراجع هي ايضا أمام ارادة الشعب . وسنبتهج يومئذ اكبر الابتهاج لان ذلك اليوم سيكون حاسما بالنسبة الى رجال العالم ونسائه قاطبة . ان الدولار الذي لا يكفله ، على وجه الاجمال ، الا العبيد المنتشرون في الارض ، في آبار البترول بالشرق الاوسط ، ومناجم البيرو او الكونغو . ومزارع شركة الفواكه المتحدة او فايرستون ، لن يسيطر بعد ذلك سيطرة جبارة على هؤلاء العبيد الذين أوجدوه وما يزالون يغذونه من لحوم اجسامهم وقد خوت رؤوسهم وخوت بطونهم .

(8) مامادو دياء ، «الامم الافريقية والتضامن العالمي» ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ص 140 .

(9) مامادو ديا المرجع المذكور .

(10) احمد سيكوتوري ، «الزعيم السياسي كممثل لحضارة» ، خطاب في المؤتمر الثاني للكتاب والفنانين السود ، روما ، 1959 .

(11) نسبة الى جاك كارتييه ، البحار الفرنسي «1491 ــ 1557» الذي وصل الى كندا وسماه الفرنسيون مكتشف كندا . «المترجم»

(12) يلاحظ القارىء العربي في هذه الفقرة من كلام المؤلف انه ليس محيطا بحركة القومية العربية الثورية احاطة تتيح له ان يستشهد بها في هذا السياق دون

هوامش

(1) لقد أوضحنا في بحثنا «جلد أسود وأقنعة بيضاء» آلية هذا العالم الثنائي .

(2) الفصل الخامس من هذا الكتاب «الحروب الاستعمارية والاضطرابات العقلية» .

(3) انجلز ، «انتي دوهرنج» ، الجزء الثاني ، الفصل الثالث ، «نظرية العنف» ، ص 199 من الطبعة الفرنسية «اديسون- سوسيال» .

(4) قد يحدث ان يكون الزعيم المعتقل تعبيرا صادقا عن الجماهير المستعمرة . وفي هذه الحالة ينتهز الاستعمار فرصة اعتقاله من اجل محاولة ايجاد زعماء جدد .

(5) واضح ان هذا التنظيف يهدم الشيء الذي ارادوا انقاذه . وذلك بعينه ما هو ما يشير اليه جان بول سارتر حين يقول : «من مجرد ترديد الافكار العرقية نكتشف ان اتحاد الجميع في آن واحد ضد السكان الاصليين امر لا يمكن تحقيقه ، وانه ليس الا تراجعا دائرا ، وان هذا الاتحاد من جهة أخرى ، لا يمكن ان يتم كتجميع فعال الا من اجل ابادة المستعمرين ، وهي محاولة مستحيلة ما يفتا المعمر يحاولها ، وليست ، اذا أمكن تحقيقها ، الا ازالة للاستعمار دفعة واحدة» . راجع كتاب سارتر «نقد العقل الديالكتيكي» ، ص 346 .

(6) ايميه سيزار «الأسلحة المعجزة» و «سكت الطلاب» ، ص 133 — 137 ، جاليمار .

(7) في الظرف الدولي الراهن نرى الراسمالية لا تعمد الى الحصار الاقتصادي ضد المستعمرات الآسيوية او الافريقية وحدها . فالولايات المتحدة

المقهى كان ملجأً لأشخاص عرقيين معروفين ، ولكن لا شيء يمنع احد المارة من الدخول الى المقهى لأحتساء شيء ما . وقد حاول هذا الشخص ، بعد اليوم الذي شعر فيه بأول دوار ، ان يتحاشى التفكير في الحوادث القديمة . فظهرت الاضطرابات الأولى قبل حلول ذلك الموعد الحرج ببضعة أيام ، واصبحت منذ ذلك الحين تتكرر بغير تخلف .

نقول بتعبير آخر : ان افعالنا لا تكف ابدا عن ملاحقتنا . ان ترتيبها وتنظيمها وتعليلها يمكن ان يتغير بعد ذلك تغيرا عميقا . وهذا من أهم الفخاخ التي يوقعنا فيها «التاريخ» وتحديداته . ولكن هل نستطيع ان نتحاشى الدوار ؟ من ذا الذي يجرؤ ان يدعي ان الدوار لا يلازم كل حياة ؟

(19) بعد التقرير الطبي الشرعي الذي اوضح ان الفعل الذي ارتكبه هذا الشخص ذو طابع مرضي ، اوقفت الملاحقات القضائية التي طلبتها قيادة جيش التحرير الوطني .

(20) نحن في هذه الحالة ازاء مرض يؤلف مجموعة منسجمة لا تدع شيئا من الأشياء سليما . ان الجلاد الذي يحب الطيور أو يستمتع في خلوة هادئة بسمفونية او سوناتة ليست حالته الا مرحلة ، وبعد ذلك تستحيل حياته الى سادية جذرية مطلقة .

(21) قرية اصبحت شهيرة في مقاطعة الجوائر منذ احد ايام سنة 1956 . ذلك ان جنودا من الميليشيا الفرنسية هاجموا هذه القرية في ذات مساء ، فانتزعوا أربعين جزائريا من أسرهم وقتلوهم .

(22) في خلال عام 1955 زادت الحالات التي من هذا النوع زيادة كبيرة . ومن المؤسف انه لم يتح لجميع المرضى حظ الوصول الى المستشفى .

(23) على الهيئة الطبية أن تتناوب العمل ليلا نهارا في إفهام المريض بالشرح . وواضح ان الطريقة القائلة بقسر المريض قليلا ، لا يمكن ان ينفع استعمالها هنا .

(24) ان هذا التعذيب الوقائي يصبح في بعض المناطق «قمعا وقائيا» وعلى هذا الأساس رأينا في ريفه ان المستوطنين الفرنسيين ، وقد ارادوا ان لا يؤخذوا على حين غرة ، (اذ بدأت المناطق المجاورة تتحرك)

فترات مظلمة من تاريخهم ، فليست عودتهم اليه كعودة شعوب افريقيا الى التغني بحضارات قديمة ردا على محاولات الاستعمار .

«المترجم»

(13) رونيه دويستر . «وجها لوجه أمام الليل» .

(14) رونيه دويستر . «وجها لوجه أمام الليل» .

(15) رونيه شار «قسمة شكلية» .

(16) في آخر حفلة لتوزيع الجوائز بمدينة داكار ، قرر رئيس الجمهورية السنغالية ليوبولد ـــ سنغور ، ان يضع في برنامج التعليم دراسة فكرة العرق الزنجي . فاذا كان اهتمام رئيس جمهورية السنغال اهتماما تاريخيا ، فلا يمكن الا أن نوافقه على ما اراد . اما اذا كان المقصود خلق وجدان زنجي ، فانه لا يزيد عندئذ على ان يدير ظهره للتاريخ الذي تولى تحرير اكثرية الزنوج من لتفريق بينهم وبين غيرهم .

(17) في المقدمة التي لم تنشر في الطبعتين الأولتين من كتابنا : «خمس سنين من الثورة الجزائرية» أشرنا الى أن جيلا بكامله من الجزائريين ، جيلا غارقا في بحر ابادة الانسان ابادة جماعية بدون ثمن ، مع كل ما يولده هذا من نتائج نفسية عاطفية ، سيكون هو التركة الانسانية الذي تخلفه فرنسا في الجزائر . ان الفرنسيين الذين يستنكرون التعذيب في الجزائر يتبنون دائما وجهة نظر فرنسية تماما . ليس هذا ماخذا ، وانما هو تقرير لواقع : انهم يريدون ان يحموا ضمير المعذبين الذين يمارسون التعذيب او سيمارسونه ، ويحاولون ان يتحاشوا ما يصيب الشبيبة الفرنسية من فساد اخلاقي . ولا نستطيع ، من جهتنا ، الا ان نوافق على هذا . ان عددا من المشاهدات الطبية التي نجمعها في هذا الكتاب ، والحالتين 4 و 5 بوجه خاص ، مثال على صحة هذا الذي يراود الديمقراطيين الفرنسيين . وغايتنا نحن على كل حال هي أن نبين ان التعذيب بفكك شخصية المعذب «بكسر الذال» تفكيكا عميقا ،وهذا ما لعل القارىء يقدره من تلقاء نفسه .

(18) ان ظروف ظهور هذه الاضطرابات هامة من اكثر من ناحية واحدة . لقد تعرف هذا الشخص ، بعد استقلال بلاده بعدة أشهر ، الى اناس من البلاد التي كانت تستعمر وطنه من قبل ، فوجدهم اناسا لطافا محببين الى قلبه . كان هؤلاء الرجال والنساء يحيون الاستقلال الذي فازت به بلاده ، ويثنون في غير تحفظ على الشجاعة التي اظهرها مواطنوه في نضال التحرير الوطني . فشعر هذا المناضل عندئذ بدوار «دوخة» . وتساءل في قلق ، ترى الم يكن بين ضحايا القنبلة اناس يشبهون هؤلاء الذين يتحدث اليهم الآن ؟ صحيح ان

(30) البروفسور بورو ، «الحوليات الطبية النفسية» 1918 .

(31) يرى عميد القضاة في محكمة بمدينة الجزائر ان عدوانية الجزائري تعبر عن نفسها في حية للنزوة ، قال عميد القضاة هذا عام 1955 : «هذه الثورة كلها ، يخطيء من يظن انها سياسية . فائما الجزائري يحب المعامع ، فلا بد ان ينطلق هذا الحب من حين الى آخر !» . ويرى هذا الاخصائي في علم الاقوام ان وضع سلسلة من الاختبارات والالعاب الاضفائية القادرة على ضبط الغرائز العدوانية الشاملة لدى السكان الأصليين كان يمكن ان يكفي عام 1955 1956 لتوقف الثورة في جبال الاوراس .

(32) كاروتر «سيكولوجية الافريقي ، السوية والمرضية» ، ماسون ، باريز ، 1954 .

(33) المرجع المذكور ، ص 176 .

(34) المرج المذكور ، ص 178 .

(35) واضح من جهة اخرى ان تقمص هذه الصورة التي رسمها الأوروبي كان ذا وجهين . فالاوروبي كان في الواقع يشيد ايضا بالجزائري العنيف الوحشي الغيور المتكبر الذي يخاطر بحياته من اجل امر يسير او كلمة او ما شابه ذلك . ولنذكر عابرين ان اوروبي الجزائر عندما يلقون فرنسي فرنسا ، اصبحوا يميلون اكثر فاكثر الى تقمص هذه الصورة التي تمثل الجزائري في مقابل الفرنسي .

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية، الجزائر
2007

Achevé d'Imprimer sur les Presses
ENAG, Réghaïa
- Algérie -

Bp. 75 Z.I. Réghaïa Tél. : 021 84 80 10/84 86 11

قرروا ان يبيدوا ، هكذا بكل بساطة ، اولئك الذين ربما كانوا أعضاء في جبهة التحرير الوطني ، فقتلوا اكثر من اربعين جزائريا في آن واحد . رغم ان الهدوء كان يسود المنطقة .

(25) والحق انه ليس اجنبيا تماما ، فالصراع ليس الا نتيجة التطور الدينامي الذي تطورته الشخصية ، وهو تطور لا يمكن ان يكون فيه «جسم اجنبي» ، فلنقل ، بالاحرى ، انه جسم غير مندمج اندماجا كافيا .

(26) من المعروف انه نشأ في الولايات المتحدة الامريكية تيار نفسي اجتماعي (سيكولوجي) ، يرى أصحابه ان درامة الفرد المعاصر هو انه اصبح لا يلعب دورا ، وان الآلية الاجتماعية قد جعلته جزءا من آلة لا اكثر . ومن ثم يقترحون طريقة في العلاج تسمح للانسان ان يقوم بادوار في نشاط من اللعب . فيكلف الفرد بأن يمثل أي دور حتى يستطيع أن يبدل دوره في اليوم ذاته ، وان يضع نفسه في مكان اي شخص من الأشخاص رمزيا . ويظهر ان الاطباء النفسيين في الولايات المتحدة يحققون خوارق في المعالجة النفسية الجماعية للعمال ، ذلك انهم يتيحون لهم ان يتوحدوا مع ابطال ، وبذلك ينقص التوتر في العلاقات بين ارباب العمل والعمال نقصانا كبيرا .

(27) ان هذه التسمية التي تعبر عن مفهوم مثالي اصبحت تهجر شيئا بعد شيء . والواقع ان الاصطلاحات «اللحائية الحشوية» التي جاءت بها الابحاث السوفييتية ، وخاصة ابحاث بافلوت تمتاز على الأقل بأنها ترد الدماغ الى مكانه ، أي تعده الرحم الذي تتهيأ فيه الحياة النفسية .

(28) لا حاجة بنا الى أن نذكر ان هذه الحالة ليست تقبضا هستيريا .

(29) من المعروف ان الاسلام يقضي بان لا يؤكل لحم الدابة الا اذا فرغت من الدم ولذلك تذبح الدواب ذبحا .

(30) البروفسور بورو ، «الحوليات الطبية النفسية» 1918 .

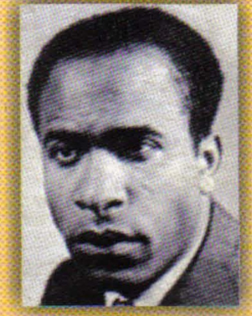
(31) يرى عميد القضاة في محكمة بمدينة الجزائر ان عدوانية الجزائري تعبر عن نفسها في حية للنزوة ، قال عميد القضاة هذا عام 1955 : «هذه الثورة كلها ، يخطىء من يظن انها سياسية . فانما

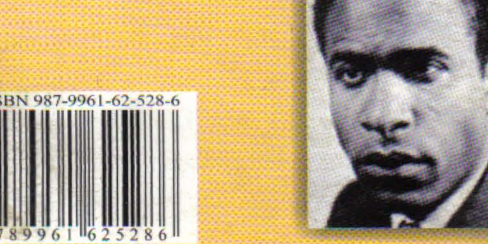


معذبوا الأرض

لقد أثار كتاب «معذبوا الأرض» في سائر أنحاء العالم إهتمام كل الذين يفكرون في تحولات المجتمعات في النصف الثاني من القرن العشرين، وخاصة في علاقات الهيمنة الجديدة التي فرضتها الدول الإستعمارية القديمة والمراكز الإقتصادية على البلدان التي لم تمنعها تصفية الإستعمار من أن تبقى حاملة صفة «البلدان النامية» «الأمم البروليتارية»، «العالم الثالث».

ك. شولي





ISBN 987-9961-62-528-6

9 789961 625286

Designer : Med ZOUAOUI